



مذكرات

الصاغ/ صلاح سالم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مذكرات

الصاغ/ صلاح سالم





مذكرات الصاغ

صلاح سالم

سالم، صلاح.
مذكرات الصاغ صلاح سالم/ دراسة وتحقيق وتعليق: عبد الرازق عبد الرازق عيسى . ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢.
٣٢٨ص: ٢٤سم. ـ (السيرة الذاتية)
تدمك ٩ ٢٥١ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ سالم، صلاح ـ المذكرات.
٢ ـ السياسيون المصريون.
٣ ـ مصر ـ تاريخ ـ العصر الحديث ـ جمال عبد الناصر(١٩٥٤ ـ ١٩٧٠).
أ ـ عيسى، عبد الرازق عبد الرازق. (دارس، محقق، معلق)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٥٢٨٩/ ٢٠١٣

I. S. B. N 978 - 977 - 448 -251 - 9

ديوى ٩٢٠

مذكرات الصاغ
صلاح سالم

دراسة وتحقيق وتعليق

د. عبد الرازق عبد الرازق عيسى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٣



● الكتاب: مذكرات الصاغ

صلاح سالم

● دراسة وتحقيق وتعليق:

د. عبد الرازق عبد الرازق عيسى

● الطبعة الأولى: ٢٠١٣م

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب: ٢٣٥ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس

www.gebo.gov.eg

الإهداء

إلى مصر ذلك العشق الذى جهلناه

ونسينا دورها ومكانتها فى زحام الحياة

عبد الرازق عيسى

التقديم

تلعب المذكرات الشخصية دورًا مهمًا للغاية فى كتابة التاريخ، خصوصا إذا كانت لشخصية محورية لعبت دورًا أساسيًا فى حدث ما، من هنا تأتى أهمية مذكرات صلاح سالم من عدة نواح، اولها كونه عضوًا فى مجلس قيادة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م ولعب أخطر الأدوار فى الإطاحة بمحمد نجيب لصالح عبد الناصر، وثانيها أنه كان عضوًا نشطًا وفاعلاً بل والمسؤول الأول عن السودان فى فترة من أخطر فترات التاريخ الحديث، وما يجرى فى السودان الآن من الاستفتاء للفصل بين شماله وجنوبه يمتد بجذوره لتلك الفترة، وهى نفس الفترة التى شهدت بداية تراجع الدور المصرى فى دول حوض النيل حتى وصلت إلى ماهى عليه الآن.

وتقدم لنا هذه المذكرات صورة بالغة الأهمية عن مصر وعلاقتها بالقوى السياسية المختلفة داخل السودان وكيفية التعامل معها والأخطاء التى ارتكبت فى هذه التعاملات، مما قد يفيدنا فى الوقت الحاضر، كما أنها تصور لنا كيف كانت تتخذ أخطر القرارات المصيرية، فهى تصور جزءًا مهمًا من الحياة السياسية لمصر فى تلك الفترة .

إن هذه المذكرات مثل غيرها يلجأ صاحبها فى كثير من الأحيان للتبرير والدفاع عن النفس فيما تم اتخاذه من قرارات ظهر خطؤها، وهو ما حاولنا تقييمه من خلال المراجع العلمية المختلفة، غير أنه مما يؤكد مصداقية الكثير مما جاء فى المذكرات أنها نشرت قريبة العهد من الأحداث وشخوص الذين تحدث عنهم أحياء ولم يردوا مما يعطى مصداقية كبيرة لها، ومما يؤكد هذه

المصداقية أن القرب من الأحداث جعلها حية فى ذهن كاتبها لم ينس منها شيئًا، ولكننا نرى فيها محاولات مستميتة لادعاء البطولة وتضخيم الذات.

وصلاح سالم شخصية مثيرة للجدل فهو عصبى حاد المزاج جدًا كان يرى فى نفسه أنه أحق بالقيادة من ناصر فدخل فى صراع انتهى بإزاحته عن السلطة، فهو يتقمص البطولة أحيانًا، ومرات أخرى نراه على النقيض تماما فهو يطالب فى أثناء حرب ١٩٥٦م بأن يقوم مجلس القيادة بتسليم نفسه للسفير الإنجليزى فى القاهرة. لذا فمن المهم أن نقرأ ما كتبه حتى نستطيع تكوين صورة واعية عن أولئك الذين تصدروا قمة المشهد السياسى فى وقت ما. ربما نستفيد مما مر بنا من أحداث.

إن ما يحدث فى السودان الآن يجعلنا نفكر جديًا فى إعادة التفكير وتقييم الكثير من المواقف التى اتخذناها بحق السودان، وتساعدنا هذه المذكرات فى هذا الأمر فالسودان هو الصخرة التى كانت تتحطم عليها دائمًا المفاوضات المصرية البريطانية، وكانت النظرة التى توارثتها الحكومات المصرية المتعاقبة حتى ١٩٥٢م أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر، فقد كان هناك فهم واع للأمن القومى المصرى وأن السودان يمثل العمق الاستراتيجى لمصر، وكانت بعض الحكومات الموالية للاحتلال تجبر على تقديم بعض التنازلات الخاصة بالسودان، ولكن هذه التنازلات كانت تقف إلى حد معين، ومن خلال متابعة أحداث تاريخ مصر فى الفترة من ١٨٨٢ حتى١٩٥٢ لم يكن هناك من يجرؤ على القول بفصل السودان عن مصر. إلى أن كانت الواقعة الكبرى التى تُحدثنا عنها هذه المذكرات.

دكتور/عبد الرازق عيسى

أولا الدراسة

أ ـ حكاية المذكرات.

ب ـ مصر والسودان من الوحدة إلى الانفصال.

جـ ـ خطايا يوليو وصلاح سالم فى حق السودان.

د ـ أضواء على المذكرات.

هـ ـ شخصية صلاح سالم.

أ ـ حكاية المذكرات

أصدرت حركة يوليو عدة جرائد ومجلات للتعبير عن توجهاتها والدفاع عنها أمام الرأى العام ، كانت أول جريدة هى الجمهورية التى رأس تحريرها عضو مجلس قيادة الحركة "أنور السادات" وكانت جريدة الشعب هى ثانى صحيفة يومية تصدرها الحركة فى يونيو ١٩٥٦ م برئاسة تحرير صلاح سالم الذى كان أيضاً رئيساً لمجلس الإدارة، وكان يوقع مقالاته فيها باسمه وأحياناً باسم صلاح وأحياناً بتوقيع صاد.

ابتداء من٤ يونيو ١٩٥٦ بدأ صلاح سالم فى كتابة مذكراته ونشرها وكانت الحلقة الأولى بعنوان : "لماذا استقلت من مجلس الثورة ومجلس الوزراء" وتتابعت المذكرات يومياً فى الصفحة الخامسة من الصحيفة فيما عدا مرة واحدة يوم ٢٢ يونيو ١٩٥٦م كانت فى الصفحة الثالثة ، وتتابعت المذكرات بشكل يومى فيما عدا يومى ٢٠ يونيه، و٢١ يونيه لم ينشر فيهما حلقات المذكرات وتتابعت بعد ذلك بشكل طبيعى حتى كانت الحلقة الثلاثون يوم ٦ يوليو ١٩٥٦عن "أزمة الجندى المصرى والجاويش السودانى" وأعلنت الصحيفة يوم السبت ٧ يوليو ١٩٥٦م أن مذكرات صلاح سالم سيتم استئنافها يوم الأثنين ٩ يوليو، ولكن ذلك لم يحدث فى ذلك اليوم أو فى الأيام التالية، وتوقفت المذكرات تماماً ولا نعرف السبب الحقيقى وراء التوقف، وإن كنا نخمن أن نشر المذكرات قد سبب حرجاً للقيادة بما بدأ يفشيه من معلومات لم يكن معظمها معروف حتى أذاعها، فى الوقت ذاته

أعلن أن هناك كثيرًا من المعلومات سوف يعلنها للناس، وهو ما سوف يوقع الكثيرون فى مشاكل، أضف إلى ذلك تلميحاته لعدد كبير من رجال السلطة والملتصقين بهم وهى تلميحات ذات معنى، ففى الحلقة الأولى من المذكرات كتب صلاح سالم : "سأكتب لك كل شىء .. لن أخفى عنك شيئاً... ولن أضع فى أعتبارى إلا التاريخ ... تاريخ بلدك وبلدى ، فإننا نشعر دائماً بحاجتنا إلى الحقائق ... كل الحقائق .. فأنا لا أكتب تاريخ صلاح سالم ، ولكن أكتب تاريخ فترة عشتها ومست حياة وطنى.. فترة من أصعب فترات تاريخنا "وأعتقد أن الفقرة السابقة كانت نوعاً من التهديد لقادة الحركة وعلى رأسهم عبدالناصر نفسه، فهى تشبه ما فعله عبد الحكيم عامر عندما اختلف مع عبدالناصر وطالب بالديمقراطية فهى نوع من الابتزاز السياسى، وفى موضع آخر من المذكرات يؤكد أنه سيتحدث عن : "سأكتب لك عن محنة الأخلاق كثيراً ، تلك المحنة التى عانيت وستعانى منها كثيراً ربما أكثر مما عانيت من محنة الاحتلال الطويل والاستعمار البشع" وأرى أن تلك الفقرة نوعاً من التهديد والتلويح بفضح الكثير من الأسرار لزملائه الحكام الجدد والذى اعتقد صلاح سالم أنهم خانوه وأبعدوه إلى الظل بعيداً عن مواقعه التى كان يشغلها وكان يعتقد أنه أحق بالرئاسة من عبدالناصر لذا نعتقد أن ما كتبه صلاح سالم كان من أهم الأسباب الدافعة لوقف نشر المذكرات.

لكل هذه الأسباب توقفت المذكرات التى دارت فى معظمها حول السودان وما دار من مفاوضات بشأنه سواء مع الإنجليز أو مع السودانيين أنفسهم حتى أعلن استقلال السودان، وتعود أهمية هذه المعلومات فى أن بعضها جديدًا علينا وهى تؤكد على عدة حقائق لعل أهمها غياب الوعى السياسى عند قادة يوليو فيما يتعلق بالسودان الذى يمثل العمق الاستراتيجى المصرى ، والذى أضعناه دون وعى، كما تؤكد هذه المذكرات غياب النظرية والرؤية عند مجموعة يوليو وتخبطهم فى قراراتهم لعدم قدرتهم على اتخاذ القرار؛ لغياب الثقافة والفكر عنهم، فبعضهم وباعتراف صلاح سالم نفسه:"أنه لم يكن قد قرأ سطرًا واحدًا عن السودان قبل أن يتولى شؤون السودان".

ويشعر الإنسان فى أحايين كثيرة أثناء قراءة هذه المذكرات بالصبغة العسكرية تسيطر على الكاتب بعيداً عما صار إليه من العمل المدنى وما يجب أن يتحلى به من الصفات الدبلوماسية فى التعامل مع الآخرين خصوصاً إذا كان هؤلاء الآخرين ساسة غير مصريين، على سبيل المثال عندما أعلن نورى السعيد عن احتفاظه بشريط مسجل لمحادثاته مع صلاح سالم فى سرسنك رد عليه سالم قائلاً: "وأعلن أنى مستعد لأن أطير إلى بغداد متى أراد السيد نورى السعيد لأحضر حفلاً كبيراً أقترح عليه أن يقيمه ليذيع خلاله الشريط المسجل السالف الذكر".

ب : مصر والسودان من الوحدة إلى الانفصال:

كان السودان هو الصخرة التى تتحطم عليها دائماً المفاوضات المصرية البريطانية ، كانت النظرة التى توارثتها الحكومات المصرية المتعاقبة حتى ١٩٥٢م أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر، فقد كان هناك فهم واع للأمن القومى المصرى وأن السودان يمثل العمق الاستراتيجى لمصر، وكانت بعض الحكومات الموالية للاحتلال تجبر على تقديم بعض التنازلات الخاصة بالسودان، ولكن هذه التنازلات كانت تقف إلى حد معين، ومن خلال متابعة أحداث تاريخ مصر فى الفترة من ١٨٨٢ حتى ١٩٥٢م لم يكن هناك من يجرؤ على القول بفصل السودان عن مصر.

وبعد حادثة مقتل "السير ستاك" فى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤م كان من ضمن المطالب التى قدمتها بريطانيا لرئيس وزراء مصر سعد زغلول، سحب الجيش المصرى من السودان، ورفض سعد زغلول بشدة، وعندما أحتج البرلمان المصرى ـ مجلس النواب ـ على تصرفات بريطانيا ورفع الأمر إلى عصبة الأمم فجاء فى هذا الاحتجاج: "إن مجلس النواب المصرى يعلن تمسكه التام بالاستقلال لمصر والسودان اللذين يكونان وطناً واحداً لا يقبل التجزئه"[1] ؟ هكذا كان مفهوم السودان بالنسبة لمصر وللمصريين جزء من الوطن المصرى، يؤكد ذلك ما قاله فؤاد سراج الدين وزير الداخلية الوفدى وقطب الوفد : "أن فكرة الاستفتاء كانت مستبعدة ومرفوضة ، لأنه لا يمكن إقرار استفتاء لأسيوط مثلاً ؟ هذا يعنى أن

الأساس فى النظرة المصرية كان وحدة عضوية شاملة لمصر والسودان. لم يكن هذا موقف الوفد فقط فهناك أحمد حسين زعيم مصر الفتاة ورأيه: "السودان جزء من مصر والشعب السودانى هو الشعب المصرى" (٢)

واستمرت هذه النظرة خصوصاً من جانب الحكومات الوفدية التى أصرت على ضرورة وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى، فى حين أصر الجانب البريطانى على ضرورة أن يكون للسودانيين رأى فى تقرير مصير بلادهم، وكانت حكومة الوفد تربط بين مسألتى الجلاء والسودان بينما كان الجانب البريطانى يصر على فصل كل من المسألتين عن الأخرى.

وفى مفاوضات صلاح الدين ـ بيفين، فاجأ صلاح الدين الحكومة الوفدية فى يناير ١٩٥٢ قبل سفره لحضور اجتماعات عصبة الأمم بأنه يريد إلقاء قنبلة يتحدى بها البريطانيين على أساس قبول الاستفتاء إذا خرج الموظفون البريطانيون من السودان، ورفضت حكومة الوفد، وتراجع صلاح الدين، ولكن الوزارة فوجئت بخطابه يوم٢٣ يناير ١٩٥٢ يطلب نفس ما قاله سابقاً، واجتمع مجلس الوزراء واتهمه د. طه حسين وزير التعليم "بالخيانة الوطنية العظمى" وطالب بمحاكمته وعزله من منصبه وطلب مصطفى النحاس استدعاءه على أول طائرة ، ولكنه وصل يوم ٢٧ يناير بعد إقالة الحكومة الوفدية (٣).

وكان من المبادئ الأساسية فى فكر النحاس وحدة وادى النيل، وهو ما لم تكن بريطانيا تريده وهى التى تخطط لتقسيم السودان ومناوأة مصر من الجنوب، وكان النحاس يقول: "تقطع يدى ولا يقطع السودان"؟ جملة قالها من قبله بأكثر من نصف قرن شريف باشا الذى استقال بوزارته فى ظل الاحتلال لأنه رفض إخلاء السودان وقال : "اذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا"(٤)

وقامت حكومة الوفد الأخيرة برئاسة النحاس بإصدار مرسوم إعلان الملك فاروق ملكاً لمصر والسودان فأصبح نصاً دستورياً، كما ألحق ذلك بالقانون رقم ١٧٧ لسنة ١٩٥١ بمنح الحكم الذاتى الكامل للسودان وقد ورد به: أن يكون

للسودان دستور خاص، تعده جمعية تأسيسية، وإنشاء مجلس وزراء من أهل السودان ، ويتولى الملك سلطته بواسطة وزرائه، وتقرير مسئولية الوزراء متضامنين لدى الهيئة النيابية، أو لدى المجلس المنتخب على الأقل، عن السياسة العامة للوزارة ، وكل منهم من أعمال وزارته(٥) .

بل أنه قبل مفاوضات محمد صلاح الدين بيفين وفى٢٤ بريل ١٩٥١ حددت حكومة الوفد من ضمن مطالب مصر ـ وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى، وتمتع السودانيين فى نطاق هذه الوحدة وفى مدى عامين بالحكم الذاتى.

بعد قيام حركة ٢٣ يوليو١٩٥٢اختار مجلس القيادة أربعة من أعضائه للإشراف على الجيش المصرى وهم اللواء محمد نجيب والصاغ عبد الحكيم عامر والصاغ كمال الدين حسين والصاغ صلاح سالم الذى أسندت إليه شئون الجيش المصرى فى السودان ومن هنا بدأ ارتباطه بقضية السودان.

ويدأ تدفق الوفود السودانية إلى مصر فى محاولة لمعرفة الحكام الجدد وتوجهاتهم، والذين لم يكن من بينهم من هو معروفاً للسودانيين سوى اللواء محمد نجيب الذى كان نصف سودانى، فى ذلك الوقت كان حسين ذو الفقار صبرى يعمل أركان حرب للقوات المصرية فى السودان وعمل على الاتصال بالقيادة فى القاهرة؛ لمعرفة موقف القادة الجدد من السودان، وخصوصاً صلاح سالم الذي وكلت إليه أمور السودان، وذكر صبرى أنه شعر بعدم أهمية السودان للقادة الجدد الذين انصرفوا نحو تأمين أوضاعهم الداخلية: "ولكن أعاود الاتصال به فى إلحاح، وفى ذهنى أن قيام الثورة فى مصر يتيح لنا فرصة إعادة النظر فى علاقتنا السياسية بأحزاب السودان وأبلغ حسين صبرى، صلاح سالم بخطورة الموقف فى السودان وأن ٨ فبراير أخر موعد لإبلاغ الحاكم العام رأى مصر فى دستور الحكم الذاتى فى السودان، ودار حوار طريف بين الاثنين، قال صلاح سالم: لا نجد وقتا لنستحم، فرد عليه حسين صبرى قائلا: دع القيادة

تتخذ إجراء فالمسألة خطيرة وضياع السودان يعنى ضياع ماء النيل؟ "ويبدو أن صلاح سالم أراد التخلص من إلحاح حسين ذو الفقار ففوضه فى الاتصال بالأحزاب والشخصيات السودانية : "ولكنى فى غمرة حماسى اعتبرت ذلك تفويضاً من أعلى سلطة فى البلاد، فأتحرك ساعياً إلى الاتصال بجميع الجهات مقتحماً طريقى إلى أعلى المستويات ، أقبل عليهم بصدر مفتوح ، فأفاجأ بمواقف لم تكن على البال"(٦) .

وقابل حسين ذو الفقار رجال الأحزاب والهيئات السودانية، وكتب تقريراً بذلك: "وطرت الى القاهرة ، حاملاً مذكراتى، تحدونى الآمال، مدفوعاً بحماس أى حماس، فإذا بى أمام حجب كثيفة من أستار ... مجلس قيادة الثورة فى حالة انعقاد مستمر أو يكاد ، دونه أبواب وكانت موصدة بالضبة والمفتاح (٧). ومن المفيد أن نعرض لوصف حسين صبرى لموقف مجلس القيادة من السودان: "كنت أحاول شرح أهمية واستعجال المشكلة التى أفكر فيها، والتى أحمل تفاصيلها فى حقيبة أوراقى فى يدى، غير أن أغلبهم كانوا يبدون مشغولين لدرجة لا يعيروننى فيها اهتماماً، وكان جمال سالم ينصت لدقيقة أو اثنتين، ثم فجأة يتحرك مبتعداً بعد بعض الوعود الفاترة بأن يقنع أخاه صلاح سالم بالاهتمام بالأمر، وكان البغدادى يؤكد لى أنه لن يتوانى عن دفع المجلس إلى الاستماع إلى فور أن يصبح ذلك ممكناً وحاولت مرة الانفراد بصلاح سالم ـ وقد شعرت بأنه قد وكل إليه التصرف فى الشئون السودانية وتفرعاتها جميعاً ـ فأشرح له ما اشتملت عليه مذكرتى من خطوط عامة.. ولكنه فى عجلة من أمره وصل متأخراً إلى مبنى القيادة، وقد سبقه زملائه إلى قاعة الاجتماعات فهو حريص على المسارعة فلا تتخذ خلال غيبته قرارات، دون أن يدل بدلوه فى المناقشات. قلب أوراق المذكرة التى سهرت الليالى فى تدبيجها، أدفع بها إليه مستجدياً، اتشبث بشخصه خشية أن ينفلت ... وتمضى أيام، ثم أسبوع تلو أسبوع، وأنا ذاهب آت من المجلس وإليه ... وعدت أدراجى إلى المنزل وقد تملكنى ضيق ، فمتى ثم متى سوف أتمكن من إثارة موضوع السودان، موضوع مرتبط أشد الارتباط بمصالح مصر الحيوية

على المدى البعيد، فأين منه تلك المشاكل الطارئة التى استحوذت على كل هذه الاهتمامات ؟ أما كان يمكن إرجاؤها"(٨)

بعد تدفق الوفود السودانية إلى القاهرة فى محاولات للاتصال بالحكام الجدد تم استدعاء حسين ذو الفقار للمثول أمام مجلس القيادة وعرض تقريره وكان أهم ما اشتمل عليه من نقاط هى :

- عرض نتائج اتصالاته بالهيئات السودانية جميعاً، مع تحليل للاتجاهات التى تحرك سياستها، ثم ما يطرأ على تلك الجبهات إذ جوبهت بمشروع دستور الحكم الذاتى .
- طالب بحق تقرير المصير للسودانيين ولكن فى حرية تامة يظلها مناخ من حيدة مطلقة، وهذا لا يتأتى إلا بتقييد سلطان الحاكم العام البريطانى، وأن تخضع الانتخابات المقبلة لإشراف دولى قادر على التصدى لتدخلات الأجهزة الإدارية البريطانية الموجودة فى أقاليم السودان.
- سودنة الإدارة فى السودان ورأى التقرير أنها من الدعائم الرئيسية اللازمة لإقرار حكم ذاتى سليم ، كما أنها الخطوة التى سوف تمكن مصر من ضرب النفوذ البريطانى فى السودان.
- رفض فكرة الاستفتاء فى السودان حول مستقبل علاقاته مع مصر وذلك لأن هذا الاقتراح ينطوى على الكثير من القيود والأخطار، وإجراء الاستفتاء فى المناطق البعيدة المترامية ما كان ليهيئ الفرص لإقناع الأفراد بالحجج والبراهين، ذلك لأن معظمهم واقع تحت مؤثرات محلية طاغية.

ومن المفيد أن نترك لقلم حسين ذو الفقار أن يصف لنا وقع استماع مجلس القيادة لتقريره:"... بدا لى أن قد شحنت تقريرى بملامح عن أوضاع لم يكن يتصور أحد من السامعين بأن قد بلغت هذا القدر من تعقيد، فألاحظ انصراف البعض إلى أوراقهم الخاصة - وكأن لسان حالهم يقول "هو احنا يعنى ناقصين مشاكل" ويتظاهر البعض الآخر من قدامى الأصدقاء بالإنصات إلى ما أقول،

بينما أشعر بأن اهتماماتهم الحقيقية إنما مشدودة إلى ما كان وكل إليهم من اختصاصات ... شعرت بخيبة أمل تتخوننى رويداً، فيتبخر الحماس الذى كان يحدونى ولكنى أمضى قدماً، وقد خفت صوتى إلى وتيرة من رتابة، وكأنى أكلم نفسى، فقد انفضت من حولى دائرة الاهتمام[٩].

ووكل إلى محمد نجيب المسألة السودانية يعاونه اثنان هما: صلاح سالم وحسين ذو الفقار باعتباره كاتب التقرير.

عمل حسين ذو الفقار ود. حامد سلطان وعلى حسنى زين العابدين على كتابة المذكرة المصرية للمفاوضات مع بريطانيا حول السودان ، وهى تنص على حق تقرير المصير[١٠] والحكم الذاتى وسودنة الوظائف كان أبرز ما اشتملت عليه المذكرة المصرية هو إنشاء لجنة خماسية للحد من سلطات الحاكم العام ... وهى حجر الزاوية فى التعديلات الدستورية، بغية التمهيد للقضاء على النفوذ الإنجليزى فى السودان.

وهذه المذكرة تعتبر تحولاً عن الموقف المصرى الجذرى والثابت من السودان وهو أن السودان جزء لا يتجزأ من الوطن المصرى، لذا أحدثت تلك المذكرة دوياً هائلاً لأنها أول تحرك مصرى دولى بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م ومن ناحية أخرى لأنها اتسمت بموقف مغاير للثوابت المصرية.

عمل صلاح سالم على التمهيد للناس حتى يتقبلوا هذا التغيير وكانت الوسيلة فى ذلك الصحافة ، فكتبت الصحف المصرية التى أصبحت موجهة من مجلس القيادة المقالات والتحليلات فى هذا الأمر.

بعد إعلان المذكرة المصرية طار صلاح سالم وحسين ذو الفقار إلى السودان للحصول على تأييد الأحزاب السودانية للمذكرة المصرية، والتقيا بقادة تلك الأحزاب، ولكنهما يستدعيان سريعاً للقاهرة، لتحديد موعد بدء المفاوضات مع الجانب البريطانى، وكان صلاح سالم يهدف إلى ضرورة الحصول على وثيقة موحدة تحدد مواقف الأحزاب السودانية من المذكرة المصرية، حتى لا يترك

الجانب البريطانى يتحجج كلما جوبه بموقف محدد من الجانب المصرى، بأن صياغة الأحكام المنظمة للإجراءات التى سوف تعالج التطورات المقترحة، إنما بحاجة إلى مزيد من تشاور مع الهيئات السودانية تبصيراً لهم بما سوف يترتب عليها من عواقب.

أثناء تلك الزيارة التقى صلاح سالم وحسين صبرى مستشار السفارة البريطانية فى الخرطوم وأبلغاه أن النظام الجديد يقدم فكرة جديدة تماما عن السودان، وقد تخلى عن شعار وحدة وادى النيل، ويعمل على استقلال السودان استقلالاً حقيقيًا، وهو تغيير كبير، واللواء محمد نجيب والحكومة يقومان بجهد حقيقى مخلص للتوصل إلى حل عملى لمشكلة السودان، ولكنهما يخشيان إعطاء مناوئيهما الكثيرين فرصة مواتية للهجوم عليهم(١١).

وبذلك فالنظام الجديد لم يرفع ما رفعه النظام القديم من "ضرورة الجلاء ووحدة وادى النيل، ومن أجل دفع المفاوضات إلى الأمام، قرر العسكريون إسقاط مطالب مصر بشأن الاتحاد مع السودان لصالح الحكم الذاتى للسودانيين، علاوة على هجرهم لتكتيكات النظام القديم التى كانت تربط مسألة السودان بمسألة الدفاع، وقد استحسنت وسائل الإعلام الغربى الموقف المصرى الجديد، فكتبت التايمز فى صدر صفحاتها الرئيسية تعليقًا يقول: "على ما يبدو فإن مصر قد قدمت فى مسألة السودان أكثر مما قدمه البريطانيون وزيادة"(١٢) .

ارسل محمد نجيب مذكرة إلى البريطانيين اقترح فيها الآتى:

- تمكين السودانيين من ممارسة الحكم الذاتى الكامل.
- تهيئة الجو الحر المحايد الذى لابد من توافره لتقرير المصير.

وكان هذا التغير الجذرى فى أيديولوجية المفاوض المصرى مفاجأة تامة للحكومة البريطانية التى لم تجد بدأ من الموافقة (١٣).

وقبل بدء المحادثات حول السودان كتب السفير الأمريكى فى القاهرة لحكومته فى ١٢ / ١٠ / ١٩٥٢ قائلاً :"نجيب وضباطه يدركون بوضوح أنهم يتخلون عن

سياسة حكومات مصر الماضية التى كانت تطالب بوحدة وادى النيل، وقال نفس السفير "ولو أن المصريين قلبوا المائدة على الإنجليز بطرح مقترحات تؤيدها الأحزاب السودانية الرئيسية والتى تهدف إلى إنهاء السيطرة البريطانية على السودان، إلا أن الحقيقة هى أن بريطانيا كسبت معركة إبعاد المصريين من السودان والمصريون يعرفون ذلك[١٤].

لم يستطع السفير البريطانى فى القاهرة أن يكتم سعادته بما جاء فى المذكرة وأبرق إلى لندن يقول: "أرى من الضرورة الاستفادة إلى أقصى حد من شجاعة اللواء محمد نجيب وبراعته كرجل دولة، فى تغيير مسار السياسة المصرية المصرية، الذائعة الصيت، حول وحدة وادى النيل تحت التاج المصرى،... وقال: السفير البريطانى: قبول الحكومة المصرية لمبدأ الحكم الذاتى الفورى وتقرير المصير للسودانيين خلال فترة محددة يمثل خطوة للأمام ويقربها أكثر من وجهات نظر الحكومة البريطانية [١٥].

ويرى البعض أن أمريكا أدركت أن رفض بريطانيا لاتحاد مصر والسودان هو رفض نهائى لا سبيل لتذليله، وصادف هذا الموقف البريطانى هوى لدى المبشرين الأمريكان والاستعماريين التقليديين فى الإدارة الأمريكية من أعداء الامتداد العربى الإسلامى فى أفريقيا، والمدرسة الصهيونية التى ترفض أية تقوية لمصر، والتى تعتقد أن الضغط على الشعب المصرى أو خنقه داخل حدود مصر هى أفضل وسيلة لانهيار مقاومته وقبوله السيادة الإسرائيلية على المنطقة، أو على الأقل تقليل فعاليته، لذلك كانت الصفقة هى إقناع الإنجليز بقبول الجلاء عن السودان مقابل عدم اتحاده مع مصر، وإقناع المصريين بالتركيز على تحقيق الجلاء وبناء قوة مصرية بدلاً من الجرى وراء سراب وحدة وادى النيل التى لن يسمح بها الإنجليز أبداً، وهو ما قبلته القيادة العسكرية الحاكمة فى مصر[١٦].

بدأت المباحثات المصرية البريطانية حول السودان فى ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢م وتشكل الوفد المصرى برئاسة محمد نجيب وعضوية صلاح سالم وحسين ذو

الفقار صبرى والدكتور محمود فوزى والدكتور حامد سلطان وعلى زين العابدين بينما كان الوفد البريطانى مكوناً من سير رالف ستيفنسون ومستر كووزويل الوزير المفوض ومستر باورز السكرتير الأول بالسفارة.

بعد انتهاء الجولة الأولى من المفاوضات بين الطرفين، سافر صلاح سالم إلى السودان، ونجح فى الحصول على موافقة الأحزاب المتمركزة رئاستها فى الشمال على نصوص المذكرة المصرية ، فى صلب وثيقة موحدة، تم توقيعها فى١٠ يناير ١٩٥٣م بعد إدخال تعديلات قليلة عليها، كما حصل على توقيعات الجنوبيين أثناء رحلته إلى الجنوب، ووقع الجميع على الوثيقة الموحدة، فى الوقت ذاته عمل صلاح سالم على جمع الأحزاب الوحدوية فى حزب واحد هو الحزب الاتحادى.

بعد مفاوضات استمرت عدة جلسات وقعت اتفاقية تقرير مصير السودان بين مصر وبريطانيا، يوم الخميس ١٢ فبراير١٩٥٣ وقع الاتفاقية عن مصر محمد نجيب وعن الجانب البريطانى "ورالف ستيفنسون "ونصت على:

- وجود فترة انتقالية مدتها ثلاث سنوات، يتم فيها تصفية الإدارة الثنائية: الانجلو مصرية.
- يكون للحاكم العام أثناء فترة الانتقال السلطة الدستورية العليا وفقاً لقانون الحكم الذاتى، تعاونه لجنة خماسية مؤلفة من عضوين سودانيين ومصرى وبريطانى وباكستانى، مثل مصر فيه حسين ذو الفقار صبرى.
- تأليف جمعية تأسيسية منتخبة لتقرير مصير السودان على أساس: -
- أرتباط السودان بمصر على أية صورة
- أو الاستقلال التام والانفصال عن مصر.
- أن تنسحب القوات العسكرية المصرية والبريطانية من السودان فور إصدار البرلمان السودانى رغبته فى الشروع فى اتخاذ التدابير لتقرير المصير.
- تشكيل لجنة لسودنة الوظائف خلال فترة الانتقال وهى تتكون من خمسة أعضاء (عضو مصرى - وعضو بريطانى - وثلاثة أعضاء سودانيين) (١٧).

أجريت أول انتخابات سودانية فى ظل الاتفاقية، وفاز الحزب الوطنى الاتحادى برئاسة إسماعيل الأزهرى بأغلبية ساحقة، وتولى الأزهرى رئاسة أول وزارة سودانية يوم ٩ يناير ١٩٥٤م، وساءت الأحوال بين الأزهرى وصلاح سالم، وتحول من الخط الوحدوى إلى المطالبة بالاستقلال عن مصر.

وهو ما سوف نوضحه فى تحليل مضمون المذكرات ـ وعلى الجانب المصرى بدأ صلاح سالم يتعرض لهجمات زملائه، بل وبعض ضباط الصف الثانى، وهو الذى كان عنيفاً فى هجومه على محمد نجيب، وبدأ مجلس القيادة يحاصر صلاح سالم، وانتقد عبدالناصر سياسة سالم فى التعامل مع الزعماء السياسيين السودانيين بأسلوب غلبت عليه روح المنفعة الذاتية ، وتقدم صلاح سالم باستقالته للمرة الثانية فى سبتمبر ١٩٥٥ وقبلها المجلس فوراً .

وتولى زكريا محى الدين مسئولية السودان، وسحبت مصر وبريطانيا جيوشها من السودان، ووجدت حكومة السودان بعد الجلاء أن الأمر لا يحتاج إلى استفتاء بشأن شكل الحكم بعد اتفاق كل الأطراف الحاكمة على معارضة الاتحاد، وأعلنت قيام الجمهورية السودانية فى ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ وتشكيل مجلس قيادة لرئاسة الدولة، وأعلن مجلس قيادة الثورة فى مصر استقلال السودان رسمياً فى أول يناير ١٩٥٦م (١٨).

جـ ـ خطايا يوليو وصلاح سالم فى حق السودان:

لاشك أنه ارتكبت العشرات من الأخطاء التى أدت فى النهاية إلى الانفصال بين مصر والسودان، ويعتبر صلاح سالم مسؤولاً عن بعضها، ومجلس القيادة عن البعض الآخر، ومن هذه الأخطاء:

ـ من خلال المصادر المختلفة ومنها حسين ذو الفقار صبرى يتضح أن مجلس القيادة كان مشغولاً بأمور أخرى كثيرة بعيداً عن السودان، وفى الاجتماعات كانت ظروف العمل فى مجلس القيادة لا تسمح كثيراً بالمناقشة أو المتابعة الدؤوبة، وكانت ثقافة هؤلاء الضباط عسكرية، ولم تكن لتؤهلهم لتولى أعمال مدنية،

ومسؤولية قضايا كبرى ذات أبعاد دولية مثل قضية السودان، وهو أمر يحتاج منذ البداية إلى تنظيم علمى دقيق وهو ما لم يكن متاحًا لهم.

- أدت كثرة الأعمال داخل مجلس القيادة إلى فرض ظروف ينفرد فيها البعض بمسئوليات تحتاج إلى التشاور، فانفرد صلاح سالم بأخطر ملف ، السودان.
- كانت لشخصية محمد نجيب أبعد الأثر فى اكتساب ثقة السودانيين على اختلاف طوائفهم، لذا فقد كان للتعامل القاسى وغير الآدمى الذى لقاه محمد نجيب أثر فى منتهى السوء فى السودان، نظراً للشعبية الجارفة التى كان يتمتع بها هناك، فقد كان السودانيون يتطلعون إلى الوحدة مع مصر فى ظل وجود محمد نجيب، وقد اعتبر السودانيون موقف مجلس القيادة متسماً بعدم الوفاء، مما عكس عليهم هذه الصفة وخلق فى نفوس السودانيين حذراً من الاتحاد مع مصر، وقامت المظاهرات تهتف لنجيب فى شوارع المدن السودانية.
- لم يسلك مجلس القيادة أسلوباً حكيماً فى التعامل مع السودانيين، ولم يواجه زعماءهم بوجه واحد، وإنما ترك صلاح سالم يتصرف فى الأمر وحده بطريقته الخاصة، دون مناقشة جماعية مشتركة ، وبغير حرص على الاستفادة من علاقة محمد نجيب الطيبة بكافة الزعماء السياسيين السودانيين.
- تعامل صلاح سالم فى مقابلاته مع بعض زعماء السودان بأسلوب الضباط وليس بأسلوب السياسيين ، كما أن تجمع بعض ضباط الصف الثانى الذين كونوا شللاً خاصة لكل عضو من أعضاء المجلس حال بينهم وبين الرؤية الكاملة..

ونجد حسين ذو الفقار يصف تصرفات صلاح سالم فى أكثر من موضع بقوله: "أصبح صلاح سالم فى عجلة من أمره ، فينعكس ذلك بآثار على مناخ الاتصالات... تتوتر أعصابه من جهة ، فيفقد أسلوبه تلك السلاسة التى كانت حتى اللحظة تستميل الأسماع .. كما بذرت الشكوك فى نفوس ممثلى الأحزاب... إذ يلجأ صلاح سالم إلى الحث، وإلى صنوف من إلحاح دونما فرصة لإمهال (١٩).

وفى موضع آخر يقول: كثيراً ما كان يندفع إلى بعض الأعمال لمجرد أن يتملكه الشعور بتعدد مجالات الاستغلال .. كانت تستهويه الرمية التى تمنيه بالقدرة على أن يصيب بحجر واحد عشرات العصافير(٢٠).

لجأ صلاح سالم فى كثير من الأحيان إلى سياسة الإعانات المالية لتوزيعها على الأحزاب والشخصيات السودانية، وهو ما آثار اعتراضات البعض على ذلك ولكنه سار فى طريقه غير عابئ باعتراضات، وسياسة توزيع الأموال على السياسيين كانت فى أغلبها مفسدة، وأدت لانهيار السياسة المصرية فى السودان ولوصم المتعاملين مع مصر بالرشوة.

أخذت بذور التناقض تنمو بين الأزهرى وصلاح سالم، الذى فقد الكثير من شعبيته فى السودان ـ نتيجة لموقفه المتشدد من محمد نجيب ـ وأثار صلاح سالم ضد الأزهرى فريقاً من حزبه بقيادة محمد نور الدين نائب رئيس الحزب، وآثار ضده فريقاً من الجنوبيين كقوة ضغط، وفى النهاية خرج الأزهرى عن الخط الاتحادى خوفاً من الحكم العسكرى فى مصر.

وقع رجال يوليو فى خطأ لغوى أدى لمصيبة سياسية فقد جعلوا الاستفتاء ليس بين الوحدة والانفصال بل بين الوحدة والاستقلال كأن الوحدة هى النقيض للاستقلال.

واضح تماماً وخصوصاً من مذكرات عبداللطيف البغدادى أن النزاع بين عبدالناصر وصلاح سالم كان يقضى باستنزاف الثانى فى النزاع مع محمد نجيب ثم إسقاطه فى السودان بالانفصال التام عن مصر.

وأن هناك مؤامرة كبرى كانت تدبر لعدم اتمام اتحاد مصر والسودان ويشترك فى هذه المؤامرة بعض المسؤولين من داخل مجلس القيادة نفسه وبعض عناصر من خارجه واتهم فى ذلك على صبرى وزكريا محى الدين وأنور السادات، وبذلك شعر الناس فى السودان بوجود جبهتين مصريتين داخل السودان، جبهة عبدالناصر وجبهة صلاح سالم ، وكانت الأولى أقوى وأكثر فعالية.

أضاف لكل ما سبق فقد نتجت حالة كراهية للنظام العسكرى المصرى لما أصاب الجماعات السياسية العقيدية من عنت رجال يوليو مثل: الإخوان المسلمين ولهم امتداد واسع داخل السودان، والحركة الشيوعية وقد اعتقلوا وشردوا، والشيوعيين السودانيين هم تلاميذ الحركة الشيوعية المصرية للتحرر الوطنى "حدتو؟ "وعندما أراد صلاح سالم اجتذاب الحركة الشيوعية السودانية لصفه لجأ إلى الشيوعيين المصريين، ولكن بعد فوات الأوان ـ مما أدى لانسحاب أنصار هذه الجماعات من داخل التيار الوحدوى السودانى.

ـ السياسة الامريكية الضاغطة على مجلس القيادة للتخلى عن فكرة وحدة وادى النيل ،لأن بريطانيا لن تقبل بها بأى حال، فى مقابل الخروج النهائى للإنجليز من مصر. وعدم الاستماع لنصائح بعض الخبراء المصريين المحنكين مثل د/ عبد الرازق السنهورى الذى تم استبعاده من المفاوضات لإصراره على وحدة وادى النيل.

د ـ أضواءعلى المذكرات:

جاءت الحلقة الأولى من المذكرات بعنوان: "لماذا استقلت من مجلس الثورة ـ ومجلس الوزراء"؟ فيه يتحدث صلاح سالم: إلى المواطنين مؤكداً أنه سوف يحدثهم فى كثير من الأمور التى تهمهم والتى حدثت أثناء توليه المسؤولية سواء فى مجلس قيادة الثورة أو فى مجلس الوزراء، فهى حسب تعبيره فترة من أصعب فترات تاريخنا، ومع ذلك فهو يؤكد أن هناك بعض الحقائق الذى قد يضطر اضطراراً إلى إغفالها حفاظاً على المصلحة العامة، واعتقد أن هذه رسالة بعثها صلاح سالم إلى زملائه السابقين بأنه يمتلك معلومات مهمة قد تؤثر عليهم.

ذكر صلاح سالم الموضوعات التى سيتحدث فيها ومنها :

ـ لماذا استقال من الوزارة؟

ـ لماذا استقال من مجلس قيادة الثورة؟ وهل كانت استقالة أم إقالة؟

ـ ما هى حقائق المناقشات والمداولات التى لم ينشر عنها حرف للآن والتى دارت داخل مجلس قيادة الثورة؟

- علاقته بأعضاء مجلس القيادة قبل وبعد خروجه منه.
- أين أمضى الشهور الثمانية التى أعقبت تركه لمنصبه وحتى بدأ فى كتابة مذكراته فى جريدة الشعب بل وعد بالحديث عن كيفية نشأة الجريدة ومن أين أتى بالأموال لشراء المطبعة.
- وعد بأنه سوف يتحدث عما أشيع عن اختلاسه لأربعة ملايين من الجنيهات، والتى قيل أن زوجته قامت بتهريبها خارج مصر، وتهديد محمود أبو الفتح لحكومة مصر بفضح هذا الأمر بالمستندات.
- وعد بالحديث عن عمالقة سياسيين تتحدث عنهم صحف العالم، وأيضاً عن ساسة مغمورين.
- وعد بالحديث عن تفاصيل اتصالاته ومفاوضاته مع القادة والزعماء والملوك والأمراء والثوار، وأهم من ذلك قصة السودان .

ولكن للأسف الشديد فقد توقفت المذكرات قبل أن يحدثنا عن شيء من تلك الموضوعات باستثناء السودان.

وفى الحلقة الثانية من المذكرات تحدث صلاح سالم فى عدة موضوعات متفرقة ولكنها تعطينا فكرة عما يدور فى كواليس السلطة وكيفية إدارة البلاد آنذاك بيد مجموعة من الشباب العسكريين عديمى الخبرة فى الإدارة والحياة المدنية، وكل منهم يتسابق لجمع أكبر عدد ممكن من المصالح والسلطات بين يديه.

بدأ بالحديث عن السودان وحقيقة طرد الأزهرى صلاح سالم وهل رفض الأزهرى اقتراح بتعيين صلاح سالم سفيراً لمصر فى السودان؟ برغم رفض صلاح سالم لهذه الحكايات وتهكمه عليها فإن أحمد حمروش وغيره من المعاصرين والقريبين من الأحداث يؤكد أن الموقف بين الأزهرى وصلاح سالم انتهى إلى تناطح حاد بينهما فصلاح سالم الذى اتبع فى سياسته بالسودان أسلوباً يخرب علاقات القوى السياسية ويمزق صلابة الأفراد، حيث استخدم المال وسيلة

للإقناع وجذب زعماء القبائل، ولم يجد صلاح سالم سوى محاولة حصار إسماعيل الأزهرى بتأليب بعض أعوانه ضده ونشر بعض الحقائق القديمة عنه، وخطب إسماعيل الأزهرى فى الجماهير يقول: "إن لحم أكتافى من مصر وقد دخلتها لابساً حذاء كاوتش.. ولكن هل يرضيكم أن يحكمنا صلاح سالم والعسكريون فى مصر، كما يؤكد حمروش إنه بعد استقلال السودان ذهب صلاح سالم إلى السودان كشخص عادى، ورفض الأزهرى اقتراحاً بقبوله أول سفير مصرى هناك.

فى هذه الحلقة عرض وبشكل بسيط لحلف بغداد وعد بأنه سيكمل الحكايات عنه فيما بعد، ومن أجل ما حكاه صلاح سالم فى مذكراته ما سماه : "قصة يوم" وهو يشرح لنا تفصيلات حياته العملية فى يوم ويؤكد أن أعماله كانت كثيرة جداً لدرجة أن الأربع والعشرين ساعة لم تكن تكفى، فقد كان عليه مقابلة المئات يومياً من سياسيين ورجال أحزاب وتجّار وسفراء وطلبة وفنانين وأصحاب حاجيات: "كل منهم يشعر أن من حقه أن يقابلنى مرة وربما مرات وكل هذا ليتحدث إلىّ فى أرائه وأفكاره واتجاهاته أو فى مشاكله... وإن كان من الجنوب فربما أصر قبل أن يدخل فى صلب الموضوع الذى جاء من أجله أن يسرد على تاريخ السودان منذ دخله محمد على - على الأقل - إلى أن وصل إسماعيل الأزهرى الى رياسة الوزراء فى الخرطوم، وهو يحكى تفصيلات كثيرة جداً ومعقدة ومتشابكة الأحداث لقصة يومه.

يلاحظ على صلاح سالم فى هذه الحلقة عدة أمور جديرة بالنقاش وهى: - العصبية الشديدة وسيطرة الروح العسكرية عليه وهو نفسه يؤكد ثقل مقابلة الدبلوماسيين :"أحاول طوال الزيارة أن أعتقل أعصابى وأمسك بزمامها حتى لا تفلت".

كان صلاح سالم يرى فى نفسه القدرة لتولى مناصب أعلا مما هو فيها، وكان مغروراً جداً: "لم أشك يوماً من الإرهاق فى العمل الذى تخللته رحلات عديدة مضنية ولكنى كنت أشكو دائماً من عقول لا تفهم تبعاتى ولا تعرف حدود منصبى

ولا تقدر إمكانياتى: وربما كان هذا الأمر من الأسباب التى عجلت بالانفصال بين عبد الناصر وصلاح سالم الذى رأى فى نفسه قطبًا موازياً لناصر، يؤكد ذلك ما ذكره ناصر الدين النشاشيبى إنه أثناء مباحاثات سر سنك سأله صلاح سالم قائلاً: قل يا أخ ناصر هل أنت معى أم مع العراق أم مع جمال عبدالناصر؟ وبذلك فقد كان غروره وإحساسه أنه قدم خدمات كثيرة وتحمل أعباء أكثر من زملائه، يدفعه للقول أنه مثل عبدالناصر فكان التعجيل بالصراع والانفصال .

وفى هذه الحلقة من مذكراته جعلنا صلاح سالم نشعر أنه كان يحكم مصر والسودان ويتولى تسيير كافة الأمور فيهما من أكبر شئ إلى أقل الأمور تفاهة، من السياسة الخارجية والداخلية إلى تعيين الفراش والتومرجى، ومن إذاعة صوت العرب وتوجيهاته إلى الرقابة على الصحف: "أمثلة للخليط العجيب من الاختصاصات والمتناقضات والتى حرمتنى طويلاً من نعمة الشعور بكيان أسرتى".

وفى الحلقة الثالثة وهى بعنوان: أول إتصال بين الثورة وقضية السودان. "يتحدث صلاح سالم عن "الصدفة " التى جعلت منه مسؤولاً عن السودان، فهو يؤكد وبصدق وصراحة أنه لم يكن يعرف شيئاً عن السودان ولا عن تاريخه، كما يعترف أنه وزملائه فى مجلس القيادة لم يكونوا قد تناقشوا فى أى شئ خاص بالسودان قبل يوليو ١٩٥٢م: أن أمر هذه القضية ـ يقصد قضية السودان ـ لم نتعرض له قط فى اجتماعاتنا ومناقشاتنا التى سبقت الثورة ؟ وهذا يؤكد غياب البعد الإستراتيجى فى فكر هؤلاء الشباب الذين ساعدتهم الأقدار إلى الوصول حكم البلاد وهم غير مؤهلين لذلك.

يحاول صلاح سالم إيهامنا أننا لم نكن نعرف شيئاً عن السودان قبل أن يتولى هو مسؤلية ملف السودان، وهذا القول فيه مبالغة شديدة وتجنىً على الواقع فالسودان وأهلى كانوا دائماً حاضرين على طاولة المفاوضات ، وفى الصحافة والمناقشات العامة فى مصر، وكان هناك دائماً تأثير وتأثر بين القطرين.

تعود قصة تولى صلاح سالم أمور السودان عندما استقر رأى مجلس القيادة على توزيع الإشراف على قوات الجيش بين عبدالحكيم عامر، وكمال الدين حسين وصلاح سالم، فأصبح سالم هو المشرف على وحدات الجيش فى السودان، وبالتالى أصبح مسؤول عن حل كل الأزمات الموجودة فى السودان.

"إذ دق أى تليفون من تليفونات القيادة العامة فى كوبرى القبة وكان المتكلم من الخرطوم فهم يحولون الخط فوراً إلى مكتبى دون أى تردد حتى ولو من العسكرى التليفونجى، أصبحت أخصائياً فى قفل الأبواب التى تفتح علينا فجأة من الخرطوم فى نظر إخوانى وزملائى القاطنين فى مبنى القيادة العامة".

ويثير صلاح سالم قضية رائعة بحق وهى أن كبار الموظفين المصريين وخصوصاً الوزراء كانوا يحملون أوراقهم معهم بعد انتهاء مدة عملهم أو إحالتهم على المعاش وكأن هذه الأوراق ملكاً لهم وليست ملكاً لمصر.

يذكر حسين ذو الفقار عن بداية تولى صلاح سالم لملف السودان قائلاً: "تتابعت إتصالاتى التليفونية ـ من الخرطوم ـ بمجلس قيادة الثورة عن طريق صلاح سالم وما كنت قد قابلته من قبل وكلت إليه فيما يبدو مسؤولية الإشراف على شئون قواتنا فى السودان، ويتضح لى مرة تلو أخرى أنه لم يكن يعنيهم منا غير تأمين أوضاعها ولا يزيد، فى خضم ما كان يواجههم من مشاكل عاجلة لا تحتمل تسويفاً، ... حاولت جهدى أن أقنع صلاح سالم من خلال مكالماتى التليفونية المتكررة بضرورة الاتصال بمختلف الأحزاب والهيئات السودانية، ويبدو أنه قد ضاق آخر الأمر بإلحاحى، فيحاول أن يلهينى حتى انشغل عن ملاحقته اللى تشوفه، ما فيش مانع... بس أرجوك تحطنا فى الصورة، وتجهز لنا تقدير موقف .. ويتبين لى فيما بعد أن قد قال ما قال دون اهتمام جدى بما سوف تتمخض عنه اتصالاتى، ودون تقيد بالتزام(٢١)".

فى الوقت ذاته نجد صلاح سالم يتحدث عن بدء علاقته بالسودان حيث أمضى جزءًا كبيرًا من طفولته هناك حيث كان يعمل أبوه، وتحدث عن علاقته

ببعض الضباط والجنود السودانيين الذين أنقذوا حياته فى الفالوجا عام ١٩٤٨م، وحديثه هنا تختلط فيه الرغبة فى إظهار البطولة الخارقة له والتى بدت فى عبور الخطوط والوصول لعبد الناصر ويختلط به أيضاً إعداد القدر له لتحمل مسؤولية السودان لرد الجميل إلى السودانيين وهو فى قصته هذه يحاول أن يوهم القراء أنه كان شريكاً لعبدالناصر فى التخطيط للحركة منذ اللحظة الأولى لاجتماعهما داخل "عراق المتشبة" وهو فى حديثه عن عبدالناصر لا يقول سوى: جمال، عمل صلاح سالم ومنذ البداية على التمهيد بالقول أننا أخطأنا فى حق السودان قبل ١٩٥٢ م لأننا لم نكن نعرف أى شئ عنه واكتفى الساسة بترديد بعض الشعارات الجوفاء من وجهة نظره وذلك للاستهلاك المحلى فقط، وأعتقد أن ذلك امتداد لما فعله قادة يوليو من محاولة هدم كل شئ قبل ١٩٥٢م للقول أنهم بدؤا منذ البداية وأن كل ما سبقهم كان باطلاً فهو يؤكد "وكانت مصر قد خرجت قبل ذلك وبوقت طويل جداً من كل الأبواب فى السودان وانفصلت عنه انفصالاً كاملاً واقعياً فى كل شئ، وهو قول يكذبه التاريخ ولكنه يؤكد محاولة تبييض الوجه أمام التاريخ للتخلى عن مسؤوليتهم فى إنفصال السودان فهو يعمل على الترويج لفكرة أن الساسة المصريين قبل١٩٥٢ قد سلموا لبريطانيا بكل ما أرادته فى السودان.

وأخطر ما يذكره "سالم" أن مطالبة الحكومات المصرية قبل ١٩٥٢ بأن السودان جزء من مصر ولا يحق لبريطانيا أن تقيم فيه كياناً منفصلاً عن مصر هو مجرد شكليات وشعارات للاستهلاك المحلى، ويندرج هذا الكلام أيضاً فى إطار التبرير لما قام به "سالم" ورفاقه من خطيئة فصل السودان بل أنه يؤكد أنهم خدموا السودان وساعدوه على الحصول على الإستقلال، وهو يصم السياسة المصرية السابقة لـ ١٩٥٢ تجاه السودان بالسلبية.

حدد مجلس القيادة سياسته تجاه السودان فى ثلاث نقاط هى:

ـ الاعتراف بحق السودان فى تقرير مصيره.

- الحكم الإنجليزى المدنى والعسكرى من السودان شرط أساسى لممارسة السودانيين بحق تقرير مصيرهم.

- العمل على تعديل مشروع الدستور المقدم من الحاكم العام ليضمن أكبر قدر ممكن من السلطات للسودانيين خلال فترة الانتقال التى تمهد لتقرير المصير.

ويعترف صلاح سالم نفسه أننا أخطأنا كمصريين حينما إرتضينا أن ننص فى الإتفاقية التى وقعتها مصر مع بريطانيا بخصوص السودان على تخيير السودان بين الاستقلال التام أو الاتحاد مع مصر فوضعهما معاً فى الإستفتاء حمل على الاعتقاد على أنهما متضادتان، وبهذا كانت بريطانيا تقف فى صف المدافع عن استقلال السودان ضد الاستعمار المصرى.

تحدث "سالم عن رحلته للجنوب فى ديسمبر١٩٥٢ تلك الرحلة التى أطلقت عليه الصحف فيها" الصاغ الراقص "حيث رقص مع الجنوبيين رقصة الحرب وهو شبه عارى مما جذب إليه قلوب أهل الجنوب.

تحدثت المذكرات بإسهاب عن الإتحاديين والخلافات التى كانت قائمة بين صفوفهم حيث أحزابهم المتنافرة المتعددة القديمة، حيث تحول معظم الإتحاديين إلى دعاة إنفصال عن مصر، وهم الذين قادوا إعلان إستقلال السودان من داخل البرلمان فى أول يناير سنة ١٩٥٦ ولكن صلاح سالم لم يذكر لنا السبب فى تحول هؤلاء من النقيض إلى النقيض تماماً، ولكن من يمعن القراءة فى المذكرات يرى الحقائق التى حاول صلاح سالم إخفائها بين السطور.

تحدث صلاح سالم عن علاقة مصر بالإتحاديين وأجنحتهم المختلفة ولقاءته بهم والحدود التى تفصل بينهم ، والعقبات التى هددت إتحادهم ، ونظرتهم لمصر ونظرة مصر لهم، وتحدث بإسهاب عن علاقتهم بصلاح سالم التى تعتبر سياسته عاملاً أساسياً فى دفع السودانيين للإنفصال عن مصر.

ولم تغفل المذكرات قضية الجنوب السودانى حيث عملت بريطانيا ومنذ بداية إحتلال السودان على التمهيد لفصل الجنوب عن الشمال، وأقامت ستاراً حديدياً

حول الجنوب حيث عملوا على القضاء على اللغة العربية وعلى مساعدة الإرساليات التنصيرية فى العمل فى الجنوب لنشر المسيحية والقضاء على الاسلام ، كما عملت على منع دخول الشماليين إلى الجنوب إلا بتصريح من الإدارة البريطانية لقد كرست بريطانيا كل شئ لتدعيم فكرة الإنفصال.

كما تحدث عن العقبات التى إعترضت المفاوضات المصرية البريطانية حول السودان التى بدأت فى ٤٨ يناير ١٩٥٣م، وأوضح لنا عن قرب هذه العقبات ، ونقل لنا أجواء المفاوضات وما كان يحدث فى الغرف المغلقة.

صلاح سالم

فى عام ١٩٣٦ م بدأ دخول الطلبة المصريين من خريجى المدارس الثانوية للكلية الحربية وذلك لأن نذر الحرب العالمية الثانية كانت فى الأفق، فسمح لأبناء الطبقة الوسطى فى دخولها، وكان من بين من دخل فى هذا العام ثمانية ممن شكلوا تنظيم الضباط الأحرار فيما بعد، وهم الذين تخرجوا بعد عامين برتبة الملازم ثان بالجيش المصرى، ومن بينهم جمال عبد الناصر وصلاح سالم (٢٢).

ويوضح أحمد حمروش الأصل الطبقى للضباط الأحرار قائلا: لقد كان الضباط الأحرار من الطبقة المتوسطة، الذين يتأرجحون بين أبناء الموظفين صغارًا أو كبارًا، وبعض أثرياء الفلاحين أصحاب الملكيات الصغيرة مثل عبد الحكيم عامر وزكريا محيى الدين،فلم يكن من الضباط الأحرار ابن من أبناء الأسر الإقطاعية، أو ابن لأحد كبار الرأسماليين(٢٣).

وجمعت بين معظم هؤلاء الضباط عرى الصداقة والزمالة فى الكلية الحربية، وكلية أركان الحرب، وكان من أثرها أن بدأ التماسك بينهم، إلى أن بلغ قوته فى عام ١٩٤٩م اعتمادًا على علاقاتهم الشخصية واتصالاتهم. فى هذا الجو وجد صلاح سالم وتعلم وإرتبط بعبد الناصر.

صلاح مصطفى سالم ولد فى سبتمبر١٩٢٠ فى مدينة سنكات شرق السودان، حيث كان والده موظفا هناك. أمضى طفولته هناك، وتعلم فى كتاتيب السودان.

عندما عاد إلى القاهرة مع والده تلقى تعليمه الإبتدائى، ثم حصل على البكالوريا، وتخرج من الكلية الحربية سنة ١٩٣٨ وهو فى الثامنة عشرة من عمره. تخرج فى كلية أركان الحرب سنة ١٩٤٨ وشارك مع قوات الفدائيين التى كان يقودها الشهيد أحمد عبد العزيز.

تعرف على جمال عبد الناصر أثناء حصاره فى الفالوجة، وانضم إلى الضباط الأحرار، وكان عضوا فى اللجنة التنفيذية لهذا التنظيم، وعندما قام الضباط الأحرار بحركتهم فى يوليو ١٩٥٢ كان صلاح فى العريش، وسيطر على القوات الموجودة هناك.

ساند صلاح سالم جمال عبد الناصر فى صراعه مع الرئيس محمد نجيب على السلطة فى أزمة مارس ١٩٥٤ ويعترف ابنه قائلا: "كان أبى سريع الغضب حاد الطباع .. وأنه ربما تعدى على محمد نجيب أثناء أزمة مارس[٢٤] .

ثم ما لبث أن تقدم باستقالة من جميع مناصبه بعد فشله فى السودان فى نهاية أغسطس ١٩٥٥وشارك فى مؤتمر باندونج.

عمل فى الصحافة وشغل منصب رئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة جريدة الشعب وعندما وقع العدوان الثلاثى على مصر إقترح وقف القتال والإستسلام للسفير البريطانى. كان صلاح سالم أول أعضاء مجلس قيادة الثورة وفاة، فتوفى عن عمر ٤١ عامًا فى ١٨ فبراير ١٩٦٢ بالسرطان. وقد عملت الحكومة المصرية على إنشاء طريق يسمى باسمه تخليدا لذكراه.

لقد كان صلاح سالم مثيرا للجدل فقد ألقى خطبة فى المحلة الكبرى عام.

نادى فيها بالصلح والتطبيع مع إسرائيل. وقد نشر الأستاذ عبدالمحسن سلامة حوارًا مع الأستاذ أحمد نافع.. قال أحمد نافع: أجريت حواراً مثيراً مع صلاح سالم عام ١٩٥٤ وكان وزيراً للإرشاد القومى، وقد قال فى الحوار إن مصر على استعداد لإعادة النظر فى موقفها من حلف بغداد، فيما لو وافقت إسرائيل على السماح لمصر بإقامة ممر برى بين غزة والأردن.. وقد صدر الأمر باعتقالى بعد نشر هذا الحوار[٢٥].

الهوامش

(١) د. على شلبى ود/ مصطفى النحاس جبر: الإنقلابات الدستورية في مصر ١٩٢٣ ـ ١٩٣٦، مركز تاريخ مصر المعاصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١، ص ٢٨.

(٢) من مقال لأحمد حسين: مصر الفتاة ١١ / ٨ / ١٩٣٨.

(٣) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى: شخصيات مصرية، الهلال، القاهرة، ديسمبر ١٩٩٣، ص ٢٣٠.

(٤) عبد الرحمن الرافعى: مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال، دار المعارف، القاهرة، ط ١٩٨٣، ٤، ص ٩١ ومابعدها.

(٥) محمد جلال كشك: إنقلاب ٢٣ يوليو والسودان، ضمن كتاب ندوة ثورة يوليو والعالم العربي، إعداد: د. عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٢١٦.

(٦) حسين ذوالفقار: ثورة يوليو والسودان، الأعمال الكاملة لضابط مفكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م، ٢٤٥.

(٧) نفسه: ص ٢٦٣.

(٨) حسين ذوالفقار: مرجع سابق، ص ٢٦٦.

(٩) حسين ذوالفقار: مرجع سابق، ص ٢٧١.

(١٠) أستبعد الدكتور عبد الرازق السنهورى الفقيه الدستورى من الوفد المصرى لأنه أنتقد مبدأ الحكم الذاتى للسودانيين، وثار ثورة عنيفة في أول إجتماع بين محمد نجيب ووفد حزب الأمة وهدد بالانسحاب من الجلسة، فإحتج وفد حزب الأمة، فقرر مجلس القيادة فى مصر إستبعاد السنهورى من المفاوضات ومن قضية السودان كلها.

ـ حسين ذوالفقار: مرجع سابق، ص ٢٨٢.

ـ محسن محمد: ص ٨٧.

(١١) محسن محمد: الإنفصال بين مصر والسودان بالوثائق السرية البريطانية والأمريكية، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٧٤.

(١٢) د. محمد عبد الوهاب: عبد الناصر والسياسة الخارجية الأمريكية ١٩٥٦ ـ ١٩٥٢، سلسلة مصر النهضة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ١١٦.

(١٣) أحمد حمروش: قصة ثورة يوليو، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٣ م، جـ ٢. ص ١٤.

(١٤) محمد جلال كشك: إنقلاب ٢٣ يوليو والسودان، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

(١٥) محسن محمد : مرجع سابق، ص٨٩.

(١٦) نفسه ص ٢٢٢.

(١٧) د. يواقيم رزق مرقص: مفاوضات ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ الدور الأول من المفاوضات بين بريطانيا ومصر، ضمن كتاب العلاقات المصرية البريطانية ١٩٥١ ـ ١٩٥٤ تحرير د. رؤوف عباس، مركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٢٩.

ـ عبد الرحمن الرافعى: ثورة يوليه ١٩٥٢م تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ ـ ١٩٥٩، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٩، ص ٥٢٧.

(١٨) راجع أحمد حمروش: مرجع سابق، جـ٢ ص ٢٥.

(١٩) حسين ذوالفقار : مرجع سابق، ص ٢٨٨.

(٢٠) نفسه، ص ٢٩٢.

(٢١) حسين ذوالفقار صبرى: ثورة يوليه وإتفاقية السودان، ضمن الأعمال الكاملة له، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٢٤٤.

(٢٢) د. أحمد البيلى: الصفوة العسكرية والبناء السياسى فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. ١٩٩٣، ص ٢٨٩.

(٢٣) أحمد حمروش: مرجع سابق، ج ٢، ص ٢١٢.

(٢٤) محمد صلاح سالم، نجل صلاح سالم فى حوار للأستاذ محسن عبد العزيز، نشرته مجلة «الشباب» القاهرة، فى مارس ٢٠٠٠.

(٢٥) أحمد المسلمانى: صلاح سالم لماذا، المصرى اليوم، القاهرة.

ثانيــاً نص المذكرات

(١) لماذا استقلت من مجلس الثورة .. ومجلس الوزراء ؟

هل صدرت الأوامر بإعتقال جمال سالم [٢٦] فى مطار القاهرة؟

ماذا دار بينى وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة [٢٧]؟

الشريط المسجل الذى يهددنى به نورى السعيد[٢٨].

أخى المواطن

أكتب إليك هذه الخطابات وأنا لا أعرف أين أنت .. وإن كنت أعرف أنك فى كل مكان فى هذا الوطن .. فأنت أخى فى أرض مصر ، ومن حقك على أن تعرف قصة الأيام التى عشتها أحمل اسمك وأتكلم باسمك ، كما سأروى قصة الأيام التى عشتها وحدى أحمل اسمى وأتكلم باسمى !

سأكتب لك كل شئ.. لن أخفى عنك شيئًا.. ولن أضع فى إعتبارى إلا التاريخ .. تاريخ بلدك وبلدى، فإننا نشعر دائما بحاجتنا إلى الحقائق.. كل الحقائق.. فأنا لا أكتب تاريخ صلاح سالم، ولكنى أكتب تاريخ فترة عشتها ومست حياة وطنى.. فترة تعتبر من أصعب فترات تاريخنا..!

ولكن هناك بعض الحقائق قد أضطر اضطرارًا إلى إغفالها أو قد أمسها مسا هينا دون أن أتعمق إلى جذورها.. فمثل هذه الحقائق أقوى منى ومن قلمى لا لشئ إلا لأن المصلحة العامة.. مصلحتك ومصلحتى ومصلحة كل مواطن تطالبنى بأن أخفيها وراء ضلوعى وأسكت عنها.. وسأفعل.. ولو إلى حين.. إلى أن تسمح الظروف ..!!

ولكن لك منى عهدًا يا أخى أنى لن أغير أو أبدل أو أحور شيئًا من الحقائق التى سأستعرضها ولن أتجنى على أحد مهما عظم قدر الظلم والأذى والتجنى

الذى ربما إنتابنى على يديه ولن أنكر جهدًا كان لأحد حيًا الآن أو ميتًا، قويًا.. ضعيفًا.. أنى سألتزم يا أخى بهذا العهد لا لشئ إلا لأنى أخشاك وأخشى التاريخ، إنى أخشى حكمك على فى المستقبل يوم تعرف أنى زورت تاريخك وتاريخ وطنك ، يوم تعرف الحقيقة دون تغيير أو تبديل أو تحوير..!!

استقالة أم إقالة

لماذا استقلت من الوزارة ولم أعد وزيرًا للإرشاد القومى(٢٩) ووزيرًا للدولة لشئون السودان(٣٠) اعتبارا من ٢٨ أغسطس من العام الماضى ..!

ولماذا استقلت من مجلس قيادة الثورة فى نفس الوقت ، ذلك المجلس الذى سمى قبل الثورة طويلا بمجلس التسعة وكنت أحد هؤلاء التسعة فى وقتها، ثم عاد وارتفع بعد الثورة إلى أربعة عشر(٣١)، ثم إرتد إلى الرقم تسعة أخيرًا بعد خروجى، وكأنه أصر على أن تكون خاتمة أعماله كمجلس بهذا الرقم ـ رقم تسعة . تلك الخاتمة التى سيعلن عنها بعد أيام بعون الله وإذنه.

وهل كانت إستقالتى هذه إستقالة حقيقية كما نشر فى البلاغ الرسمى الصادر من مجلس القيادة فى ٢ سبتمبر عام ١٩٥٥ والذى نشرته الصحف يومها مقتضبًا؟ .. أم كانت إقالة كما أكد البعض وما زال يؤكد حتى كتابة هذه السطور؟

كيف حدثت هذه الإستقالة أو الإقالة ؟

وما هى الظروف المختلفة التى قادت إلى هذا الوضع..؟

وما هى دقائق المناقشات والمداولات التى لم ينشر عنها حرف للآن والتى دارت داخل جدران مجلس قيادة الثورة فى مبناه المطل على النيل بالجزيرة (٣٢)، ذلك المبنى الذى أعد قبل الثورة ليكون مقرًا لإدارة سفن فاروق النيلية ولكن شاءت إرادة الله أن يتأخر بناؤه بضعة أيام ليسجل أخطر الأحداث التى مرت بهذا الوطن فى تاريخه الحديث بدلاً من إعداده ليسجل أخطر مغامرات شبل فؤاد مع سفنه ونزهه وصيده !.. أنت تريد.. وهو يريد.. والله يفعل ما يريد.. وماذا دار بينى وبين أعضاء هذا المجلس؟!

وكيف كانت علاقتى بهم قبل خروجى وبعده ..؟!

ثم شئ آخر..

أين أمضيت الشهور الثمانية الماضية التى أعقبت تركى لمنصبى..؟ وكيف عشتها ؟

وهل كنت سجينًا بأحد السجون الحربية أو على الأقل أمضيت جانبا منها فى السجن كما أكد لك أكثر من عليم ببواطن الأمور ..

أم هل أكتفت الثورة بأن حددت إقامتى فترة فى إستراحة رئيس مجلس الوزراء فى القناطر الخيرية.. وفترة أخرى فى منزلى بالعباسية..؟

وهل حقيقة سافرت إلى أوروبا وعلى ظهر المركب "إسبيريا" بالذات كما أكد ذلك أحد الوزراء لزميل له نقلا عن "شاهد عيان" لا يمكن أن ترقى إلى شهادته شبهة أو أدنى شك..! رآنى على ظهر المركب ووقف يلوح لى بيده حتى غابت السفينة عن الأنظار وخرجت تحملنى من ميناء الأسكندرية..!

جمال سالم

وجمال سالم.. هل صدرت الأوامر بمنع دخول جمال سالم الأراضى المصرية كما سمعت من أكثر من مصدر وقت خروجى وكان وقتها فى رحلة طويلة بجنوب بلاد الشرق الأقصى ..؟!

أم كانت حقيقة الأوامر الصادرة ـ كما أكد لك البعض ـ تقضى بإعتقال نائب رئيس الوزراء فور وصوله الى المطار من رحلته ..؟!

أم كيف تحول "تكتيك" العارفين ببواطن الأمور الذين أكدوا لك صدور هذه الأوامر لما علموا بذهاب الرئيس جمال عبد الناصر إلى المطار ليستقبل نائبه وصدرت الصحف تحمل صورهما يتعانقان على سلم الطائرة ويقبّل كل منهما الآخر..؟!

وعلى هذا اضطر عليهم آخر ـ وما أكثرهم فى بلادنا ـ لأن يؤكد لك أن جمال سالم لم تتخذ الثورة ضده أى إجراء لأنه وافق على أمر خروجى أو إخراجى وقت

أن كان هناك فى جاكرتا بإندونيسيا فى ضيافة أحمد سوكارنو[٢٣].. ولم يكتف هذا العليم بذلك بل أقسم لك على أنه أطلع بنفسه على البرقية الصادرة من وزارة الخارجية المصرية إلى سفارتنا فى إندونيسيا تحمل السؤال إلى جمال سالم وأقسم مرة أخرى على إطلاعه على البرقية التى جاءت من جاكرتا تحمل رد جمال سالم..!

وهل حقيقة عرضوا علىّ فى ذلك الوقت أن أكون سفيرًا فى الخارج أو رئيسًا لوفد مصر الدائم فى الأمم المتحدة كما سمعت يوما عن طريق محطة إذاعة الشرق الأدنى[٢٤]؟!

أم الحقيقة أنهم عرضوا على مليونا من الجنيهات واليخت "فخر البحار" لأغادر بهما مصر وأعيش منفيا فى أوروبا تمامًا كفاروق.. ومافيش حد أحسن من حد ..!

١٢ مليون جنيه وكسور

وهل سمعت بتفصيلات قصة إختلاسى لأربعة ملايين من الجنيهات.. وفى رواية أخرى لعليم آخر لإثنى عشر مليونًا وكسور حددها لك يومًا بالقرش والمليم لأنه دقيق وأطلع بنفسه بعد أن أدى القسم التقليدى على كافة التفصيلات من واقع أرقام ميزانية الدولة ومصروفاتها السرية فى مكتب قريب له برئاسة ديوان المحاسبة ..؟وهل سمعت بالرواية التى حرص محمود أبو الفتح[٢٥]وقتها أن يقصها لكل مصرى التقى به فى الخارج وهى تدور حول نفس الموضوع، أى قصة الإختلاس، ولكنه كان متواضعًا إذ حصر الإختلاس فى حدود ثلاثة ملايين فقط أودعتها أحد بنوك سويسرا عن طريق زوجتى.! وربما يلذ لك أن تستمع لتفصيلات هذه المغامرة ـ إن لم تكن من السعداء الذين سمعوها فى حينها ـ مغامرة قيام زوجتى بهذا الدور التاريخى والمغامرة التى قام بها محمودأبو الفتح حتى حصل على صورة لهذا الشيك الذى يحمل رقم الملايين الثلاثة والذى تم بموجبه تهريب المبلغ إلى الخارج.. وهل سمعت بتهديد محمود أبو الفتح للحكومة المصرية ـ عن طريق محطة إذاعة إسرائيل، بنشر وثائق هذه الفضائح ومستنداتها

فى كافة أرجاء العالم إن لم تعد إليه كل أمواله وممتلكاته وشركاته ومؤسساته ومطابعه..!

ولا شك أنك تعجبت.. وضربت كفا بكف حسرة ولوعة وأسى على هذه البلد الغلبانة اللى ملهاش حظ عند سماعك لكل هذه القصص المؤكدة التى رددها كثيرا راديو باريس وراديو بغداد وراديو الشرق الأدنى ..! وربما تساءلت عن سر سكوت الدولة عن الدكتور عبد المنعم القيسونى[٣٦] وزير المالية وهذه الملايين العديدة أختلسها من تحت ذقنه وذقن لجنته المالية التى كثيرًا ما تفلسفت وشطبت لك إعتمادا بعلاوة جنيه تستحقها أو بعشرة جنيهات لشراء صبغة يود لأحد مستشفيات الوحدات المجمعة بناحيتك بحجة أن ميزانية الدولة لا تسمح.. بينما سمحت لى بإختلاس كل هذه الملايين التى تكفى لشراء نهر من صبغة اليود لا يقل طولاً وعرضًا عن نهر النيل.. يحدث هذا فلا هى تفتح فمها ولا وزيرها ينبس ببنت شفة أو على الأقل يحرر محضر لإثبات الجريمة عند وصول نقطة لاظوغلى..! وهل حقيقة سأصدر جريدة "الشعب" [٣٧] بجانب من هذه الأموال المختلسة، وكيف سمحت لى الحكومة بشراء مؤسسات ومطابع تملكها بهذه الأموال التى اختلستها جهارًا نهارًا وإن كانت قصة الإختلاس هذه خرافة.. مثلاً ألم تسأل نفسك.. من أين لصلاح سالم كل هذا ومفيش واحد عارف يحاسبه فى البلد دى ؟! وهل ستصدقنى إذا قلت لك أننى وفرت ثمن المطابع كلها والدار التى يزيد ثمنها عن ربع مليون من الجنيهات.. هل ستصدقنى إذا قلت أنى وفرتها من مرتبى كوزير خلال العامين الماضيين ؟!

تمثيلية كل هذا سمعته يا أخى وسمعت أكثر منه.. وأنا لا أعتب عليك لو كنت نقلته لغيرك فى جلساتك وسهراتك.. فما دامت الحقائق غائبة فمن حقك أن تردد ما تريد وكل ما تسمعه من متناقضات ومن كل عليم ببواطن الأمور.

فهل كانت كل هذه القصص أو بعضها من أسباب خروجى أو إخراجى من الوزارة ومن مجلس قيادة الثورة ..؟!

أم كان خروجى كما ردد بعض "الأذكياء" مجرد تمثيلية محبوكة الأطراف وبإتفاق تام بينى وبين أعضاء المجلس لرسم سياسة معينة وإتجاه بذاته. أم كان خروجى كما أكد بعض "بعيدى النظر" تمهيدًا لتفرغى لتأسيس الحزب الجديد ؟!

قصص وأساطير لاكتها ملايين الألسن تروى وتسمع بين مؤكد ومصدق ومكذب فى النوادى.. والصالونات.. والمقاهى.. ودواوين الحكومة وحتى فى دوار العمدة وعلى مصطبة شيخ البلد.. فى القرى والنجوع ..!

هذه القصص والأساطير.. هل هى مجرد شائعات أم حقائق، وإن كانت شائعات فما هى الحقائق..؟ وما هو أصل وفصل كل تلك القصص والأحاجى والروايات التى عاشت فيها الجماهير فترة من الزمن.. وصمت أنا خلال هذه الفترة صمت القبور ؟!

أفلام سينما

كل هذا سأكتبه لك فأنت صاحب حق علىّ فى أن أقدم لك حسابًا دقيقًا عن كل شئ، كما سأحاول أن أرفه عنك فى هذا الجو القائظ وأرسم لك صورة للأفلام السينمائية المثيرة التى شهدتها وعشت فى حوادثها خلال الشهور الثمانية الماضية.

سأكتب لك عن محنة الأخلاق كثيرا ، تلك المحنة التى عانيت وستعانى منها كثيرا ربما أكثر مما عانيت من محنة الإحتلال الطويل والإستعمار البشع.

قصة الذباب!!

سأروى لك قصص الذباب.. الذباب الذى يحلو له أن يقفز فى لحظات من مائدة إلى أخرى فيأكل من هذه وبعد ثوان من تلك.. ولكنه ليس على كل حال كالذباب الذى شنت عليه الزميل "الأخبار" حملتها القاسية منذ أسابيع..!

ورغم هذا هو فى نظرى ذباب .. وإن كان من نوع آخر ..!

ذباب ضخم الجثة يمشى كما يمشى الناس ويتكلم كما يتكلمون ويضحك ويبتسم كما يضحكون ويبتسمون.. لا يؤثر فيه أى نوع من أنواع "الفليت" فهو أقوى من كل أنواع المبيدات الحشرية التى تعرفها.. ولكنه رغم كل هذا ذباب.. له طبيعة الذباب وخصائصه.. وينقل الأمراض تمامًا كما يفعل الذباب ولكنها أمراض من نوع آخر لا يجدى فى علاجها نفس الأطباء ولا كل إمكانيات وزارة الأخ نور الدين طراف (٢٨) .

انه ذباب من البشر.. له معى قصص طويلة سأرويها لك كلها فتعرف الناس من الذباب..!

سأحدثك عن عمالقة سياسيين تتحدث عنهم صحف العالم فى صفحاتها الأولى وتردد محطات الإذاعة تصريحاتهم وبياناتهم.. كما سأحدثك عن سادة صغار مغمورين لم تسمع بهم من قبل وكلهم عاشوا أدوارًا بطولية فى أفلامى وقصصى التى سأحدثك عنها.

ولن أضن عليك بتفاصيل اتصالاتى ومفاوضاتى مع القادة والزعماء والملوك والأمراء والثوار.

كما أنى لن أضن عليك بقصة سرقة منزلى يوم خروجى من الوزارة رغم حراسة المنزل !!

وجملة القول سأحدثك عن كل شئ.. عن الناس بما فيهم من أبطال وصعاليك وذباب والأحداث بما فيها من تفاصيل ومفاجآت وأحاسيس ومشاعر.

الوزير و "سابق"

سأروى لك الكثير وقت أن كنت وزيرًا كما سأروى لك الكثير أيضًا عندما أضيفت كلمة "سابق" الى لقب الوزير.

ربما كان الفرق فى نظرك ونظرى يسيرًا لا يتجاوز سوى إضافة هذه الكلمة ذات الحروف الأربعة وهى "سابق " ولكنها يا أخى بالنسبة للكثيرين تعنى أشياء كثيرة .. كثيرة جدًا.. ربما أكثر مما تتصور!!

ستعرف أن كل شئ يمكن أن ينقلب إلى نقيضه فى ثوان، لا لسبب إلا من أجل إضافة هذه الحروف الأربعة "سابق" إلى كلمة وزير..! هذا جانب مما إنتويت أن أقصه عليك .

وهناك جوانب أخرى عديدة لقصتى يهمنى أن أرويها لك.

قصة السودان

سأحدثك عن القصة الكاملة للجنوب. قصة السودان معى، وقصتى مع السودان فأنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتاريخ أمة ومستقبل شعب..

سأحدثك عن علاقة خروجى بمعركة السودان وبتقرير مصير هذا القطر الشقيق الذى أحمل له حبًا وولاء ووفاء، ربما تعرفه أنت ويعرفه أعدى أعدائى قبل أن يعرفه أصدق أصدقائى..!

يعرفه الآن وأكثر من أى وقت مضى أصحاب الوجوه السمراء.. هؤلاء الذين لم يفترقوا عنى لحظة واحدة قط وأنا لا أتصور كيف أفترق عنهم، فهم يعيشون فى أعصابى وخواطرى وأحاسيسى. كانوا معى بكل ما يملكون من عواطف نبيلة ومشاعر سامية.. بعضهم يسكن المدن والقصور، والآخرون يعيشون فى الغابات والأدغال .. وأنى أحس بحرارة عواطفهم عن طريق كتاباتهم التى لم تنقطع يومًا واحدًا، وأحسها عن طريق إتصالهم الدائم بى وإهتمامهم بشئونى وسؤالهم عنى منذ أول لحظة يطأون بأقدامهم أرض مطار القاهرة وهم قادمون من الخرطوم أو من جوبا .

وقصة السودان معى مثيرة للغاية، وإذا كلمتك عن السودان وعن معركة تحرير السودان فلا بد أن ننظر إلى الأحداث كلها فى منطقتنا العربية بأسرها، تلك الأحداث التى عاصرت معركة السودان وارتبطت بها ارتباطًا كاملا، وتشابكت معها تشابكًا كليًا فكانت المعركة تدور من بغداد إلى جوبا[٣٩] عند خط الأستواء.

صديقى الجنرال

وربما تسألنى عن نورى السعيد.. وهل سيرد له ذكر فى حديثى معك.. وأطمئنك يا أخى، فما دمنا سنتحدث عن مشاكلنا فى شرقنا العربى فسنتحدث

طويلا عن نورى السعيد وسيأتى ذكره آلاف المرات.! فصديقى الجنرال السعيد الذى قال عنى منذ أسابيع قليلة فى بغداد عند إجتماعه بالوفد البرلمانى السورى الذى كان يزوره.. قال أنه يحتفظ بشريط مسجل لكل ما دار بينى وبينه فى محادثات سرسنك[٤٠] عام ١٩٥٤ تلك القرية الجبلية أو المنطقة الكردية من شمال العراق.. والتى شهدت مفاوضاتى مع نورى السعيد وشهدها معنا من ألفها الى يائها جلالة الملك فيصل الثانى[٤١]! ملك العراق الشاب وولى عهده عبد الإله[٤٢]. سأروى لك الكثير عن نورى السعيد.. وسأنشر لنورى السعيد كل كلمة يريد أن يقولها.. وكل دفاع أو هجوم يريد أن يقوله، ولن أضن بمكان البلاغات ونشرات الأخ نجيب الراوى[٤٣] سفير العراق فى مصر ..

بل وأكثر من هذا أعلن أنى مستعد لأن أطير إلى بغداد متى أراد السيد نورى السعيد لأحضر حفلاً كبيرًا أقترح عليه أن يقيمه ليذيع خلاله الشريط المسجل السالف الذكر فإنى جد مشتاق إلى سماعه. كل هذه القصص والأفلام والأحداث سأكتبها لك لتعيش فى نفس الظروف التى عشت فيها ولتعرف جانبًا من تاريخ بلادك ومصر اليوم ومنذ ثلاث سنوات تصنع تاريخها بنفسها.. وإلى الغد يا أخى..

الهوامش

(٢٦) ولد فى ١٩١٨ أثناء عمل والده فى السودان، وهو يكبر أخاه صلاح سالم بعامين. تخرج من الكلية الحربية سنة ١٩٣٨، وأوفدته الدولة فى بعثات عسكرية خارج مصر إلى إنجلترا والولايات المتحدة. شارك فى حرب فلسطين، وإنضم إلى تنظيم الضباط الأحرار، وبعد نجاح حركة يوليو ١٩٥٢ وسيطرتها على السلطة فى مصر، إختير جمال سالم رئيسًا للجنة العليا للإصلاح الزراعى التى لعبت دورًا بارزًا فى تصفية ممتلكات كبار ملاك الأراضى الزراعية. ساهم فى الصراع على السلطة بين الرئيس محمد نجيب وجمال عبد الناصر، وانحاز انحيازًا مطلقًا إلى عبد الناصر، فيما عُرف فى السياسة المصرية بأزمة مارس ١٩٥٤، إختير وزيرًا للمواصلات فى سبتمبر ١٩٥٤، ورأس محكمة الثورة فى ذلك العام، وصف السادات جمال سالم فى مذكراته «البحث عن الذات» بأنه كان حاد المزاج، عصبيًا إلى حد غير طبيعى، لا يهاب الدم، وهو مادفع بالرئيس عبد الناصر فى النهاية إلى الحد من إختصاصاته. أصيب بالسرطان، وتوفى فى مايو ١٩٦٨.

ـ د. محمد الجوادى: البنيان الوزارى فى مصر ١٨٧١ ـ ٢٠٠٠، سلسلة القراءة للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٥٤٤ ومابعدها.

ـ خالد محيى الدين: والآن إتكلم، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١١٢.

(٢٧) هو مجلس تشكل عقب نجاح ثورة ٢٣ يوليو ومغادرة الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان لأرض مصر على يخت المحروسة المملوك للبحرية المصرية. وقد قام مجلس قيادة الثورة بخلع الملك فاروق واجباره على التنازل عن العرش لولى عهده الأمير أحمد فؤاد متعللين بالفساد الإدارى الذى إنتشر فى البلاد فى أواخر أيامه من حيث تغيير الوزارات.

تشكل المجلس لإدارة شئون البلاد إلى جانب مجلس الوصاية على عرش الملك أحمد فؤاد الثانى ولكن سرعان ما انفرد المجلس بحكم مصر بعد إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية، تولى مجلس قيادة الثورة حكم مصر إلى جانب مجلس الوصاية الملكى من عام ١٩٥٢ إلى ١٩٥٣ وأنفرد بالحكم بعد إلغاء الملكية. تولى اللواء محمد نجيب رئاسة المجلس من عام ١٩٥٢ إلى ١٩٥٤ ثم تولى رئاسته البكباشى جمال عبد الناصر من عام ١٩٥٤ إلى ١٩٥٦ إنتهى حكم مجلس قيادة الثورة عام ١٩٥٦ بانتخاب البكباشى جمال عبد الناص رئيسًا للجمهورية.

د. أحمد بيلى : مرجع سابق، ص ٢٩٨

(٢٨) تولى منصب رئاسة الوزراء فى العراق ١٤ مرة بدأ من وزارة ٢٣ مارس ١٩٣٠ إلى وزارة ١ مايو. كان نورى السعيد ولم يزل شخصية سياسية كثر الجدل والآراء المتضاربة عنه. إضطر إلى الهروب مرتين من العراق بسبب إنقلابات حيكت ضده. كان رجل الغرب خصوصاً بريطانيا فى المنطقة العربية.

إئتلف مع عبد الأله الوصى على عرش العراق أيام الملك فيصل، وبعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م قتل فيصل وعبد الإله، وإختفى نورى السعيد يومين فى بيت أحد أصدقائه ثم خرج متنكراً فى زى إمراه فعرفه بعض أهل بغداد فقتلوه.

ـ ستيون لويد: الرافدين، ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس، منشورات المتحف العراقى، بغداد، ١٩٤٤، ص ١٦٧.

ـ حامد الحمدانى: نورى السعيد رجل المهمات البريطانية الكبرى، مكتبة اليقظة العربية، بغداد. ١٩٨٩، ص ١١.

ـ خير الدين الزركلى: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٦، ٢٠٠٥، ج ٨، ص ٥٣.

(٢٩) بعد قيام حركة ٢٣ يوليو ـ ١٩٥٢ صدر مرسوم بقانون رقم ٢٧٠ لسنة ١٩٥٢ بإنشاء وزارة الإرشاد القومى (صدر بتاريخ ١٠/ ١١/ ١٩٥٢)، بإسم ملك مصر والسودان ـ ولى العرش المؤقت الأمير محمد عبد المنعم الوصى على العرش، عند تشكيل وزارة نجيب الثانية يونيو ١٩٥٣، عين صلاح سالم وزيراً للإرشاد القومى ولشئون السودان، وإحتفظ بهذا المنصب فى وزارة نجيب الثالثة (مارس١٩٥٤م) ووزارة عبد الناصر (ابريل ١٩٥٤) وحتى نوفمبر ١٩٥٥م.

ـ راجع: د. محمد الجوادى:، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٣٠) انشأت وزارة الأقاليم السودانية لأول مرة فى مصر فى الفترة من فبراير إلى يونيو ١٨٨٢، وأسندن إلى عبد القادر حلمى باشا ولكنها سرعان ما إلغيت، وحتى قيام حركة ١٩٥٢م كان هناك وكالة وزارة بمجلس الوزراء لشئون السودان، ولذلك لم يكن غريباً أن ينشأ منصب وزير الدولة لشئون السودان الذى أسند إلى صلاح سالم منذ ١٩٥٣ إلى ١٩٥٦م، وبعد إستقالة صلاح سالم أختفى النص على هذه الوزارة من التشكيلات الوزارية إلى أن عاد فى عهد الرئيس السادات. د. محمد الجوادى، مرجع سابق، ص ٣٧٧.

(٣١) أعضاء مجلس قيادة الثورة هم أعضاء الهيئة التأسيسية لتنظيم الضباط الأحرار التى تأسست عام ١٩٤٨ بالإضافة إلى محمد نجيب، جمال عبد الناصر، محمد أنور السادات، عبد الحكيم عامر، جمال سالم، صلاح سالم، زكريا محيى الدين، حسين الشافعى، عبد اللطيف البغدادى، كمال الدين حسين، يوسف صديق، حسن إبراهيم، خالد محيى الدين.

خالد محيى الدين: مرجع سابق ص ١٠٧.

(٣٢) بنى المبنى ١٩٤٩ على ضفاف النيل فى منطقة الجزيرة بالجيزة، وخصصه الملك فاروق الأول ملك مصر السابق ليكون مقراً لليخوت الملكية، وتكلف إنشاؤه آنذاك ١١٨ الف جنيه وتم الانتهاء منه فى عام ١٩٥١، وهو يضم ٤٠ غرفة ويتكون من ثلاثة طوابق.

قرر وزير الثقافة المصرى فاروق حسنى ضم مبنى مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو على ضفاف النيل بالجيزة إلى الآثار الإسلامية، وتحويله إلى متحف، وهو ما سيخضعه لقانون حماية الآثار رقم ١١٧ لسنة ١٩٨٣، فيحظر بيعه أو إزالته والعمل على ترميمه، وصيانة حرمه.

أحمد على: الشرق الأوسط. ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٩، العدد ١١٣٥.

(٣٣) احمد سوكارنو (٦يونيو ١٩٠١ ـ ٢١ يونيو ١٩٧٠)، أول رؤساء أندونيسيا. يعد إلى جانب جمال عبد الناصر وتيتو وغاندى المؤسسين الرئيسيين الأوائل لحركة عدم الانحياز. نال شهرة واسعة بسبب نضاله الدائم المستمر لأجل البلاد، كما وأنه سجن خلال الإستعمار الهولندى أكثر من مرة، ولكنه خرج فى النهاية منتصراً بتوليه منصب الرئاسة فى أندونيسيا، تبنى سوكارنو سياسة الديمقراطية الموجهة، وهى صورة معدلة للفكر الشيوعى وذلك بعد زيارته لروسيا والصين. تم إزاحته بالقوة من جانب أحد جنرالاته وهو سوهارنو والذى أصبح رئيساً لأندونيسيا بشكل رسمى فى مارس ١٩٦٧، قضى سوكارنو بقية حياته فى السجن.

ـ منير البلجيكى: معجم أعلام المورد، إعداد رمزى البعلبكى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٤٦.

(٣٤) محطة إذاعية إستخدمتها بريطانيا ضد مصر وحركة يوليو.

(٣٥) محمود ابو الفتح (١٥ أغسطس ١٨٨٥ ـ ١٩٥٨م) كاتب صحفى مصرى، أول نقيب للصحفيين فى مصر صاحب ومؤسس جريدة (المصرى) أكثر الصحف المصرية انتشاراً حتى منتصف خمسينيات القرن العشرين، وكان عضواً فى مجلس الشيوخ المصرى أيد ثورة يوليو فى البداية ولكنه عاد واختلف مع النظام الجديد، بعد محاكمة قاسية ذهب إلى المنفى ١٩٥٤م حيث إستقر فى تونس، ثم ذهب إلى باريس فى عهد ديجول ولكنه توفى فور ذلك ودفن فى تونس.

ـ آرثر جولد شميت «الإبن» : قاموس تراجم مصر الحديثة، ترجمة وتحقيق د. عبد الوهاب بكر، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢م، ص ٦٢.

الزركلى: الإعلام ج ٧ ص ١٦٥.

لمعى المطيعى: هؤلاء الرجال من مصر، ج ٢ ص ٢٢٣.

(٣٦) ولد عام ١٩١٦ وتوفى بالقاهرة فى ٢١ أكتوبر عام ١٩٨٧، عمل القيسونى بين عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٣ فى بنك باركليز البريطانى ثم تولى التدريس فى جامعة القاهرة منذ عام ١٩٤٤ وحتى عام ١٩٥٠. ثم أصبح الممثل الفنى لصندوق النقد الدولى فى البنك الأهلى المصرى بين عامى ١٩٥٠ و ١٩٥٤ ثم عين نائباً لوزير المالية والاقتصاد فوزيراً للمالية فى الاقتصاد فى العام نفسه وظل يشغل هذا المنصف حتى عام ١٩٥٨. وبعد إعلان الوحدة مع سوريا وقيام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ أصبح وزيراً للاقتصاد فى الحكومة الاتحادية وظل فى هذا المنصب حتى عام ١٩٦٢ عين بعدها وزيراً للمالية والتخطيط حتى عام ١٩٦٨. عقب ذلك عاد القيسونى إلى منصب نائب رئيس الوزراء للشئون الاقتصادية والمالية عام ١٩٧٦ وتولى كذلك وزارة التخطيط فى العام التالى حتى عام ١٩٧٨ قبل أن يتقاعد عن العمل الوزارى المباشر.

ـ مصطفى نجيب: موسوعة أعلام مصر ص ٣٢٤.

ـ آرثر جولد شميت: قاموس تراجم مصر الحديثة، ص ٥٦٨.

(٣٧) جريدة الشعب ثانى صحيفة يومية تصدرها حركة «يونيو ١٩٥٦» عمل صلاح سالم رئيساً لمجلس الإدارة ورئيس تحرير لجريدة الشعب وقع مقالاته فيها بتوقيع صلاح سالم وأحياناً صلاح وأحياناً بتوقيع «صاد».

(٣٨) تولى وزارة الصحة فى وزارة نجيب الأولى ٨ سبتمبر ١٩٥٢م وقد بقى وزيراً للصحة طيلة الوزارات التالية كلها حتى قامت الوحدة فعين وزيراً للصحة بالأقليم المصرى فى الوزارة الأولى مارس ١٩٥٨م ولكنه ترأس المجلس التنفيذى للإقليم المصرى فى وزارة الوحدة الثانية.

ـ محمد الجوادى: مرجع سابق، ص ٤٥١.

(٣٩) جوبا تقع فى جنوب السودان وهى من أجمل المدن الأفريقية من حيث الجمال الطبيعى تجرى بها عدة أنهار مما يزيدها جمال إنها مدينة لا ترى فيها الشمس إلا فى شهور معينة وذلك لهطول الأمطار بكثافة عالية جداً طول العام وبها جسور تربط المدينة ببعض ضواحيها وبها الجبال المخضرة طول العام أن المدينة عبارة عن غابة إستوائية.

(٤٠) تقع منطقة سرسنك فى الموصل كانت مصيف يصطاف فيه الملك فيصل ورجال الحكومة العراقية وكبار المسئولين، عقدت مباحثات بين الوفد المصرى الصاغ صلاح سالم والملك فيصل الثانى والوصى على عرش العراق عبد الإله ونورى السعيد (فى مصيف سرسنك العراقى) لبحث (مستقبل التعاون العسكرى) بين مصر والعراق فى إطار إتفاق الدفاع المشترك أفضت المحادثات إلى خطة مصرية عراقية مشتركة تقضى بتحويل الإتفاق إلى حلف عربى ثم الدخول فى حلف عسكرى وشرقى يضم باكستان وإيران وتركيا وتوسيعه فى وقت لاحق ليصبح حلفًا إسلاميًا يمتد حتى إندونيسيا والارتباطات بالغرب فى دفاع مشترك ضد الشيوعية، لكن أعلن نورى السعيد إنهيار الاتفاق متهمًا مصر بعدم الجدية والمماطلة. ومن المهم ان نذكر رأى أحد شهود العيان وهو ناصر الدين النشاشيبى الذى حضر هذه المباحثات يتحدث ناصر الدين النشاشيبى وجئت معه. وسألنى سالم ضاحكًا ونحن فى الطائرة التى حملتنا من بغداد إلى مصيف سرسنك فى شمال العراق حيث عقدت الأجتماعات مع الوصى ونورى السعيد وصلاح سالم: قال لى أن الرئيس عبد الناصر قد أرسل إلينا الزعيم اللبنانى السيد صائب سلام لكى يحضر المباحثات وينقل تفاصيلها ـ سرًا ـ إلى عبد الناصر، وأضاف صلاح سالم قل لى يا أخ ناصر هل أنت معى أم مع العراق أم جمال عبد الناصر؟ وأسقط كما يقول النشاسيبى فى يدى ولم أكن أدرى أن الاصابع الخفية قد نجحت فى خلق شرخ واسع بين عبد الناصر من جهة والصاغ الذكى النشط ـ صلاح سالم ـ من جهة أخرى.

والتقى جميع الأطراف فى مصيف سرسنك البعيد المعزول عن العالم بسكانه الأكراد والذين لا يزيد عددهم عن مائة إنسان. وقد تصلح أجواء سرسنك لأى عمل أو لأى إنتاج أو لأى لقاء فى العالم ولكنها لاتصلح لاجراء مباحثات السياسة وسط أكراد يزهون بألبستهم الملونة وعماماتهم الخاصة ويقضون المساء فى الغناء والرقص ويقضون النهار فى النوم أو المشى أو السباحة فى أحواض القصر الملكى. وقضى صلاح سالم أربعة أيام ثم عاد إلى بغداد ومنها إلى القاهرة وكان فى كل لقاء لى معه يتندر عن الصحفى هيكل ويسألنى فى تهكم: ترى ما هو رأى صديقك هيكل فى معاهدة الدفاع العربى المشترك؟ ثم يسأل: ترى ما هى شروط هيكل لإنضمام مصر إلى نظام دفاع انكلو ـ امريكى؟ ثم يضحك ويرفع نظارته السميكة السوداء لكى يمسحها ثم يعيدها إلى عينيه ويقول: نحن فى واد وهذا العراق فى واد آخر. ويواصل النشاشيبى ذكرياته مع صلاح سالم ومباحثات سرسنك فيقول: وأذكر أننى سألته أى صلاح سالم: كيف ترى نتيجة مباحثاتك مع العراقيين؟ وأجاب على الفور: لو كانت أمريكا أطلق اسم (القاهرة) أو أسم مصر على الحلف العسكرى القائم بحيث يصبح إسمه (حلف مصر) أو (حلف القاهرة) لا حلف بغداد ـ كما هو الآن لما تردد عبد الناصر فى إعلان القبول به والانضمام إليه. وأدهشنى التعليق فسألته: إلى هذا الحد يكون التعصب للإسم ويكون التجاهل لحقائق الأمور؟ وأجابنى لقد بقى عبد الناصر مأخوذًا بمظاهر الأمور على جوهر القضايا وعلى مضمونها الا تسمعه يكثر فى خطاباته من تكرار عبارات (الأستعمار) و(ذئاب الاستعمار) و (حلف بغداد).

راجع: ناصر الدين النشاشيبى: سنوات فى مصر ـ المشروع الذى قتل وحدة العرب وأطاح بالهيبة والكرامة، جريدة الشرق الأوسط، ١٩ اغسطس ٢٠١١، العدد ٨٢٩.

ـ مذكرات محمود رياض ـ وزير خارجية مصر آنذاك ـ دار المستقبل العربى، بيروت، ج ٢ ص ٥٤ ومابعدها.

ـ عبد السلام أبو السعود: حلف بغداد، دار القاهرة، القاهرة. ١٩٥٧م.

(٤١) بعد وفاة الملك غازى فى ٤ أبريل ١٩٣٩ آل العرش إلى ولده الوحيد الملك فيصل، من زوجته الملكة عالية والذى كان آنذاك فى سن السادسة من عمره، ولهذا أصبح خاله الأمير عبد الإله وصيًا على العرش فيما كان نورى السعيد هو الذى يدير الدولة العراقية. كانت الظروف السياسية التى تحيط بالملك فيصل فى غاية الحساسية والتأزم، حيث كانت وصاية خاله الأمير عبد الإله عليه وشخصيته القوية والمتنفذة فى البلد، إضافة إلى سيطرة نورى السعيد بنفوذه الواسع والمتعدد والمدعوم بشكل مباشر وعلنى من الإنجليز، كل ذلك جعل الملك الشاب فيصل فى حالة من التردد وعدم القدرة لا يحسد عليها أبدًا، ومع كل هذا مارس الملك فيصل الثانى نشاطًا ملحوظًا لمعالجة المشاكل الإقتصادية التى كان العراق يعانى منها. قتل أثناء ثورة تموز ١٩٥٨م،

ـ خير الدين الزركلى: الأعلام ، ج ٥ ص ١٨٨ .

ـ عبد الوهاب الكيالى (تحرير): موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٥، ج ٤ ص ٦٨٠.

(٤٢) الأمير عبد الاله بن الملك على بن الشريف حسين الهاشمى (١٩١٣ ـ ١٩٥٨)، ولد فى مدينة الطائف بالحجاز، ابن ملك الحجاز على بن حسين أختير وصيًا على عرش العراق ولغاية ١٩٥٣م، وذلك بعد مقتل الملك غازى الأول فى حادثة سيارة لأن فيصل الثانى ابن الملك غازى، الوريث الشرعى لم يبلغ بعد سن السادسة من عمره وان عبد الإله يرتبط بصلة الخال للملك حيث إنه شقيق أم فيصل الثانى الملكة عالية، ثم نودى به وليًا للعهد بعد إنتهاء الوصاية عام ١٩٥٣ وتتويج الأمير فيصل الثانى ملكًا على العراق، لم يلقى عبد الإله تأييدًا شعبيًا ولم يلقى تأييدًا من النخب السياسية الوطنية أيضًا، بسبب بعض سلوكياته وثقافته المحدودة وميله الجارف للسياسة البريطانية وتنازل عبد الإله عن وصايته للعرش عام ١٩٥٣م، عندما بلغ فيصل الثانى ١٨ عامًا من عمره ولكنه بقى كأحد مستشارى الملك فيصل الثانى حيث عرف عبد الإله بميوله نحو الغرب. قتل عبد الإله فى قصر الرحاب فى بغداد فيصل الثانى فى ١٤ تموز ١٩٥٨ أثناء الهجوم على القصر ضمن الإنقلاب فى حركة ١٤ يوليو/ تموز ١٩٥ .

ـ خير الدين الزركلى: الإعلام، ج٣ ص ٢٧٠ .

ـ عبد الوهاب الكيالى (تحرير) موسوعة السياسة ج٣ ص ٨٠٨.

(٤٣) كان نجيب الراوى أول سفير للعراق فى مصر عند قيام حركة ١٩٥٢م.

(٢) السر فى سكوتى ثمانية أشهر

هل طردنى الأزهرى[٤٤] من مكتبه ؟

السفير الذى عطل الأعمال لأنه نسى كلمة "سابق" !

طالب يوسطنى لأجعل برلين عاصمة أفغانستان !

لبن عسل تمر هندى.. كان يجب أن يكون هذا المثل عنوانا لسلسلة خطاباتى التى بدأتها لك بالأمس.. نورى السعيد.. الإختلاسات.. السجون.. محادثات سرسنك.. الشريط المسجل.. إستقالتى أو إقالتى.. السودان .. الأحلاف.. إلخ.. إلخ..

لم أقصد أن أسبب لك دوارًا فى رأسك بهذا الخليط العجيب ولكنى فى الواقع كنت فى حيرة من أمرى حينما وجدت نفسى وجها لوجه أمامك بعد أن احتجبت عنك شهورًا طويلة .

كيف أبدأ .. وكيف أنتهى.. منذ خلقت وأنا أعشق الحديث إلى الناس أحب أن أتكلم وأتحدث لأنى لا أستطيع أن أحتفظ بما فى صدرى وما يجول بفكرى.. وقد مضى على ثمانية شهور.. مائتان وأربعون يوما بالتمام والكمال. أعتقلت خلالها لسانى خلف أسوار فولاذية.. مرت بى كل لحظة طوال هذه المدة وأنا أقاوم لسانى فى محاولاته لكى ينطلق .. لكى يكلمك.. حتى يرتاح صدرى ويهدأ فكرى.. وفجأة ولما واتتنى فرصة الإفراج عن لسانى المعتقل وجدت نفسى فى دوامة هائلة من الأفكار.. آلاف القصص تريد أن تنطلق فى وقت واحد تريد أن تخرج من السجن كما يتدافع صغار الطلبة وحتى كبارهم من فناء مدرستهم إلى الطريق حينما يدق الجرس يؤذن بإنتهاء الحصة السادسة ويفتح البواب البوابة الحديدية للمدرسة..

كل يريد أن يخرج فى لحظة واحدة لأن كل منهم منذ الدقيقة الأولى للحصة الأولى وهو يفكر فى هذه اللحظة.. لحظة الخروج والإنطلاق. كم حاولت أن أتمثل بالطلبة أنفسهم وهم يقصدون نفس المدرسة فى الصباح قادمين من منازلهم إلى خيمة إمتحان آخر السنة حيث يدخلون بحذر وتباطؤ ونظام شديد لا يدفع أحد منهم بكتفه طالبًا آخر ليسبقه أو يزاحمه عند إجتيازه بوابة خيمة الامتحان. ولكنى عجزت، وأخذت الحقائق والقصص والروايات تصر على أن الامتحانات قد ألغتها وزارة التربية والتعليم وخيمة الامتحانات قد تحولت إلى سيرك كل يريد أن يندفع إليه ويخشى أن تفوته لحظة واحدة من برنامج الحفلة.

ولهذا لا مفر من أن أستأذنك فى الإسترسال قليلا فى سرد رءوس الموضوعات التى تتدافع فى مخيلتى قبل أن يوفقنى الله إلى العثور على نقطة الابتداء بعد أن صمت طويلا عن الكتابة والكلام وأخذت أتهيأ للإفطار وأمامى مائدة عليها مئات الأطباق الشهية .. بأى الأطباق أبدأ وبأيها أختتم الإفطار.. لا شك أن وقتا للاستعراض يجب أن يمر..

زيارة السودان

أرجوك أن تذكرنى إن نسيت بأن أوضح لك سبب سكوتى وإبتعادى عنك مدة طويلة عقب خروجى من منصبى، كما أنك ولا شك تريد أن تعرف لماذا تكلمت فجأة.. ولماذا زرت السودان يوم إعلان إستقلاله وماذا حدث لى فى هذه الزيارة المثيرة ..

وهل حقيقة طردنى[٤٥] إسماعيل الأزهرى رئيس وزراء السودان ورئيس الحزب الوطنى الإتحادى[٤٦] حينما زرت السودان فى هذه المرة الأخيرة عقب الاستقلال.. وهل طلب سيادته محاكمتى كما أقسم على ذلك كل المذيعين فى راديو بغداد ولندن والشرق الأدنى وباريس وإسرائيل ؟!

وهل كنت أحمل فى جيبى مرسوما بتعيينى سفيرا[٤٧] لمصر فى السودان خلال هذه الزيارة.. ولماذا ألغيت رحلتى إلى إقليم شرق السودان..؟

وهل حدث هذا الإلغاء نتيجة لتهديد هذا الإقليم بالثورة إذا ما تمت هذه الزيارة كما أكد نقيب العالمين ببواطن الأمور فى مصر كلها وهو يرتشف كأسه من الويسكى والصودا ويتصدر أحد مجالسه فى صالونات القاهرة ؟ سأنتزع لك من ذاكرتى صورة لكل هذه الأيام.

ولن أنسى أن أخبرك بقصة ممتعة لا يعلمها إلا أفراد قلائل جداً فى وادى النيل كله ألا وهى ثروتى الغريبة التى أمتلكها فى شرق السودان ويحرسها لى زعماء لقبيلة الهدندوة[٤٨] الشهيرة وقصة البقر الذى أدفع عنه ضريبة سنوية لحكومة السودان!!

وأريد أن أحدثك طويلاً يا أخى عن علاقة الكثير من هذه القصص المثيرة.. بالثورة الدامية الشهيرة التى نشبت فجأة وقبل خروجى بأيام فى جنوب السودان والتى انتهت بآلاف من البشر لقوا مصرعهم فى أدغال الغابة الضخمة التى تجثم فى قلب القارة السوداء .

سأحدثك عن قصتى مع السفير البريطانى الذى وصل قبيل هذه الحوادث بأيام قليلة ليتولى مهام منصبه فى القاهرة وفى نفس القصر الذى حكم منه السير مايلز لامبسون[٤٩] منذ عهد قريب كلا من مصر والسودان.. كل وادى النيل بما فيه من ملوك وأمراء وزعماء ورؤساء وزارات ووزراء ..!

وسأحرص على ألا أنسى قصتى مع السير نوكس هولم آخر حاكم عام شهده السودان ، هذا الرجل التعس الذى جلس فى المكان المشئوم الذى سبقه إليه كتشنر[٥٠] ، وروبرت هاو أخر ملوك السودان غير المتوجين.. والذى إضطر إلى الهرب من الخرطوم دون أن يتمكن من جمع ملابسه الخاصة..!

لولا هذا الإنتصار... وإنى لأجد فى نفسى رغبة ملحة فى سرد القصة الكاملة لحلف بغداد[٥١] المناورات التى دارت بين لندن وأنقرة وبغداد لجر القاهرة إلى هذا الحلف.. وصمدت القاهرة وصمدت دمشق الباسلة .. دمشق التى عشت فيها أسابيع وكأننى فى ساحة قتال حقيقى، فتن ومؤامرات وحشود حربية

ضخمة على الحدود وإطلاق للنيران من الشمال ومن الجنوب وإغتيالات وسيل من الأموال الأجنبية وآلاف من الرءوس ظلت تدبر وتوجه من كل عواصم العالم الغربى وعواصم أذنابه.. شهدت كل هذا من قلب عاصمة الأمويين وشهدت كيف أنتصرت دمشق؟ ولولا هذا الإنتصار لتغير بالتأكيد تاريخ هذه المنطقة العربية وتاريخ الصهيونية[٥٢] العالمية ولتغير ميزان القوى فى العالم بأسره!!

أريد أن أوضح خبايا الماضى القريب لتعرف سر الإنهيار العصبى والهيستريا التى أصابت اليوم أكثر من قوة عالمية ظلت قرونا طويلة متزنة رزينة هادئة !

إن هذا الخليط العجيب الذى أكتبه لك هو صورة طبيعية للخليط من الإختصاصات والمتناقضات الذى عشته .

قصة يوم..

كأن يومى لا تتسع له هذه الساعات الأربع والعشرين التى حددتها الطبيعة منذ بدء الخليقة ولكى تمتزج فى هذا الجو القلق سأروى لك قصة يوم أى يوم من هذه الأيام.. متاعبى.. مقابلاتى.. مفاوضاتى.. زوارى.. خطاباتى .. كتاباتى.. كان يجب أن يتسع يومى لكل هذا رضيت أو لم أرض.. لم أشك يومًا من الإرهاق فى العمل الذى تخللته رحلات عديدة مضنية ولكنى كنت أشكو دائمًا من عقول لا تفهم تبعاتى ولاتعرف حدود منصبى ولاتقدر إمكانياتى ..

كان يتحتم على مقابلة المئات فى اليوم الواحد من سياسيين ورجال أحزاب وتجار وسفراء وطلبة وفنانين وأصحاب حاجيات.. كل منهم يشعر أن من حقه أن يقابلنى مرة وربما مرات وكل على حدة ليتحدث إلى فى آرائه وأفكاره وإتجاهاته أو فى مشاكله.. وإن كان من الجنوب فربما أصر قبل أن يدخل فى صلب الموضوع الذى جاء من أجله أن يسرد على تاريخ السودان منذ دخله محمد على ـ على الأقل ـ إلى أن وصل إسماعيل الأزهرى إلى رياسة الوزراء فى الخرطوم..!

كان على أن أقابل وأن أستمع طويلا وأن أبتسم وقلبى يكاد يتمزق من الألم وأتظاهر بالإقتناع وأنا فى داخليتى لا أصدق حرفًا واحدًا مما أسمع وأهدئ الثائر ويعلم الله أنى أشد منه ألما وثورة وأنى أساهم فى حل المشاكل العامة والخاصة والتى لا يمكن أن تدخل ضمن إختصاصات وزارة الإرشاد بحال من الأحوال !!

لم أكن أستطيع..

هذا تاجر سودانى عقد صفقة فول مع تاجر مصرى ووقع معه فى إشكال حول نوع البضاعة.. وهنا يتحتم على وزير الدولة لشئون السودان دون أى فرد آخر فى وادى النيل من منبعه إلى مصبه أن يجد حلا لهذا الإشكال ويجب أن يكون الحل مرضيا للطرفين..

لماذا لا تذهب إلى المحكمة وأنا كفيل بأن "أشد" لك محاميًا كبيرًا على نفقة الوزارة؟

لا.. إن وقت التاجر الذى قدم من الخرطوم لا يسمح له بانتظار قرارات وأحكام المحاكم وفتاوى المحامين والمستشارين.. وستعرف فيما بعد أن كلمة "اتفلقوا مع بعض" لم أكن أستطيع أن أقولها.. كان يجب على أن أنفلق أنا وأن أجد حلا .. أى حل !

ويمضى الوقت وتدور عقارب الساعة وأنا أحاول أن أفك عقدة الفول السودانى!

ويخرج التاجر لتدخل المطربة ملك بعد أن تمطرنى بخمسين تلغرافًا على الأقل وتكون قد إحتلت ركنًا بجوار سكرتيرى بساعات طويلة يوميًا ولمدة أسبوع لتشتكى حماد مدير الإذاعة لأنه يمنعها من الغناء فى برنامج الإذاعة وبعد سرد تاريخ الفن فى مصر تبدى إستعدادًا كاملاً لإجراء بروفة لفنها فى مكتبى لو كان وقتى يتسع فأعتذر لها عن السماع لضيق الوقت فقط وأعدها بسجن حماد.

تخرج ملك ليدخل طالب سودانى يحمل توصية من كبير.. رسب الطالب فى مادة الجغرافيا مثلا وهو يعتقد أن إجابته صحيحة.. وأن مدرس الجغرافيا فى مدرسة حسن المسرات مثلا يتحداه بلا سبب ..

والحل الوحيد لهذا الإشكال إما أن أقنع الطالب بأن إجابته كانت خاطئة ولا مصلحة لمدرسه فى أن يتحداه أو أقنع المدرس بأن يعتبر مؤقتًا بأن برلين هى عاصمة أفغانستان !

وبهذا ينتهى إشكال الطالب ويخرج لأقابل وفدًا من حملة البكالوريا يصر على عرض شكواه..

ويدخل رئيس الوفد وقبل أن يبتدرنى بالتحية يقول: "إحنا بقى لنا أسبوع واقفين فى الشمس عشان يبقى لوننا أسمر شوية عشان تعطينا لفتة زى إخواننا أهل الجنوب" وهو يؤمن فى قرارة نفسه بأنى قادر على حل مشكلتهم كما أنقذت الطالب السودانى "الريح" الذى قتل زوجته المصرية وهربته إلى لندن ليفلت من حبل المشنقة ويعلم الله أن هذا الريح لم أره فى حياتى ولم أسمع بقصته إلا من الجرائد.. ولكن من يصدق ؟..

أسكت.. ويسكتون

ثم يدخل وفد لأسرة سودانية جاءت من حلفا(٥٣) لتخرج إبنها من السجن.. كيف؟ مش شغلنا إنت وزيرنا ومش خارجين من هنا إلا لما يخرج ولدنا ونأخذه معانا ..

أرفع كل سماعات التليفون التى حولى لأعرف قصة إعتقال هذا الإبن فيتضح محاكمته بتهمة خطيرة يعاقب عليها أى قانون فى أى دولة فى العالم..

أشرح وأقنع وأرجو والتمس.. حتى أعجز عن النطق بحرف واحد فأسكت ويسكتون.. ويمضى الوقت وتتداخل عشرات المواعيد لمنتظرين فى الغرفة المجاورة الذين يصبون جام غضبهم على السكرتير لعدم دخولهم فى الميعاد الذى حدد لهم من قبل.

وما من صحفى أجنبى زار مصر إلا وكان مكتب وزير الإرشاد بحكم منصبه أول ما يفكر فى زيارته.. ولم يكن هناك وقت محدد للصحفيين.. كنت ألقاهم فى أى وقت وفى أى مكان.. لقيت بعضهم فى الرابعة صباحًا فى منزلى ولقيت بعضهم فى مكتبى وأنا أتناول غذائى، وتحدثت إلى بعضهم فى السيارة من مكتبى إلى مقر رئاسة مجلس الوزراء.. وإن اعتذرت لأحدهم بضيق وقتى أو إنشغالى أصبحت فى نظره وزيرًا للإرشاد "فالصو". لا يقوم بواجباته نحو الصحافة كما يجب!

آه من مقابلة السفراء

وبين كل هذه المقابلات كانت تفاجئنى مقابلات السيد نجيب الراوى سفير العراق فى مصر وكان حريصًا على أن يلقانى عدة مرات فى الأسبوع الواحد.. وآه من مقابلة السفراء.. كم لاقيت فيها ومنها فأنا بطبعى صريح واضح.. ولكن من أجل المصلحة العامة كثيرًا ما كنت أطبق شفتى تحت أسنانى حتى لا أقول شيئا قد يغضب فخامة الزائر.. وأحاول طوال الزيارة أن أعتقل أعصابى وأمسك بزمامها حتى لا تفلت.. ولا يكاد يخرج سفير حتى يدخل سفير آخر وتبدأ معركة أخرى مع أعصابى وشفتى..!

وكان من الأمور المألوفة فى برنامجى اليومى أن تحدد مقابلة السفير فى الساعة الثانية عشرة ليلا مثلا أى فى منتصف الليل وبعد ذلك فى بعض الأحيان.

وإيه يعنى

وعلى ذكر السفراء أذكر أن جلال فيظى سكرتيرى صمم يومًا على تغيير برنامج مقابلاتى لأن سفير مصر فى (....) يريد مقابلتى يومًا لأنه سيقصد فى اليوم التالى مقر منصبه ولا بد أنه يريد أن يعرف بعض خطوط السياسة العامة فى القضايا التى أعمل فيها. فوافقت جلال وأمرى إلى الله ودخل السفير...

سألنى عن الأحوال لأنه غاب طويلاً عن مصر فأخذت أشرح له الوضع فى السودان وفى العالم العربى وخطوات المفاوضات حول القتال والعقبات التى تعترضنا حتى شعرت أنى قد غطيت كل النقط.. وبعد ساعة من الزمن فهمت من سيادته أنه قدم للرجاء فى أمر بعيد كل البعد عن السياسة العامة وعن السودان أو الجلاء أو مشاكل أو قضايا العالم العربى..

إنه جاء لأنه فصل منذ أيام فى التطهير(٥٤) فى وزارة الخارجية.. جاء يشتكى.. إنه فعلا سفير وسفير لمصر فى هذه البلاد الأجنبية ولكن نسى أن يقول شيئًا واحدًا.. شيئًا بسيطا، نسى أن يقول كلمة سابق.. وإيه يعنى.. ويومها تعبت أعصابى قليلا وتعبت أعصاب جلال قليلا أيضًا.. وما ذنبى ..؟!

ما زالت.. تمضى

لقد جر على إضطلاعى بقضية السودان سيلاً جارفًا من المواطنين.. من نيجيريا.. من أوغندا.. من كينيا.. ومن غيرها من المستعمرات الأفريقية التى تطلب يد المعاونة فى صراعها ضد الإستعمار الذى أقام حولها ستارًا كثيفًا يحجبهم عن الحضارة والمدنية والقرن العشرين.. وإزاء هذا أقامت الثورة إذاعة موجهة لكل هذه المناطق بلغاتها وخاصة اللغة السواحيلية(٥٥) وهى الغالبة

وما زالت هذه الإذاعات تمضى فى طريقها إلى هؤلاء المكافحين تنشر الوعى وتشد من أزرهم، وقد أثارت هذه الإذاعة إنجلترا إلى حد أقام الحكومة البريطانية ومجلسى العموم واللوردات(٥٩) وأقعدهم .

حل الرموز

إن نسيت فلا أنسى الساعات التى أمضيها يوميًا مع بريدى.. مئات الخطابات بلغات مختلفة ولهجات متباينة.. والتى يعجز قسم الترجمة الملحق بمكتبى عن حل رموز بعضها وخاصة رسائل زعماء جنوب السودان التى يتحتم على أن أقرأها بنفسى وأرد عليها بنفسى حتى لا أخيب ظن هؤلاء الذين وثقوا بى وبمنصبى..

كانت هذه العملية وحدها.. عملية الإطلاع على أهم الخطابات والرد عليها تكلفنى يوميًا من ساعتين إلى ثلاث.

أما الصحافة الأجنبية والإطلاع على أهم ما جاء بها وقراءة ملخصاتها فلها على الأقل ساعتان أخريان لأن بعضها وهى صحافة البلاد العربية وصحافة السودان كان يتحتم على أن أطلع عليها من الألف إلى الياء جريدة جريدة يوميًا..

أمور يجب أن تتضمنها صحافتنا وإذاعتنا للرد على حملات الإفتراء والتضليل وعامل الوقت عامل حاسم ، ولا شك أن إقامة جهاز مصلحة الإستعلامات بنظامها الحديث قد خفف عن عاتقى الكثير من الجهد والإرهاق .

ولا يمضى أسبوع أو أسبوعان دون حضور وفد لصحافة بلد من البلاد يريد أن يعرف منى كل شئ عن الثورة وبصفتى متحدثًا رسميًا باسم الثورة على أن أدرس كل مشاريع زملائى الوزراء حتى أستطيع أن أرد على كل سؤال يوجه إلى: المشاريع.. القوانين.. اللوائح.. يجب أن أتابعها كلها يومًا بيوم وأن ألم ببعض تفاصيلها على الأقل.

والندوات والإجتماعات الشعبية المتلاحقة ومشاكل عمال المحلة ونقابتهم والخلافات اليومية التى تقع بين هيئات المدينة والمصالح الحكومية المختلفة كلها كانت جزءًا من مشاكلى. فكل مواطن فى المحلة كان يعتبرنى مسئولاً مسئولية مباشرة عن كل مشكلة تعترض طريقه !

أمثلة للخليط العجيب

كنت الوحيد فى مصر الذى يتحتم عليه مقابلة الشيوخ والنواب وإن لم يكن لمصر فى هذه الفترة برلمان إلا أن بعض شيوخ ونواب الجنوب تولوا عنهم هذه المهمة. كل يريد مقابلة الوزير المختص ليتفاهم معه حول المشاكل التعليمية وخلافها فى منطقته والتى تقوم مصر ببعض أعبائها فى السودان وكان يتحتم على أن أعيش معهم فى كل هذه المشاكل من إختيار المدرس أو نقله أو مكافأته أو عقابه الى إنشاء المدرسة أو المستشفى أو تعيين الفراش والتومرجى!!

ثم مشكلة صوت العرب(٥٧) وتوجيهاته إلى ركن السودان إلى بقية الأركان السياسية فى الإذاعة إلى الرقابة على الصحف التى تنتهى يوميًا عندما تدق الساعة معلنة الثانية بعد منتصف الليل. والحفلات التى يتحتم علىّ أن أحضرها بحكم منصبى أو أقيمها أمثلة للخليط العجيب من الإختصاصات والمتناقضات والتى حرمتنى طويلا من نعمة الشعور بكيان أسرتى .

لقد كان كل يوم من أيامى لوحة مضطربة غير متناسقة لفنان...... وكأنه نشر كل ألوانه على صفحة الورق فتضاربت ألوانها واختلطت .

ومن هنا عرفنى الناس عصبيًا أسير فوق أعصابى .

لقد أتعبتك يا أخى وبدأت أنا بدورى أشعر بالتعب.

وإلى الغد حيث أبدأ .

الهوامش

(٤٤) إسماعيل أحمد بن السيد إسماعيل بن السيد أحمد الأزهرى بن الشيخ إسماعيل الولى الكردفانى البديرى الدهمشى (١٩٠١ - ١٩٦٩م) تلقى تعليمه بالجامعة الأمريكية فى بيروت وعاد منها عام ١٩٣٠. عين بكلية غوردون وأسس بها جمعية الآداب والمناظرة. تولى رئاسة الحزب الوطنى الأتحادى (الحزب الاتحادى الديمقراطى حاليًا) عندما توحدت الأحزاب الأتحادية تحته. فى عام ١٩٥٤م انتخب رئيسًا للوزراء من داخل البرلمان. وتحت تأثير الشعور المتنامى بضرورة استقلال السودان أولاً وقبل مناقشة الاتحاد مع مصر، وبمساندة الحركة الاستقلالية تقدم بإقتراح إعلان الإستقلال من داخل البرلمان فكان ذلك بالإجماع. تولى منصب رئاسة مجلس السيادة وبعد قيام ثورة أكتوبر ١٩٦٤م إبان الديمقراطية الثانية، إعتقل عند قيام انقلاب مايو ١٩٦٩م بسجن كوبر وعند إشتداد مرضه نقل إلى المستشفى إلى أن توفى بها.

- خير الدين الزركلى: الأعلام، ج ١ ص ٣١٠..

- عبد الوهاب الكيالى (تحرير): موسوعة السياسة ج١ ص ١٩٠.

(٤٥) إنتهى موقف الأزهرى إلى تناطح حاد بينه وبين صلاح سالم الذى أتبع فى سياسته بالسودان أسلوبًا يخرب علاقات القوى السياسية ويمزق صلابة الأفراد، إذا استخدم الأموال وسيلة للاقناع وجذب زعماء القبائل، ولم يجد صلاح سالم سوى محاولة حصار إسماعيل الأزهرى بتأليب بعض أعوانه ضده ونشر بعض الحقائق القديمة عنه.

وخطب إسماعيل الأزهرى فى الجماهير يقول: (أن لحم أكتافى من مصر وقد دخلتها لابسًا حذاء كاوتش... ولكن هل يرضيكم أن يحكمنا صلاح سالم والعسكريون فى مصر).

- راجع: أحمد حمروش: مرجع سابق ج٣ ص ٣١٧.

(٤٦) الحزب الوطنى الأتحادى السودانى: حزب سياسى تأسس فى السودان فى ٢ نوفمبر ١٩٥٢، بإندماج الأحزاب الاتحادية السودانية الستة: الأشقاء، الخريجين، مؤتمر السودان والاتحاديين، الجبهة الوطنية، حزب وحدة وادى النيل، الأحرار الاتحاديين، هدف الحزب الاتحاد مع مصر عن طريق تقرير المصير للسودانيين.

(٤٧) يذكر حمروش أنه بعد إستقلال السودان ذهب صلاح سالم إلى هناك كشخص عادى، ورفض الأزهرى اقتراحًا بقبوله أول سفير مصرى هناك.

ـ أحمد حمروش: مرجع سابق ج٢ ص ٣٢٢.

(٤٨) الهدندوة إحدى مجموعات القبائل البجا السبعة، والهدندوة وهى تصنف من أقدم شعوب السودان بإستثناء النوبيين. والحدود العرقية للهدندوة هى تلال البحر مشاركة مع تلك المجموعات غير أن لهم حضوراً زائداً عن غيرهم فى مدينة كسلا جنوباً حتى الضفاف الشرقية لنهر عطبرة وليس لهم وجوداً غربى هذا النهر، وهم أكبر المجموعات عدداً وهم ينقسمون إلى عدة بطون داخل هذه المجموعة لكل ولاءاته، رغم أن بعض الباحثين يطلق على الهدندوة قبيلة إلا أنها ليست كذلك بالمفهوم التقليدى لمعنى القبيلة التى ترتكز على وحدة الدم والانتساب للأب والجد والواحد.

هذا ورغم الوجود الهدندوى المكثف فى المناطق المنحصرة بين كسلا وسواكن إلا أن مدينة كسلا هى عاصمتهم بينما تعتبر توكر مرتكزهم التقليدى.

ـ عثمان حمد الله: دليل الأنساب فى السودان، ص ٤٣.

ـ محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص ١٠٠..

(٤٩) مايلز لامبسون سفير الإمبراطورية البريطانية الذى حكم مصر ١٢ سنة ١٩٣٤ ـ ١٩٤٦ بدأ السير «مايلز لامبسون» خدمته فى مصر سنة ١٩٣٤، وقد جاء إليها بعد سنوات فى الصين أثبت فيها أنه واحد من هؤلاء الرجال الذى تعتمد عليهم الإمبراطوريات فى بناء وإدارة ممالكها. وكان مجئ «مايلز لامبسون» إلى مصر فى ذلك التوقيت مهمة ذات حساسية خاصة لأن البحر الأبيض بدأ يشهد زحفاً إيطالياً منظماً يبحث عن المستعمرات فى جنوبه ـ فى افريقيا ـ وأوله غزو الحبشة والدخول إلى عمق البحر الأحمر حتى آخره. ومع وجود إيطالى سابق فى ليبيا فإن الحكومة البريطانية رغبت فى تعزيز وجودها ونفوذها فى مصر، بما فى ذلك التوصل إلى «حل من نوع ما» مع القوى الوطنية المصرية ذات التأثير وأولها «حزب الوفد» لذلك كان أول عمل قام به السير «مايلز لامبسون» فى مصر كمعتمد بريطانى هو التمهيد والإعداد لعودة حزب الوفد إلى الحكم، عن طريق تراض مع الملك «فؤاد» وجاءت معاهدة سنة ١٩٣٦ التى فاوض ووقع عليها «مصطفى النحاس باشا» وهو زعيم الأغلبية الشعبية فى مصر وقتها دون شك.

ـ آرثر جولت شميت: مرجع سابق ص ٥٩٨.

ـ مذكرات اللود كيللرن (سير مايلز لامبسون): إعداد وتقديم: تريفور . أ، ايفانز، ترجمة وتحقيق د/سامى أبو النور، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٩٣.

(٥٠) كتشنر، سير (هوارشيو) هربرت، فيرست إيرل ـ ٢٤ يوليو ١٨٥٠ ـ ٥ يونيو ١٩١٦م ضابط بريطانى، فقد كان قائداً عاماً للجيش المصرى فى بداية عهد عباس حلمى، ونظم وقاد الحملة لاسترداد السودان من خلفاء المهدى، وتصدى للفرنسيين عند فاشودة، ومدير إستعمارى، ووكيل وقنصل عام فى القاهرة من ١٩١٤ ـ ١٩١١.

ـ آرثر جولد شميث: مرجع سابق ص ٥٧٧.

طلعت إسماعيل رمضان: الإدارة المصرية فى فترة السيطرة البريطانية ١٨٨٢ ـ ١٩٢٢م دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣.

(٥١) فى ٢٢ فبراير ١٩٥٥، وصل بغداد وفد تركى، برئاسة عدنان مندريس، رئيس الوزراء، وفؤاد كوبرللو، وزير خارجية تركيا، واجتمع إلى الوفد العراقى المفوض، وإتفقا على ميثاق الدفاع

المشترك، وأعلن أن نصه، سينشر فى بغداد وانقرة، فى ٢٦ منه. وفى اليوم الموعود، وعلى أثر فوز الميثاق بموافقة ١١٢ نائبًا عراقيًا عليه، ومعارضة ٤ نواب فقط؛ وموافقة ٢٥ عينًا من مجلس الأعيان، ومعارضة عين واحد، وبعد إجماع مجلس الأعيان التركى عليه، ونيل الميثاق موافقة ٤٤٩ مندوبًا، هم الذين حضروا جلسة المجلس - أعلن الميثاق التعاون المتبادل، بيت تركيا والعراق؛ وغايته وصيانة سلامتهما والدفاع عن كيانيهما. وحددت مدته بخمس سنوات، قابلة للتجديد وفى ٣ ابريل عام ١٩٥٥. سرعان ما تجاوز الميثاق ثنائيته، ليصبح فى ٤ أبريل ١٩٥٥، ثلاثيًا، حين وقُع إنضمام بريطانيا إليه، فى بغداد كل من رئيس الوزراء العراقى، نورى السعيد، ووزير الدولة للشئون الخارجية، برهان الدين باشا أعيانًا؛ عن الحكومة العراقية، ومايكل رايت، سفير بريطانيا لدى بغداد؛ والككولونيل هيوتر ترفتن، وكيل وزارة الخارجية، عن الحكومة البريطانية، وعلى أثر ذلك، أصبح الميثاق يعرف باسم «حلف بغداد» وتلت باكستان بريطانيا، فى ٢٣ سبتمبر ١٩٥٥، حين قدم شعيب قريشى الوزير الباكستانى المفوض لدى العراق، وثيقة انضمام بلاده إلى الحلف، الذى أضحى رباعيًا؛ ما يخوّله، وفقًا لأحكام المادة السادسة من الميثاق، إنشاء مجلس دائم. وأمس الحلف فى ٣ نوفمبر ١٩٥٥، خماسيًا بعد انضمام إيران إليه، أما الولايات المتحدة الأمريكية، فقد اكتفت بدور المراقب، فى إجراءات إجتماع مجلس حلف بغداد، وفى لجنته الدائمة، السياسية والعسكرية، وانضمت عام ١٩٥٧، إلى اللجنة العسكرية وسواها، كلجنة مقاومة المبادئ الهدامة، ولجنة الاتصال.

- عبد السلام أبو السعود: حلف بغداد، دار القاهرة، القاهرة. ١٩٥٧م.

(٥٢) الصهيونية هى حركة سياسية تدعى انها يهودية إلا أنها لا تلتزم بأى شرع أو تعالى إذ إنها علمانية أساسًا. كان هدفها الرئيسى إقامة دولة يهودية فى فلسطين، وذلك بتشجيع هجرة اليهود فى أنحاء العالم كافة إلى فلسطين وإقامة تجمعات يهودية جديدة فى هذه البلاد. وفى مايو ١٩٤٨ حققت الصهيونية هذا الهدف، بتأسيس دولة إسرائيل واعتراف معظم دول العالم بها. أما بعد تأسيس دولة إسرائيل فتستهدف الحركة الصهيونية إلى تعزيز العلاقات بين المجتمعات اليهودية فى أنحاء العالم ودولة إسرائيل وتشجيع يهود من بلدان مختلفة لزيارة إسرائيل والهجرة إليها.

- لمزيد من المعلومات راجع العمل الموسوعى: د. عبد الوهاب المسيرى: الموسوعة الصهيونية، دار الشروق، القاهرة.

- رجاء جارودى: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة ونشر دار الغد العربى، القاهرة د. ت.

(٥٣) حلفا القديمة أو حلفا وادى حلفا كلها مسميات لمدينة سودانية تاريخية على الحدود المصرية، تنتسب إليها قبيلة (الحلفاويين) أحد فروع النوبيين الكبيرة، غمرت بمياه النيل لبناء السد العالى فى نوفمبر ١٩٦٤، وهُجر أهلها قسرًا إلى منطقة جديدة فى شرق السودان سميت حلفا الجديدة.

(٥٤) التطهير السياسى: هو إجراء يتخذه نظام سياسى جديد ضد أركان النظام السابق، أو ضد فئات معينة يعتبرها معادية، وتجريدهم من كل سلطة أو نفوذ سياسى أو أى إمكانيات أخرى من شأنها أن تهدد النظام السياسى الجديد والذى جاء نتيجة انقلاب أو ثورة أو تغيير، الأمر الذى يستهدف عزل العناصر التى يستهدفها التطهير عن التأثير والفعل المعنوى، اضافة إلى حرمانهم

من الإمكانيات المادية، وإبعادهم عن مراكز النفوذ داخل النظام والمجتمع، وقد تتخذ حملات التطهير شكلا تصفويًا ماديًا أو معنويًا تبعًا لطبيعة النظام.

عبد الوهاب الكيالى: الموسوعة السياسية، ج١ ص ٧٦٢.

(٥٥) السواحلية: لغة سواحل أفريقيا الشرقية، وهى لغة كينيا وتنزانيا الرسمية وهى من لغات البانتو، لكن أثرت عليها العربية كثيرًا، كانت تكتب بالحروف العربية من قبل، لكن الآن تكتب بالحروف اللاتينية.

(٥٦) مجلس اللوردات هو أحد مجلس البرلمان البريطانى للمملكة المتحدة.

- مجلس اللوردات هو المجلس الأعلى عن مجلسين فى البرلمان، حيث أن المجلس السفلى يتمثل بمجلس العموم، الملكة هى المكون الثالث للبرلمان.

- مجلس اللوردات يحتوى على نوعين من الأعضاء: اللوردات الروحيون (الممثلين بأعلى أساقفة كنيسة إنجلترا) واللوردات الدنيويون (الممثلين بالنبلاء)؛ أعضاءه لا يتم انتخابهم من قبل عامة الشعب ولكن يتم تعينهم من قبل حكومة قديمة وحديثة.

أما المجلس العموم، فهو منتخب ديموقراطيًا مع انتخابات تقام كل خمس سنوات على الأقل.

- المجلسين يجتمعون فى غرف مفصولة فى قصر وستمنستر (معروف بصورة أكثر بإسم بيوت البرلمان) فى مدينة وستمنستر فى لندن.

أن أهمية مجلس اللوردات فى الوقت الحاضر دون أهمية مجلس العموم بكثير فليس له أى سلطان أو أثر على تشكل الحكومة، وليس من حقه أن يحول دون إصدار مشروعات القوانين المالية - أى القوانين المتعلقة بالإيرادات أو المصروفات - وسلطته على مشروعات القوانين محدودة فإذا أجاز مجلس العموم قانونًا ورفضه مجلس اللوردات فإنه يصدر بناء على تصديق ملكى بعد مهلة مدتها عام. ar. wikpedia.org

(٥٧) ظهرت إذاعة صوت العرب بعد حركة يوليو بعام أى فى سنة ١٩٥٣م وكان الغرض منها حث الشعوب العربية على الوقوف فى وجه الإستعمار للقضاء عليه.

كما بدأ فى نفس العام بث الإذاعات الموجهة إلى الدول الإفريقية والآسيوية متمثلا فى دور مصر الريادى مع شعوب المنطقة الصديقة. انشراح الشال: صوت العرب بين الأمس واليوم، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٩.

(٣) أول اتصال بين الثورة وقضية السودان

الصدفة المحضة التى ربطتنى بالقضية .

مليون من الأميال المربعة فى قلب القارة الأفريقية.. وفى مساحة القارة الهندية ويقطنها ثمانية ملايين من البشر.. وفى رواية أخرى عشرة ملايين.. وفى رواية ثالثة خمسة عشر مليونًا.. لا أنا أدرى ولا أحد يدرى على وجه التحديد حتى يتم أول تعداد فى تاريخ هذه الملايين من البشر..

بعضهم يقطن السهول والوديان.. التى تضارع أخصب بقاع المعمورة.. وبعضهم يلذ له العيش على سفوح سلاسل شاسعة من الجبال وآخرون يهيمون على وجوههم بإبلهم وأغنامهم بحثا وراء الكلأ والعشب والماء فى صحارى شاسعة قاسية.. وجزء ليس باليسير من هذه الملايين يستظلون بأشجار غابات كثيفة تتخللها مستنقعات واسعة، حياتهم على صيد هذه الغابات من طير وحيوان بين أليف وديع ومفترس لا يرحم..!

السكان

بعض هذه الملايين عربى يدين بالإسلام ويتعصب له ويتكلم العربية الخاصة مثلى ومثلك تمامًا وبعضهم. وإن كان من أصل عربى أيضًا ويدين كذلك بالإسلام . إلا أنهم لا ينطقون بحرف عربى واحد..! وفريق آخر من هذه الملايين من أصل زنجى(٥٨) وهم سكان القارة الأفريقية الأصليون يتكلمون أشكالاً وألوانًا من اللهجات المحلية المختلفة التى لا تمت بأى صلة لأية لغة معروفة فى العالم وإن أردت أن تتفاهم معهم ولم تتح لك الفرصة لتتعلم لغاتهم ولهجاتهم فيمكنك أن تستعمل الإنجليزية مع البعض.. ويمكنك أن تقلب أصول اللغة العربية وتشوه ألفاظها وكلماتها "وتشخبطها" وتشقلبها مرات ومرات.. وبهذا ربما أمكن لفريق

منهم أن يفهمك.. وكن مستعداً لأن تسمع منهم هذه اللغة الغريبة التى تسمى بالعربية الإستوائية..!

اللغة والدين

هؤلاء الجنوبيون بعضهم مسيحى ولكنهم غالبًا لا يتقيدون بكل تعاليم الدين المسيحى فيتزوجون مثلا مثنى وثلاث وعشار طالما امتلكوا العدد الكافى من الأبقار التى تقدم عادة كمهر للعروس..!

وبعض هؤلاء مسلمون وإن كانت الأغلبية الساحقة من الأصول الزنجية عمومًا وثنية تمامًا تعيش على قنطرة وسط الأحراش والغابات والمستنقعات..!

هذه الملايين الثمانية أو العشرة أو الخمسة عشر لا أدرى والتى تقطن المليون ميل مربع بعضها يعيش العيشة الأفرنجية ويرتدى البدلة ويقود السيارة ويقطن أحدث المساكن وأجملها وبعضهم لا يغير زى البادية التقليدى وهو ثوب أبيض يلف به جسده وثوب آخر يلف به رأسه ولكل قبيلة طريقتها الخاصة فى إرتداء الثوب على الجسد وعلى الرأس.. وبعض هذه الملايين وهم من الزنوج يسترون عوراتهم بورق الأشجار كما كان يفعل أبونا آدم وتفعل أمنا حواء وإن كان الكثيرون منهم لا يفضلون مثل تلك الأزياء ولا أى زى آخر على الإطلاق !!

هذا هو السودان.. الذى مر بعهود طويلة قاسية سوداء وعانى الكثير من بشاعة الإستغلال والإستعباد والإستعمار الأجنبى والذى ينتظره عما قريب بعون الله مستقبل زاهر باسم وثروة طائلة تكمن فى كل بقعة من بقاعه لم يمسها بشر حتى الآن..!

هذا هو السودان الذى شاء القدر أن أرتبط به وبأهله وبتاريخه الحديث إرتباطًا قويًا وثيقًا وسأظل أعتز به ويعتز به أولادى وذريتى من بعدى ..!

أخطاء القدر

نعم.. القدر وحده دون أى مقدمات هو الذى ربطنى بقضية هذا القطر الشقيق الذى يكمل مع وطنك وادى النيل العظيم.. لم أحلم يومًا بالعمل فى هذه

القضية ولم يكن لى أى دراية أو خبرة سابقة بمثل هذا العمل الذى واجهنى بعد قيام ثورتك المجيدة بل لم أقرأ فى حياتى وقبل ٢٣ يوليو عن هذا السودان سوى النزر اليسير.. لم أقرأ سوى كتابين أحدهما استخفنى عنوانه عن الصيد والمغامرات فى غابات جنوبه لعطا أثناسيوس أحد المؤرخين المصريين، والآخر لتشرشل(٥٩) بعنوان حرب النهر.. لم يكلفنى - كما قد يتبادر لذهنك - مجلس قيادة الثورة قبل ٢٣ يوليو بدراسة هذا الموضوع وتتبع قضاياه لسبب بسيط وهو أن أمر هذه القضية لم نتعرض له قط فى اجتماعاتنا ومناقشاتنا التى سبقت الثورة (٦٠) وكان همنا الأكبر أن نتمكن من إزالة الصخرة الرهيبة التى جثمت فوق صدر القاهرة وحرمت أمتنا كل مقدساتها زمنًا طويلاً.

والدى

لم يكن لى صديق سودانى واحد يحدثنى وأتحدث معه عن شئون بلاده وأهله من أشقائنا السودانيين الذين أبعدهم عنا طويلاً وطويلاً جدًا المحتل الذى استعمر بلادهم وبلادنا وأقام بيننا سدًا منيعًا حتى كاد معظم أبناء جيلنا هذا لا يدرون شيئًا عن أمور أشقائهم الذين يعيشون فى الطرف الآخر من هذا السد(٦١)..!

لم أكن أسمع شيئًا عن السودان إلا من والدى الذى أمضى زهرة شبابه وحياته فى ربوع هذا القطر ولازال حتى الآن يرتبط بحكومة الخرطوم عن طريق معاشه الذى يتقاضاه منها فى أول كل شهر.. وكذلك من والد زوجتى - رحمه الله - وقد عمل طويلاً كضابط فى الجيش فى السودان وحضر الكثير من الغزوات فى أرجائه . كان رحمه الله لا يختلى بى فى جلسة إلا ويبدأ حديثه بـ "لما كنت فى السودان" عملت كذا وكذا ورأيت كذا وكذا حتى أنى حفظت أسماء الكثير من المدن فى السودان عن طريق هذه القصص.. تلك الأسماء التى حفظناها قبيل إمتحانات الجغرافيا فى صغرنا وكنا نتهيأ لنسيانها مع بقية أسماء مدن وعواصم العالم عقب ظهور نتيجة الإمتحان مباشرة .

نعم.. لقد كانت الصدفة والصدفة المحضة وحدها هى التى حملتنى عبء هذه المعركة التى دارت رحاها فى السودان وحول مستقبل السودانيين بعد قيام

الثورة .. وكان من الجائز جداً لولا هذه الصدفة أن يوكل أمر هذه القضية إلى حسين الشافعى[٦٢] أو أنور السادات أو أى زميل آخر من أعضاء مجلس قيادة الثورة بدلاً منى لأننا كلنا كنا نتساوى فى معلوماتنا عن السودان وعن قضية وظروف السودان وأهل السودان..!

سأعود بك قليلا إلى الوراء لأشرح لك هذه الظروف قبل أن أدخل فى صلب موضوع القضية وشرح خباياها وتفصيلاتها ودقائقها ...

مسئوليتى عقب الثورة

وصلت إلى القاهرة بإحدى طائرات سلاح الطيران (الملكى) فى ذلك الوقت من العريش يوم ٢٦ يوليو سنة ٥٢ ظهراً قبيل خروج فاروق بساعات قليلة من قصره فى رأس التين بالإسكندرية إلى خارج مصر بغير رجعة. وكنت فى الأيام الأولى للثورة مسئولا أمام مجلس قيادة الثورة عن قوات الجيش فى فلسطين وسيناء وشرق القنال ولما استقرت الأوضاع للنظام الجديد أستدعيت إلى القاهرة لأجد عبد الحكيم عامر[٦٣] وكمال حسين[٦٤] فى مبنى القيادة العامة فى كوبرى القبة وقد إستقر رأى المجلس على أن يوزع الإشراف على قوات الجيش بين ثلاثتنا .

جلسنا نحن الثلاثة وأمامنا كشف بكل تشكيلات الجيش ووحداته وقسمناها بيننا وكان من ضمن القوات التى وكل لى الإشراف عليها وحدة الجيش فى السودان.. لماذا لا أدرى ولا أحد من ثلاثتنا كان يدرى ولكنها مجرد الصدفة .. كان من الممكن أن تكون من اختصاص عبد الحكيم أو كمال..!

قرار بعزل فاروق

بعد يوم أو يومين دق جرس التليفون فى مكتبى وكان المتكلم البكباشى[٦٥] فى ذلك الوقت عبد الفتاح حسن وكان يشغل وظيفة الياور[٦٦] المصرى للحاكم العام فى الخرطوم وكنا قد وكلنا اليه أمر قيادة القوات المصرية هناك بعد أن أعددنا تنظيم القيادات المختلفة فى الجيش أخبرنى يومها عبد الفتاح حسن بأن

بعض الجنود السودانيين المسرحين والمرسلين من القاهرة قد قاموا بمظاهرة تهتف ضد مصر لأنهم سرحوا دون أن يحصلوا على مكافآتهم وأخبرنى أن مثل هذه الأمور تضر بسمعة مصر لحد بعيد. وكانت القوانين لا تعطيهم حق الحصول على المكافأة كما يطالبون بها لأنهم لم يمضوا فى الخدمة العسكرية سوى أيام قلائل وكانوا قد جندوا للعمل فى البوليس فى مصر عقب حوادث حريق ٢٦ يناير سنة٥٢(٦٧) لتعزيز فرق الهجانة وجاءت بعد ذلك وزارة حسين سرى(٦٨) فألغت المشروع ورحلت الجنود إلى بلادهم بعد أن منحتهم جزءًا من مكافآتهم.. كان لا بد من إستصدار قرار من مجلس الوزراء ليسمح بصرف المكافآت كاملة لهم دون أن يقضوا المدة كاملة فى خدمة القوات المسلحة ..

فكرت قليلا وتذكرت أننا لم نستصدر قرارًا من مجلس الوزراء بطرد فاروق عن العرش وتنصيب أحمد فؤاد الثانى ابن ناريمان مليكًا على البلاد. فطلبت من عبد الفتاح أن يأمر بصرف المكافآت كاملة لهم من أى خزانة حكومية فى الخرطوم لإنهاء القضية وفعلا انتهى الإشكال .

وبعد يومين تكلم عبد الفتاح حسن مرة أخرى عن إشكال آخر لعمال الرى فى تفتيش رى جبل الأولياء(٦٩) وتفاهمت معه على الحل ..

الخرطوم على التليفون

وهكذا أصبح لا يمر يوم أو يومان دون أن أسمع عن إشكال فى إحدى مصالح الحكومة المصرية فى الخرطوم وأعطى رأيًا عاجلا فى حلها.. وكان من الطبيعى فى هذه الظروف أن يلجأ رؤساء المصالح فى الخرطوم إلى قائد الجيش هناك لحل ما يواجههم من مشاكل تحتاج إلى حسم خارج عن حدود سلطاتهم لأنهم لا يعرفون شخصا واحدًا فى القيادة ولا يعرفون كيف يتصلون بهؤلاء الأشباح الذين سمعوا بهم ولكن لم يروا وجها من وجوههم بعد وقائد الجيش هو الشخص الوحيد الذى يعرف ما هى القيادة ومن هم أعضاؤها واحدًا واحدًا!!

ومن يومها إذا دق أى تليفون من تليفونات القيادة العامة فى كوبرى القبة وكان المتكلم من الخرطوم فهم يحولون الخط فورًا إلى مكتبى دون أى تردد حتى ولو من العسكرى التليفونجى!!

أصبحت أخصائيًا فى قفل الأبواب التى تفتح علينا فجأة من الخرطوم فى نظر إخوانى وزملائى القاطنين فى مبنى القيادة العامة .

صدفة

وفى الأسبوع الأول من أغسطس عام ٥٢ أى بعد قيام الثورة بحوالى أسبوعين وفد إلى دار القيادة العامة فيمن كانوا يفدون صباح مساء أحد إخواننا من السياسيين السودانيين وهو "خضر عمر" وكان سكرتيرا عاما لحزب الأشقاء[٧٠]، جناح "نور الدين" [٧١].

جاء خضر عمر ليقابل المسئولين فى القيادة ويتعرف عليهم، ولم يكن بمقر القيادة فى ذلك الوقت سوى جمال عبد الناصر وأنا . لم يكن لى أى دخل من قريب أو بعيد حتى هذا الوقت بأى اتصال سياسى وكان عملى قاصرًا على شئون الجيش فقط مع عبد الحكيم وكمال حسين .

طلب خضر عمر مقابلة جمال عبد الناصر وكان جمال مشغولاً فى ذلك الوقت بمقابلة وفد من الوفود فطلبنى ورجانى أن أجتمع بالزائر السودانى.. وكنت حتى هذا الوقت خالى الذهن تمامًا عن دقائق الموقف فى السودان.. أظهرت لجمال عبد الناصر دهشتى لعدم إختصاصى بأى اتصال سياسى وعدم تتبعى وتفرغى لها وخاصة وأنى كنت منهكا وقتها فى إجتماعات لا نهاية لها فى الجيش عقب التطورات التى حدثت بعد قيام الثورة مباشرة ..

فكر جمال عبد الناصر قليلا وقال لى ضاحكًا : "يا أخى أقعد معاه شوية وعلى فكرة ـ وكأنه شيئًا هامًا وحلاً سعيدًا لهذه المشكلة . إنت مش عارف إن ده يدخل فى إختصاصك إنت مش مسئول عن الجيش فى السودان ؟ وده كمان من السودان ؟ "الحكاية كلها نكتة أطلقها جمال بقصد..... ولم يكن أحد منا وقتها .... الغيب ليجعل من هذه .... كاملة بعد وقت قصير[٧٢]!!

الدرس الأول

قابلت خضر عمر وأخذ يحدثنى حديثًا طويلاً شيقًا عن السودان، لم أسمع به قط من قبل وكان ذلك بمثابة الدرس الأول الذى تلقيته من هذه القضية. كان

يتكلم عن الكفاح ضد الإنجليز فى السودان وكنت مستعداً لأن أكافح الإنجليز فى أى مكان فى الوجود بعد ما حدث بيننا وبينهم فى القتال وإستمرار التحرش يوميا بيننا وبينهم وكانت قواتنا لا يفصلها عنهم سوى مياه قنال السويس وإفترقنا . خضر عمر وأنا . بعد أن تواعدنا على لقاء آخر بعد يومين..!

وإستمرت الإتصالات بينى وبين خضر وتوفيق البكرى وعلى البربر وعشرات السودانيين الذين عرفوا بعد ذلك طريق القيادة... وطريق مكتبى وفهمت منهم قصة دستور الحكم الذاتى .

توزيع الإشراف

كنا جميعًا أعضاء المجلس نبيت معظم الليالى فى مبنى القيادة وحينما كنا ننام على الأرض مستعينين بوسادات الكراسى نقص محصول يومنا على بعض، مقابلاتنا، وزوارنا، وأحاديثنا وكنت كثيرًا ما أحدثهم عن المعلومات التى أحصل عليها من الزوار السودانيين الذين عرفوا طريق مكتبى.

وجاء حسين ذو الفقار[٧٣] من الخرطوم وكان ضابطًا فى قيادة القوات المصرية فى الخرطوم وعاش هناك أكثر من ثلاث سنوات.. جاء حسين ليكمل لى الصورة وليوضح لى الكثير من دقائق الموقف السياسى فى السودان بعد أن أمطرنى بوابل من التقارير منذ أن عرف أنى المختص بشئونهم فى الجيش..!

وفى حوالى منتصف أغسطس أثيرت موضوعات عاجلة تخص السودان سأتكلم عنها بالتفصيل فيما بعد. أثيرت أمام مجلس قيادة الثورة وكان يسمى فى ذلك الوقت "بالقيادة" ولا شك أنكم تذكرون أن مليون شخص على الأقل فى ذلك الوقت كانوا دائما يلقبون أنفسهم بمندوبى القيادة.. ألم تقابل واحدا منهم ؟! أقول: أن القيادة إجتمعت فى ذلك الوقت لتبحث أمر الموضوع العاجل ووكلت إلى أمر تولى هذه القضية وتم فى هذه الجلسة توزيع ضباط القيادة على الوزارات فوكل إلى كمال حسين أمر المعارف والبغدادى[٧٤] شئون التموين وجمال سالم أمر المالية والداخلية وحسن إبراهيم[٧٥] الخارجية وعبد الحكيم شئون رياسة مجلس الوزراء وهكذا..

ومن يومها بدأت أقابل العشرات طوال النهار من ذوى الوجوه السمراء لأتلقى دروسى عن السودان وعندما آوى إلى فراشى بعد منتصف الليل أبدأ فى قراءة الدوسيهات والمذكرات والتقارير وكلما امتلأت شنطة بهذه التقارير أغلقتها وأرسلتها إلى منزلى لأحضر شنطة أخرى لا تلبث أن تمتلئ بعد أيام وهكذا ..

كانت هذه الحقائب أرشيفى وسكرتاريتى ...... وقضيتى وكل شئ.. فلم يكن أى جهاز فى الدولة يتولى الإشراف على هذه القضية ويتابع تفاصيلها!

كان رؤساء الوزارات على التعاقب يتولون الإشراف على هذه القضية ويقومون بإتصالاتهم التى تسجل فى الأوراق التى يأخذونها معهم عقب إستقالتهم أو إقالتهم دون أن يتركوا حرفًا واحدًا مما توصلوا اليه فى اتصالاتهم ومباحثاتهم وكان يحدث هذا إما خوفا من أن يحاسبوا على أخطائهم أو ضنا بجهودهم من أن يستفيد بها من يخلفونهم .!!

وهكذا شاءت إرادة الله وتحكم القدر أو تكييف الحوادث التى انتهت بتقلدى شئون السودان وحملى لقضية السودان .

صدفة من القدر..

ونكتة من عبد الناصر

وما ندمت فى يوم من الأيام على حملى لهذه التبعة رغم ما واجهت من محن وصعاب وسأظل أعتز دائمًا بأنى رأيت بعينى كيف أخرج الإنجليز من السودان دون أى قيد أو شرط ذلك الحدث الذى كان يبدو حلمًا من الأحلام لأشد الناس تفاؤلا حتى وقت ليس ببعيد!

ما قابلت سودانيًا واحدًا كبيرًا كان أو صغيرًا إلا ولمست منه يأسه من خروج الإنجليز كما نحب ونشتهى فجلاؤهم من الخرطوم أبعد مثالاً من خروجهم من القنال يحتم عليهم التشبث بالبقاء فى السودان ليكونوا على مقربة من مصالحهم فى الشرق الأوسط ..!

وكان أسلوب الإنجليز دائمًا وتكتيكهم فى كل المفاوضات السابقة هو ترك قضية السودان جانبًا وتعليقها إلى أن تحل قضية القنال ولكنهم خرجوا من السودان دون أى قيد أو شرط . بعسكرييهم ومدنييهم - رأيتهم يخرجون من السودان أولا ثم خرجوا بعد قليل من القنال(٧٦) .

"وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"

صدق الله العظيم.

وإلى الغد.

الهوامش

(٥٨) تشتمل القارة الأفريقية على عدة أجناس وأنواع هم :-

- الجنس الزنجى الكبير ويشكل ٥٤٪ من سكان القارة الأفريقية وينتشرون فى السودان والمناطق الوسطى والجزء الأكبر من جنوب القارة ويمكن أن نميز الجنس الزنجى عدة أنماط :-

أ - النيليون والسودانيون ويتميزون بالجلد الداكن والقامة الطويلة واعتدال الرأس الطويل. (مستطيلو الرأس).

ب - الزنوج القصير والقامة أقل من ١٥٠ سم وعريضو المنكبين وأصحاب الشفاه الدقيقة وشعر الجسم الكثيف على الوجه والجسم وبشرة افتح نسبيًا يتمركزون فى حوض الكنغو.

ج - البوشمن والهنتوت فى صحارى وجنوب غرب أفريقيا ويتميزون بالبشرة الزنجية الأفتح المصفر والقامة القصيرة ١٥٠ - ١٦٠ سم والوجه المسطح وثنية جلد الجفن الأعلى التى تغير الجيوب الدمعية فى زوايا العينين الداخلية.

(٥٩) ونستون ليونارد سبنسر تشرشل (٣٠ نوفمبر ١٨٧٤ - ٢٤ يناير ١٩٦٥). كان رجل دولة انجليزى وجندى ومؤلف وخطيب مفوه. يعتبر أحد الزعماء فى التاريخ البريطانى والعالمى الحديث. شغل ونستون تشرشل منصب رئيس وزراء بريطانيا عام ١٩٤٠ واستمر فيه خلال الحرب العالمية الثانية وذلك بعد إستقالة تشامبرلين. إستطاع رفع معنويات شعبه أثناء الحرب حيث كانت خطاباته إلهامًا عظيمًا إلى قوات الحلفاء. كان أول من أشار بعلامة النصر بواسطة الاصبعين السبابة والوسطى. بعد الحرب خسر الانتخابات سنة ١٩٤٥ وأصبح زعيم المعارضة، ثم عاد إلى منصب رئيس الوزراء ثانية فى ١٩٥١ وأخيرًا تقاعد فى ١٩٥٥. حصل على جائزة نوبل فى الأدب لسنة ١٩٥٣ للعديد من مؤلفاته فى التأريخ الانجليزى والعالمى وفى استطلاع لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) سنة ٢٠٠٢ اختير كواحد من أعظم مائة شخصية بريطانية. توفى فى ٢٤ يناير عام ١٩٦٥ عن عمر ٩١ عامًا. ودفن فى مقبرة العائلة. قرب مكان ولادته فى مدينة ودستوك - مدير البعلبكى: معجم أعلام المورد، ص ١٤١.

(٦٠) كان السودان هو الصخرة التى تتحطم عليها المفاوضات المصرية البريطانية قبل ١٩٥٢م وكان الساسة المصريين يرتعدون خوفًا وجزعًا عندما يأتى الحديث عن الفصل بين الشمال والجنوب، ولكن قادة يوليو كما هو واضح لم يكونوا يفكرون فى هذا الموضوع لقلة خبرتهم، ولعدم وجود مشروع متكامل فى أذهانهم.

(٦١) هذا القول فيه مبالغة شديدة وتجنى على الواقع فالسودان وأهله كانوا دائمًا حاضرين على طاولة

المفاوضات، وفى الصحافة والمناقشات العامة فى مصر. وكان هناك دائمًا تأثير وتأثر متبادل بينهما.

(٦٢) حسين محمود حسن الشافعى (٨ فبراير ١٩١٨ ـ نوفمبر ٢٠٠٥)، عسكرى سياسى مصرى، وأحد أعضاء حركة الضباط الأحرار شغل الشافعى منصب وزير الخارجية فى ١٩٥٤، وانتقل بعدها بعام ليصبح وزيرًا للشئون الإجتماعية، كان له أثر كبير فى إدخال نظام التأمين الإجتماعى وإطلاق برامج «معونة الشتاء» و«قطار الرحمة» التى ساعدت الفقراء فى مصر. ثم عمل وزيرًا للتخطيط، حتى تولى فى ١٩٦١ وزارة شئون الأزهر. وفى هذه الأثناء شارك فى المفاوضات التى سبقت إعلان الوحدة بين مصر وسوريا فى فبراير ١٩٥٨. فى عام ١٩٦٢، إختاره عبد الناصر لمنصب نائب رئيس الجمهورية فى عام ١٩٦٧ تولى رئاسة محكمة الثورة، التى حاكمت الضباط الذين إنضموا إلى التمرد الذى قاده وزير الحربية المصرى المشير عبد الحكيم عامر بعد هزيمة حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ والذى إستمر قرابة الشهرين. ظل الشافعى نائبًا لرئيس الجمهورية، لكن عبد الناصر عين فى ١٩٦٩ أنور السادات نائبًا أول للرئيس. وعندما تولى أنور السادات رئاسة الجمهورية عام ١٩٧٠، ابقى على الشافعى نائبًا أول له حتى عام ١٩٧٤. توفى حسين الشافعى يوم الجمعة ١٨نوفمبر ٢٠٠٥ عن عمر يناهز ٨٧ عامًا.

ـ وزارة الإعلام المصرية: الموسوعة القومية جـ ١ ص ٣٢٢.

ـ مجلة الشباب، القاهرة، ١٤ مايو ١٩٩٥.

ـ شبكة الجزيرة الفضائية، شاهد على العصر، تاريخ الولوج ١٠ آيار ٢٠٠٩.

(٦٣) ولد سنة ١٩١٩ فى قرية أسطال، مركز سمالوط بمحافظة المنيا. تخرج من الكلية الحربية فى ١٩٣٩. شارك فى حرب ١٩٤٨ فى نفس وحدة جمال عبد الناصر. لعب عامر دورًا كبيرًا فى القيام بالثورة عام ١٩٥٢. وفى العام التالى ١٩٥٣، تم ترقيته من رتبة صاغ إلى رتبة لواء متخطيًا ثلاث رتب وأصبح رئيسًا للأركان. قاد القوات المصرية والمقاومة فى حرب العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦، بعد الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ أصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة المشتركة. فى عام ١٩٦٤ أصبح نائبًا أول لرئيس الجمهورية. يقال بانه أقدم على الإنتحار فى ١٤ سبتمبر ١٩٦٧ كما أعلن عن ذلك فى حينه بسبب تأثره بهزيمة حرب ١٩٦٧، ولكن جهات تقول أنه مات مسمومًا.

ـ مصطفى نجيب: موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين ص ٢٩٢.

ـ آرثر جولد سميث: قاموس تراجم مصر الحديثة ص ٤٣٠.

(٦٤) كمال الدين حسين هو أحد أعضاء الضباط الأحرار الذين قاموا بعمل ثورة ١٩٥٢م فى مصر. ولد فى مدينة بنها بمحافظة القليوبية عام ١٩٢١، حصل على بكالوريس العلوم العسكرية من الكلية الحربية عام ١٩٣٩م. أصبح عضوًا بمجلس قيادة الثورة، وعين وزيرًا للشئون الاجتماعية عام ١٩٥٤م ثم وزيرًا للتربية والتعليم، وساهم فى تأسيس نقابة المعلمين إختير نقيبًا للمعلمين عام ١٩٥٩، وعين وزيرًا للإدارة المحلية عام ١٩٦٠ ثم إختير نائبًا لرئيس الجمهورية للخدمات المحلية والإسكان والمرافق، حدث صدام بينه وبين مجلس قيادة الثورة وقدم إستقالته على أثر ذلك، وفى ١٤ أكتوبر ١٩٦٥م صدر قرار بتحديد إقامة كمال الدين حسين وزوجته فى إحدى الاستراحات بالهرم. توفى فى ٢٩ يونيو سنة ١٩٩٩م.

ـ مصطفى نجيب: موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين ص ٣٧٩.

ـ آرثر جولد شميث: قاموس تراجم مصر الحديثة ص ٢٢٢.

ـ أحمد حمروش: قصة ثورة يوليو جـ ص ١٤٥، ٣٤٣.

(٦٥) كلمة تركية مركبة من بين بالنون الخيشومية، ومعناها ألف، وباش: أى رأس ورئيس والياء علامة الاضافة والمعنى: رئيس الألف: رتبة عسكرية عثمانية إستعملت فى الجيوش العربية، إستبدلت بها الآن كلمة المقدم. د: أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨، ص ٤٤.

(٦٦) الياوران من الكلمة التركية ياور أى مرافق عسكرى، الياوران هى صيغة الجمع الفارسية للكلمة فهم الحاشية العسكرية الملكية.

د. عبد الوهاب بكر: البلاط الملكى ودوره فى الحياة السياسية المصرية من إسماعيل إلى فاروق، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٦٠.

(٦٧) حريق القاهرة هو حريق كبير إندلع فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ فى عدة منشآت فى مدينة القاهرة عاصمة مصر، فى خلال ساعات قلائل إلتهمت النار نحو ٧٠٠ محل وسينما وكازينو وفندق ومكتب وناد فى شوارع وميادين وسط المدينة، ففى الفترة ما بين الساعة الثانية عشر والنصف ظهراً والساعة الحادية عشر مساء التهمت النار نحو ٣٠٠ محل بينها أكبر وأشهر المحلات التجارية فى مصر مثل شيكوريل وعمر أفندى وصالون فيردى، و٣٠ مكتبًا لشركات كبرى، و ١١٧ مكتب أعمال وشققًا سكنية، و١٣ فندقًا كبيراً منها: شبرد ومتروبوليتان وفيكتوريا، و٤٠ دار سينما بينها ريفولى وراديو ومترو، وديانا وميامى، و٨ محلات ومعارض كبرى للسيارات، و١٠ متاجر للسلاح، و٧٣ مقهى ومطعمًا وصالة منها جروبى والأمريكين، و٩٢ حانة، و١٦ ناديًا. وقد أسفرت حوادث ذلك اليوم عن مقتل ٢٦ شخصًا، وبلغ عدد المصابين بالحروق والكسور ٥٥٢ شخصًا.

كما أدت إلى تشريد عدة آلاف من العاملين فى المنشآت التى احترقت، وقد أجمعت المصادر الرسمية وشهود العيان على أن الحادث كان مدبراً وأن المجموعات التى قامت بتنفيذه كانت على مستوى عال من التدريب والمهارة، فقد إتضح أنهم كانوا على معرفة جيدة بأسرع الوسائل لإشعال الحرائق، وإنهم كانوا على درجة عالية من الدقة والسرعة فى تنفيذ العمليات التى كلفوا بها، كما كانوا يحملون معهم أدوات لفتح الأبواب المغلقة ومواقد إستيلين لصهر الحواجز الصلبة على النوافذ والأبواب، وقد إستخدموا نحو ٣٠ سيارة لتنفيذ عملياتهم فى وقت قياسى، كما أن اختيار التوقيت يعد دليلاً آخر على مدى دقة التنظيم والتخطيط لتلك العمليات، فقد إختارت هذه العناصر بعد ظهر يوم السبت حيث تكون المكاتب والمحلات الكبرى مغلقة بمناسبة عطلة نهاية الأسبوع، وتكون دور السينما مغلقة بعد الحفلة الصباحية).

ـ مجدى نصيف: حريق القاهرة فى الوثائق السرية البريطانية: دار الهلال ـ القاهرة: ١٩١٦م.

ـ جمال الشرقاوى: أسرار حريق القاهرة فى الوثائق السرية البريطانية، دار شهدى للنشر ـ القاهرة ١٩٨٥: حريق القاهرة قرار إتهام جديد، دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ١٩٧٦م.

(٦٨) حسين سرى باشا (١٨٩٤ ـ ١٩٦٠) هو سياسى مصرى، خدم كرئيس وزراء مصر لمدة ثلاث فترات قصيرة. خدم أولاً كرئيس للوزراء من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٢ خلال تورط مصر فى الحرب العالمية الثانية وغزو الألمان لشمال أفريقيا. خدم بعدها سرى باشا كرئيس للوزراء من يوليو ١٩٤٩ حتى يناير ١٩٥٠، وآخر لفترة له كانت فى يوليو ١٩٥٢ خلال الأزمة السياسية قبل ثورة ١٩٥٢، واستمرت هذه الوزارة ٢٠ يومًا فقط تفجرت خلالها أزمة الجيش بحل مجلس إدارة نادى الضباط، حاول الملك فاروق إثناء سرى عن الإستقالة ولكنه صمم عليها، فقبلها الملك فاروق بلهجة جافة.

ـ د. يونان لبيب رزق: تاريخ الوزارت المصرية، مركز الأهرام، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٥٢٤؛ آرثر جولد سميث: قاموس تراجم مصر الحديثة ص ٣١٩.

(٦٩) خزان حجرى فى السودان ويقع على بعد ٤٤ كم من الخرطوم. إقيم هذا الخزان فى عام ١٩٣٧م ليسد حاجة مصر حينها من المياه فى فترة الجفاف من كل عام، يستفاد منه الآن فى رفع مناسيب المياه خلف وأمام الخزان لرى مشاريع النيل الأبيض الزراعية ومشاريع الطلمبات شمال الخزان ـ هذا بالاضافة إلى تنظيمه لفيضان النيل. بدأ تشيده فى نوفمبر ١٩٣٣م وأكتمل فى أبريل ١٩٣٧م يسع لتخزين ٣,٥٠ مليار متر مكعب من المياه. هذا وقد ظل هذا الخزان يتبع فنيًا واداريًا مصر حتى تم تسليمه لجمهورية السودان فى فبراير ١٩٧٧.

(٧٠) نشأت الجماعات الأربع (الاتحاديين، جماعة الأحرار، جماعة الأشقاء، وجماعة القوميين) فى أكتوبر ١٩٤٤م لم تنشأ كأحزاب ولم تسم نفسها كذلك كما يرد فى معظم كتب التاريخ المعاصر وإنما نشأت كجماعات فى إطار مؤتمر الخريجين، ولذلك لم تفتح عضويتها لكل السودانيين ولم تخاطب غير الخريجين، كما لم تطلب تصديقًا لتكوينها من الجهات الرسمية.

فيصل عبد الرحمن على طه: الحركة السياسية السودانية والصراع المصرى البريطانى ١٩٣٦ ـ ١٩٥٣م ـ دار الأمين ـ القاهرة ـ ١٩٩٨م. ص ٤٥.

(٧١) كان نور الدين وزيرًا للأشغال فى وزارة الأزهرى، ونائبًا عن دائرة حلفا، كان أكثر وزير تأييدًا لمصر وللأتحاد معها، عندما إنقسم الحزب الوطنى الإتحادى حول الإتحاد مع مصر، قاد نور الجناح المؤيد لمصر.

(٧٢) سطر غير مقروء.

(٧٣) حسين صبرى ذوالفقار ـ ولد ١٩١٧م: ابريل ١٩٩٤م ـ طيار وقائد سرب حسين ذو الفقار صبرى، وهو آخر قائد للجيش المصرى قائد للجيش المصرى فى السودان وعضو لجنة الحاكم العام وأحد صناع أتفاقية السودان عام ١٩٥٢، وشقيق على صبرى ذو الفقار أحد صانعى القرار فى ثورة ١٩٥٢. عاش فى أمريكا لفترة.

لحسين صبرى ذو الفقار كتاب رائع اسمه: ثورة يوليو واتفاقية السودان.

راجع: حسين ذوالفقار صبرى: الأعمال الكاملة لضباط مفكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠.

(٧٤) عبد اللطيف البغدادى (١٩١٧ ـ ١٩٩٩) هو سياسى مصرى ووزير سابق من مواليد ٢٠ سبتمبر ١٩١٧ بالمنصورة، مصر لأسرة ثرية بقرية شاوة التابعة لمركز ومدينة المنصورة. وكان والده عمدة هذه القرية انضم لتنظيم الضباط الأحرار عام ١٩٥٠. عقب ثورة ٢٣ يوليو عين مراقبًا لهيئة التحرير. فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ عين وزيرًا للحربية فى عهد الرئيس محمد نجيب فى ١٦ سبتمبر ١٩٥٣ عُين رئيسًا لأول محكمة لثورة فى ١٧ ابريل ١٩٥٤ عُين وزيرًا للشئون البلدية والقروية ورئيس لمجلس الخدمات العامة فى وزارة الرئيس جمال عبد الناصر فى ٢٩ يونيو ١٩٥٦ عُين وزيرًا للشئون البلدية والقروية ووزيرًا لإعادة تعمير بورسعيد بعد العدوان الثلاثى فى ٢٢ يوليو ١٩٥٧ انتخب أول رئيسًا لأول مجلس نيابى بعد قيام الحركة ظل بمجلس الرئاسة الذى شكل فى نوفمبر ١٩٦٢ فى مارس ١٩٦٤ قدم إستقالته وإعتزل الحياة السياسية وتوفى فى ١٥ يناير ١٩٩٩.

ـ مذكرات عبد اللطيف البغدادى، المكتب المصرى الحديث، القاهرة. ١٩٧٧.

ـ مصطفى نجيب: موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين ص ٢٧٩.

ـ آرثر جولد شميت: قاموس تراجم مصر الحديثة ص ١٢٢.

(٧٥) حسن ابراهيم من مواليد الإسكندرية وتخرج من الكلية الحربية عام ١٩٢٩ ومن كلية الطيران عام ١٩٤٠. شارك فى حرب فلسطين، وهو من الضباط الأحرار وأحد أعضاء مجلس قيادة الثورة فيما بعد. وكان أحد أعضاء محكمة الثورة عام ١٩٥٤. تولى وزارة شئون الإنتاج عام ١٩٥٥. تولى منصب نائب رئيس الجمهورية عام ١٩٦٤ واعتزل العمل السياسى عام ١٩٦٦م.

(٧٦) راجع الدراسة لنتعرف على موقف قادة يوليو من قضية السودان بعيد عن إدعاء البطولة الزائفة.

(٤) إنضممت إلى الضباط الأحرار على الرصيف ..
وتحت وابل من طلقات المدافع .
السودان.. بين الفالوجا [٧٧] وسنكات[٧٨]

حدثتك بالأمس عن الظروف والصدف المحضة التى أدت إلى أن أتولى شئون السودان وأمر قضية السودان.. ومن يومها ومكتبى أو بيتى لا يخلو لحظة واحدة من زائر سودانى أو وفد سودانى لشرح قضيتهم بل قضاياهم. كانت المعلومات التى تتجمع لدى فى اليوم الواحد عن قصص خلافاتهم وطوائفهم وأحزابهم ومشاكلهم وقصص إحتلالهم وأساليب الإنجليز معهم. كانت هذه المعلومات تكفى لكتابة عدة كتب ضخمة يوميًا عن السودان وعن تاريخ السودان.. وتاريخ الإستعمار فى السودان..!

وكان الشئ الوحيد الذى يزعجنى هو تشابه وجوههم وأسمائهم.! فآه لو أخطأت وتحدثت مع خضر عمر مثلا على أنه خضر حمد أو الدرديرى نجم على أنه الدرديرى إسماعيل أو الدرديرى عثمان.. لو حدث خطأ من هذا القبيل لحدثت أزمات يتحدث بها الركبان وكنت فى بادئ الأمر أحتفظ بنوتة فى جيبى أكتب فيها الأسماء فإذا ما حضر زائر أخرجت النوتة وتظاهرت بكتابة شئ فيها لأطلع على الإسم ومن أى فريق ينتمى قبل أن أجازف بالدخول فى أى مناقشة معه ..!

حضر يوما إلى مكتبى ضابط سودانى فى الجيش المصرى وألح فى مقابلتى.. وما أن رأيته إلا وتذكرت شيئًا مهمًا مر بحياتى.. وتاريخًا لا يمكن أن يمحى من مخيلتى ١٦ نوفمبر ١٩٤٨ وكيف أنسى هذا اليوم الذى نجوت فيه بحياتى من

موت محقق . . وترقيت رتبة إستثنائية فى الميدان من رتبة اليوزباشى[٧٩] الى رتبة الصاغ[٨٠] وإنضممت فى اليوم التالى لهذا التاريخ إلى صفوف الضباط الأحرار..!

كان يمكن أن يأتى سرد هذه القصة لو كانت مذكراتى عن فلسطين وحرب فلسطين ولكنى أردت أن أنوه بهذا الحادث لإرتباطه الوثيق ببعض السودانيين وأنا هنا فى معرض كلامى عن السودان وعن السودانيين..!

ضابط سودانى

دخل الضابط السودانى وحيّانى ثم احتضننى وغمرنى بوابل من القبلات الحارة:

- إزيك يا عبد الرحيم؟ كيف الأحوال ؟ شديد ؟ كيفك ؟

- شديد قوى.. بالله يا ولد الريف إنت بتتكلم لغة بلدنا كمان..

وكان الضابط يضع على كتفه شارة "الفالوجا" علامة إشتراكه مع القوات التى حوصرت فى الفالوجا خلال حرب فلسطين وكان ينظر إلى طويلاً ولسان حاله يقول "ألم أنقذ أنا ورجالى حياتك من موت محقق ونجوت على يدنا لتحصل على ترقية إستثنائية فى الميدان"؟

فهمت ما كان يجول فى خاطره وقلت له على الفور أنى سأحاول أن أرد لك ولهم الجميل وسأضع حياتى وجهدى وأعصابى فى خدمتكم !

فرد على مسرعًا بأنه لا يطلب شيئا على الإطلاق ولم يحضر فى خدمة خاصة أو رجاء، إنما جاء فقط لتهنئتى والإطمئنان على وكان يريد أن يسلم ويهنئ جمال عبد الناصر زميله كذلك فى السلاح والكفاح وفى الحصار..!

وأفهمته أنى قصدت برد الجميل أن أرد هذا الجميل الذى طوقونى به إلى وطنه.. إلى السودان الذى كنت وما زلت الآن أعتبره وطنا أصيلا لى.. تركنى.. وسرحت قليلاً أفكر فى غرابة القدر.. لو كانت تمثيلية محبوكة الأطراف ألفها وأخرجها أعظم فنان لما جاءت بمثل هذه الصورة الحقيقية التى مرت بى.. أقع

فى أعظم محنة مرت بحياتى كجندى ولا ينقذنى منها غير أياد سودانية ورجال من السودان وبعد أقل من أربع سنوات يصبح إسم السودان وألوف عديدة بل الملايين من أبنائه كل شئ فى حياتى وفى إحساسى وفى أعصابى ويصبح من العسير أن يرد إسم السودان فى تاريخه الحديث فى مقال أو كتاب دون أن يذكر إسمى بين سطوره وفى صفحاته ..!

١٤نوفمبر ٤٨

لم يخطر ببالى قط قبل زيارة هذا الضابط لى أن أربط بين الحوادث بمثل هذا الشكل. رصاص بالمئات ينطلق نحوى من عشرات الخنادق ـ ولا تصيبنى منه رصاصة واحدة رغم قصر المسافة بينى وبين البنادق والرشاشات التى أطلقت هذا السيل المنهمر.. ثم يقف الرصاص فجأة.. لماذا ؟ لا أدرى ولا الرابضون خلف الخنادق كانوا يدرون لماذا أوقفوا طلقاتهم.. ثم يحصل الأنقاذ وتحدث المعجزة..

وأعود بك للقصة من أولها..!

كان ذلك فى يوم ١٤ نوفمبر عام ٤٨ وكنت ضابط أركان حرب فى قيادة القوات المصرية فى فلسطين وفى رفح بالذات وكانت القوات المصرية تعانى محنة قاسية بعد أن تراجعت من خطوطها التى كانت لا تبعد أكثر من ثلاثين كيلو مترًا من تل أبيب. تراجعنا حتى قطاع غزة تاركين خلفنا لواء كاملاً فى منطقة الفالوجا وعراق المنشية (٨١) ليلاقى أقسى وأعنف مصير يواجه أى جيش فى الميدان.. وهو الحصار.. والإنقطاع الكامل عن قياداته وقواعده ومواصلاته وأهله ووطنه .

طلبنى اللواء أركان حرب أحمد فؤاد صادق القائد العام الجديد للقوات فى ذلك الوقت وطلب منى أن أحمل رسالة خاصة منه وبعض التعليمات الى قواتنا المحاصرة فى الفالوجا.

وبعد ساعتين كنت أجلس قريبًا من خطوطنا الأمامية فى غزة مع زكريا محيى الدين (٨٢) وإثنين من الأدلاء العرب ننتظر حلول المساء لنبدأ رحلتنا عبر أرض

العدو ومستعمراته لنصل الى الفالوجا المحاصرة.. وكان الأخ محمود رياض[٨٣] سفيرنا الحالى فى دمشق يشرف لنا على تحميل ثلاثة من البغال ببعض الذخائر الخفيفة والأدوات الطبية التى شحت وكادت تنفد من أيدى قواتنا المحاصرة.

أمضينا الليلة الأولى نجر البغال ونهبط الوديان والقنوات الجافة ونحتمى بأسوار التين الشوكى التى تكثر فى هذه المنطقة لنتفادى دوريات اليهود وعرباتهم وخطوطهم الدفاعية ومستعمراتهم ورصاصهم الذى لم ينقطع أبدًا..!

ورغم الحوادث العديدة التى قابلتنا فى هذه الليلة ونجونا منها وصلنا سالمين إلى بيت ناء صغير مهجور يبعد عن الفالوجا وعراق المنشية بحوالى العشرة كيلو مترات إنها قرية الفطاطة وكنا قد قطعنا فى الليلة الأولى حوالى الثلاثين كيلو مترا.

وما أن طلع النهار إلا وكنا جميعًا فى هذا المنزل نندس بلذة ومتعة لا تعادلها لذة أو متعة فى التبن الذى يملأ الغرفة بحثا وراء الدفأ..!

وما أن واصلنا سيرنا نجر بغالنا عند حلول مساء الليلة التالية إلا ودخلنا دون أن ندرى بين موقعين يهوديين غمرانا بأسلحتهما الرشاشة، ففررنا وتفرق شملنا ولم يعد أحد منا يعرف مصير الآخر أو مكانه..!

إنتظرت طويلاً حتى رحلت عربتهم المدرعة التى خرجت من موقعهم لتطاردنا وربما ظنتنى قد قتلت وأنا ملقى على الأرض، وما أن رحلت العربة إلا وأخذت أواصل الجرى صوب الشمال.. صوب قواتنا المحاصرة !

حصار

وكانت قوات العدو تحيط بقواتنا المحاصرة هذه من كل جانب.. وتمطرها فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار بقذائفها المختلفة من مدفعية ورشاشات وقاذفات قنابل إلخ.. حتى كان يخيل لكل من يرى مواقع قواتنا ليلاً وكأنها قطعة ملتهبة متوهجة من النيران.. وكانت قواتنا تضن بالرد على أعدائها إلا فى حالة الهجوم المباشر خوفا على ذخائرها المحدودة من النفاد..!

ظللت أجد فى السير حتى لاحت لى قرية عراق المنشية وهى تبعد عن الفالوجا بحوالى الكيلو مترين فصممت على الدخول فى عراق المنشية وكانت أقرب لى من الفالوجا.

وهنا جاءت المشكلة الكبرى.. كيف سيعرفنى جنودنا وأنا أقترب منهم قادمًا من قلب أرض العدو وكان الوقت ليلاً والجنود فى الخنادق وخاصة فى مثل هذه الظروف تعيش على أعصابها وهى تحمل أسلحتها معبأة وإصبع كل جندى على الزناد متأهب لإطلاق قذائفه نحو أى شبح أو حركة تبدو لعينيه..! وما أن أقتربت من مواقع القرية إلا وفتحت عشرات من البنادق نيرانها صوبى فانبطحت أرضًا بحركة لا إرادية وأخذت أزحف لأحتمى بأحد أسوار التين الشوكى القريبة منى..

توقفت النيران ولم أصب بخدش واحد من الرصاص اللهم إلا وخز أشواك التين الشوكى فى كل جزء من جسمى ذلك الوخز الذى كنت وقتها لا أتألم منه بل كنت سعيدًا به وبحمايته لى من طلقات الرصاص.

البرد.. والمياه الراكدة

سرت القشعريرة الشديدة فى أوصالى من شدة برودة الجو ومن المياه الراكدة المتخلفة من الأمطار التى كنت أرقد فيها بقميصى وبنطلونى القصير وأيقنت أننى سأهلك قطعًا من البرد إذا ما بقيت حيث أنا حتى الصباح وأنه لا مفر من المجازفة إذ ربما تنقذ حياتى.

وقفت وأخذت أصيح فى الجنود بكلمة سر الليل وبمهمتى وبكل ما خطر على بالى فى ذلك الوقت من علامات وأمارات تطمئن الجنود إلى إطلاق نيرانهم نحوى.. ثم فجأة توقف كل شئ وبرزت رءوس عديدة من الخنادق التى كانت تفصلنى عنها أسوار الأسلاك الشائكة الدفاعية وحقول الألغام..!

كانت هذه الرءوس تختلف عن رءوس جنودنا المصريين كانت رءوسًا سمراء أخذت تلمع فى ضوء القمر وأخذت أسمع بعض أصواتهم تنادينى وتأمرنى بالتقدم نحوهم رافعًا يدى.

تقدمت نحوهم بخطى ثابتة وكل عضلة فى جسمى تنتفض خوفًا على حياتى لئلا أفقدها من طلقة من جنودنا فى آخر لحظة وبعد كل المشوار داخل خطوط العدو..

وصلت إليهم وأمرنى أحدهم أن أبرز ما يثبت شخصيتى فأعطيته بطاقة تحقيق شخصيتى فنظر إليها مليًا ونظر إلىّ والتفت إلى زملائه قائلاً: "ضابط مصرى تمام"! وتقدم نحوى يساعدنى على أن أقفز حاجز الأسلاك الذى كان يفصلنى عنهم ولم أشعر بعد ذلك إلا وأنا جالس فى غرفة ضيقة تحت الأرض بين أكثر من عشرين جنديًا سودانيًا يأخذون قسطهم من الراحة .

كانت لحظة حلوة لا تنسى من لحظات العمر.. وكان كل شئ يبدو شهيًا لى فى هذه اللحظة لحظة النجاة والأمان.. وما أن شربت قدحًا من الشاى أحضره لى أحدهم إلا وكنت أتصل من غرفتهم هذه تليفونيًا بجمال عبد الناصر الذى كان يقبع فى نفس القرية فى أحد الخنادق التى تبعد عنى بمائة متر...

كلمت جمال وكلمنى فى عراق المنشية من داخل القوات المحاصرة..!

إذن قد نجوت وقد وصلت إلى قواتنا لأبلغهم تعليمات القائد ورأى القائد.. وكانت نجاتى على أيدى سودانيين.. ماذا لو أن طلقة من طلقاتهم لم تخطئنى.. ماذا لو أنهم لم يتوقفوا فجأة عن إطلاق نيرانهم.. ماذا كان سيحدث..؟!

على الرصيف.. تحت وابل الرصاص

إننى لم أنج فقط.. ولم أنل ترقية إستثنائية فقط.. ولكن فى "عراق المنشية" أنضممت إلى جمال وأصبحت قطعة من الضباط الأحرار.. أنضممت إليهم وتعاهدنا ونحن نجلس على رصيف شارع من شوارع قرية "عراق المنشية" نحتمى من نيران مستعمرة جات[٨٤] اليهودية بسور من أسوار التين الشوكى.. وكانت طلقات المدافع تدوى.. وكان وابل من الرصاص يتساقط حولنا من كل مكان .

أفقت من خواطرى التى مرت بى وكأنها شريط سينمائى سريع وقمت أودع الضابط السودانى.. وأشد على يده طالبًا من الله أن يمكننى يومًا أن أرد لهم

الجميل.. لهم أو لوطنهم الذى أكن له حبًا وولاء ووفاء يعلمه الله وحده.. ذلك الوطن الذى أعتبره كما قلت وكما أقول دائما وطنا أصيلا لى..

وكيف لا أحب السودان وأعشق السودانيين؟ إن نسيت كل شئ فلا أنسى أيام طفولتى وصباى وقد أمضيتها بين ربوعه وفوق جباله الشرقية الملاصقة للبحر الأحمر بين قبائل الهدندوه (٨٥) المعروفة بكبريائها وقوتها وشجاعتها..

لقد حفظت أول آية قرآنية وتلقيت الدرس الأول من عمرى كله على يد عريف سودانى فى كتاب سنكات بشرق السودان.. تعلمت العربية قراءة وكتابة وتعلمت الحساب.. الجمع والطرح وجدول الضرب.. وتعلمت الوضوء والصلاة فى هذا الكتاب وكان بمثابة روضة أطفال سنكات..

قمع سكر وشاى

وكانت المصروفات التى أدفعها للشيخ على عريف هذا الكتاب قمعا من السكر ورطلا من الشاى.. كنت أحملهما إليه كل يوم ثلاثاء من كل أسبوع حيث تقام ليلة ذكر..

وكان الزى الرسمى الذى نرتديه فى روضة الأطفال هو الجلباب الأبيض.. وكانت العلقة الأولى التى تلقيتها فى حياتى من مدرس كانت من الشيخ على.. وكان سببها هو ذهابى للكتاب عارى الرأس بدون عمامة ..

وفى اليوم التالى كنت أتوجه للكتاب وقد عممتنى والدتى بفوطة بيضاء من فوط السفرة! وكان هذا فى عام ١٩٢٦.

وفى عام ١٩٥٤ كنت أزور نفس المكان.. كنت أزور سنكات وأقابل أولاد الشيخ على وهم يؤدون نفس الرسالة التى أداها والدهم حتى آخر لحظة من حياته.

لم يتغير شئ.. ولا حتى قشة واحدة من هذا الكتاب.. وبمناسبة زيارتى الأخيرة قام الشيخ "عمر أبو آمنة" عضو مجلس الشيوخ فى البرلمان السودانى عن هذه المنطقة ببناء هذا الكتاب والجامع الصغير الملحق به بالطوب على أحدث طراز بدلاً من القش..!

متى سأعود مرة أخرى إلى سنكات..؟ وأزور كتاب الشيخ على.. وشجرة الملك وسوق السلات.. وهو سوق يقام مرة كل أسبوع تذبح فيه المئات من الخراف وتشوى فوق الأحجار المحمية على الطريقة العربية..!

متى سأعود ثانية إلى هذه القرية وأية مفاجأة جديدة يخبئها لى القدر الله وحده هو الذى يعلم..

الهوامش

(٧٧) الفالوجة على بعد ٤٠ كيلو مترًا من غزة، حاصر اليهود معسكر للجيش المصرى فى الفالوجا، وحاولت قيادة الجيش مد القوات المحاصرة بالمؤن والذخيرة وتم تكليف زكريا محيى الدين بتموين الفالوجا، ولم يستطع إدخال أى شيء.. وحاول الجيش أن يرسل طائرات لتموين القوات المحاصرة إلا أن مدفعية العدو حالت دون ذلك. كان عبد الناصر بين المحاصرين وبعد تسعة عشر يومًا من بدء المعارك وابتداء من يوم الخميس ٣ يونيو ١٩٤٨ بدأ جمال عبد الناصر فى تدوين يومياته عما يدور حوله بشكل متصل أحيانًا وبشكل متقطع فى أحيان أخرى حسب رتم الأحداث. ويظل جمال مع قواته تحت الحصار حتى يخرجوا يوم ٢٦ فبراير ١٩٤٩ بعد عقد هدنة رودس فى ٢٤ فبراير. وهكذا يبدوا واضحًا ويقينيًا أن فكرة الإعداد للقيام بالثورة اختمرت تمامًا فى ذهن عبد الناصر بعد حصار الفالوجا بعشرة أيام وهذا من واقع يومياته وخاصة أيام ٢٧ ـ ٢٨ اكتوبر، ١٥ ـ ١٦ نوفمبر. ومما يؤكد هذا أنه شرع فى تكوين الهيئة التنفيذية للضباط الأحرار من سبتمبر ١٩٤٩ وإجتمعت فى نهاية العام نفسه، ومما يؤكد هذا ما صرح به ليكرميت روزفلت رجل المخابرات الأمريكية من أنه والضباط الأحرار لن ينسوا الإذلال الذى لاقوه على أيد الإسرائيليين عام ١٩٤٨ "وقوله، كنا نحارب فى فلسطين، ولكن أحلامنا كلها كانت فى مصر وكان رصاصنا يتجه نحو العدو الرابض أمامنا فى خنادقه ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذى تركناه للذئاب ترعاه د. عاصم الدسوقى: هموم المعارك" والأسرة.. والوطن.. ورقة السلاح.. واختمار الثورة جريدة العربى، القاهرة ١٠/ ١ / ٢٠١٠.

(٧٨) تقع فى وسط جبال البحر الأحمر بشرقى السودان على بعد مائة وعشرة كيلو مترًا إلى الجنوب الغربى من مدينة بورتسودان وهى المصيف الأول لمواطنى بورتسودان فيها ولد صلاح سالم، أثناء عمل والده.

(٧٩) يوزباشى: مرتبة عسكرية فى العصر العثمانى. شاع إستعمالها فى مصر منذ عصر محمد على توازى رتبة النقيب اليوم ـ مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦، ص ٤٤٩.

(٨٠) الصاغ: رتبة عسكرية من رتب الجيش المصرى إستحدثت فى عهد أسرة محمد على فى القرن التاسع عشر الميلادى، وهى توازى فى أيامنا رتبة رائد. مصطفى عبد الكريم الخطيب: مرجع سابق ص ٢٥٨.

(٨١) عراق المنشية تقع إلى الشمال الغربى من مدينة غزة وعلى بعد ٣٢ كم منها، وترتفع ١٢٥ عن سطح البحر، إلى الغرب من بيت جبرين، وعلى بعد ١٥ كم تقريبًا، جنوب شرق الفالوجا. اسمها أى (عراق) (جمع عرق، ومعناه الجبل الصغير)، يشير إلى موقعها أمام الجزء الثانى، أى (المنشية) فقد أضاف السكان إلى الاسم لتمييز قريتهم من قرية مجاورة رحلوا عنها، وتدعى أيضًا عراق فى سنة ١٥٩٦، كانت عراق المنشية قرية فى ناحية غزة (لواء غزة).

(٨٢) زكريا عبد المجيد محيى الدين (١٩١٨ ـ) أحد أبرز الضباط الأحرار على الساحة السياسية فى مصر منذ قيام حركة يوليه، ورئيس وزراء نائب رئيس جمهورية مصر العربية، عرف بميوله يمين الوسط، تولى محيى الدين منصب مدير المخابرات الحربية بين عامى ١٩٥٢و ١٩٥٣، ثم عين وزيرًا للداخلية عام ١٩٥٣. أسند إليه إنشاء جهاز المخابرات العامة المصرية قبل الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فى ١٩٥٤، عين بعد ذلك وزيرًا لداخلية الوحدة مع سوريا ١٩٥٨، تم تعينه رئيس اللجنة العليا للسد العالى فى ٢٦ مارس ١٩٦٠. قام الرئيس جمال عبد الناصر بتعيين زكريا محيى الدين نائبًا لرئيس الجمهوريات للمؤسسات ووزيرًا للداخلية للمرة الثانية عام ١٩٦١. وفى عام ١٩٦٥ أصدر جمال عبد الناصر قرارًا بتعيينه رئيسًا للوزراء ونائبًا لرئاسة الجمهورية. عندما تنحى عبد الناصر عن الحكم عقب هزيمة ١٩٦٧ ليلة ٩ يونيو أسند الحكم إلى زكريا محيى الدين، ولكن الجماهير فى مظاهرات تطالب ببقاء عبد الناصر فى الحكم، قدم محيى الدين استقالته، وأعلن اعتذار العمل السياسى ١٩٦٨.

ـ مصطفى نجيب: موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين ص ٢٢٤.

ـ آرثر جولد شميت: قاموس تراجم مصر الحديثة ص ٦٥٨.

ـ الهيئة المصرية العامة للإستعلامات: الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة، جـ ١ ص ٢٧٢.

(٨٣) محمود رياض، ولد فى الثامن من يناير/ ١٩١٧ وتوفى فى يناير/ كانون الثانى ١٩٩٢، تخرج فى الكلية الحربية بمصر عام ١٩٣٦، ثم عين مديرًا للمخابرات الحربية فى غزة فى عام ١٩٤٨. عمل سفير لمصر فى دمشق عام ١٩٥٥، وإشترك مع الوفد المصرى فى توقيع الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ لتصبح الجمهورية العربية المتحدة. عمل بعدها كمستشار للشئون السياسية لجمال عبد الناصر بين ١٩٥٨ و ١٩٦٢. فى سنة ١٩٦٢ أصبح مندوب مصر الدائم فى الأمم المتحدة وعين وزيرًا للخارجية من ١٩٦٤ إلى ١٩٧٢. اختير أمينًا عامًا للجامعة العربية فى يوليو ١٩٧٢. وإستقال فى مارس ١٩٧٩.

ـ مصطفى نجيب: موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين ص ٤٥٣.

ـ آرثر شميت: قاموس تراجم مصر الحديثة ص ٢٧١.

ـ مذكرات محمود رياض: مرجع سابق جـ ١ ص ٤٣.

(٨٤) مستعمرة جات اليهودية: من خلال البحث فى المستعمرات الإسرائيلية، والبلدان العربية لم أجد لها أثرًا، وربما تكون المقصودة هى «جيلات» المستوطنة التى تقع فى النقب الشمالى.

(٨٥) سبق التعريف بها.

(٥) قضية السودان

بين بطرس غالى[٨٦] ولويس فانوس[٨٧]

تجتاح شطرى وادى النيل مصره وسودانه منذ زمن ليس بالقصير إنفعالات عديدة وأشكال مختلفة من الحساسية تجاه بعضهما البعض.. هذه حقيقة.. لا يصح أن نغفلها بحال من الأحوال إذا أردنا أن نعالج هذه الحساسية وتلك المركبات والعقد لأنه لا مفر من أن يقبل الشعبان على عهد من التعاون الوثيق والتكافل والتآخى لخيرهما معًا. لقد مرت ظروف عديدة نظر فيها الشقيق فى جزء من الوادى إلى شقيقه فى الجزء الآخر نظرة خاطئة لا شك أن أساسها عدم الإلمام بظروفه وأحواله.. لقد افترقا طويلاً عن بعضهما.. لم يعد يعرف كل منهما عن الآخر سوى النذر اليسير ولعب الإنجليز دورهم التقليدى.

طبيب نفسانى

سأحاول فى خطابى هذا أن أكون طبيبًا نفسيًا وسأحاول أيضًا أن أتعمق قليلا فى تحليل هذه العقد النفسية.. فتاريخ المريض بالنسبة للطبيب النفسى وما مر بحياته من حوادث قد لا تمت بصلة إلى ظروف المرض الذى من أجله لجأ إلى الطبيب، هذا التاريخ وتحليل فصوله هو كل شئ بالنسبة للطبيب الذى يريد أن يهتدى إلى العلاج وقد لا يكون العلاج فى تركيبة ماهرة من العقاقير والأدوية بقدر ما يكون إبرازًا لبعض الأحداث وتجسيمها للمريض وتوجيه أفكاره نحوها فريما يلمس أصل علته ويصل إلى الشفاء المنشود إلى طبيعته الأصيلة قبل العقد والمركبات.

لقد أحتل الإنجليز وادى النيل كله منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى شهور قليلة مضت. حكمنا الإنجليز طويلاً كما حكموا السودان وتفننوا فى ضروب

التفرقة وفى بذر بذور الكراهية والحقد فى كل مكان حتى تتفتت قوى الوادى الضخم وجهوده فيتصارع المسلمون والأقباط فى مصر والشمال والجنوب فى السودان وطائفة الختمية [88] مع طائفة الأنصار[89] فى شمال السودان وكلهم مسلمون ومصر كلها مع السودان كله مستغلين فى ذلك خططا وأساليب لا تتسع لها مذكراتى القصيرة هذه .. إن وادى النيل مهد الحضارة والمدنية فى هذه القارة والعامر بالخير العميم والرزق الوفير يجب أن يتقاتل بنوه ليظل بقرة حلوبا لساكن الجزيرة البريطانية ويظل ذليلاً فى ركب الإمبراطورية العجوز.

لم يخترع الإنجليز هذا الأسلوب فقط لوادى النيل بل هذا هو نفس أسلوبهم فى كل مكان وطئته أقدامهم وحلت به قراصنتهم ثم تجارهم وغزاهم.

تاريخهم فى الهند

إحتلوا الهند قرونا عديدة وكانوا يعلمون أن يومًا سيأتى يضطرون فيه اضطرارًا لأن يخرجوا ولما جاء هذا اليوم وتركوا القارة الهندية وانتزعوا أعظم درة فى جبين إمبراطوريتهم كانوا مطمئنين إلى جنى ثمار غرسهم من المشاكل والعقد والعداوات التى خلقوها بين أبناء القارة الضخمة.. وقفت الهند تعادى الباكستان، والباكستان تعادى الهند، وتعادى جارتها أفغانستان.. تركوا تراثًا ضخمًا من الحقد والكراهية والبغضاء، وظنوا أن بقاء الحال على هذا المنوال يتيح لهم بعد خروجهم فرصة التدخل والسيطرة من جديد لإستمرار إستنزاف جهود الكل لصالح الإمبراطورية..

فلسطين

كرر الإنجليز نفس الأسلوب فى العالم العربى.. إنسحبوا من فلسطين بعد أن خلقوا إسرائيل لعلمهم بأن هذه المنطقة كلها ستلتئم فى قوة ضخمة موحدة إذا ما أجبرهم شعب العرب على الجلاء وخيل لهم بخلقهم لإسرائيل إمكان سيطرتهم على العالم العربى بتهديده بهذا اللقيط والحيلولة بين العرب وبين الإتحاد وتكتيل القوى لإستمرار إستنزاف مواردهم الهائلة لصالح الأمبراطورية وساكن الجزر البريطانية.

وهكذا أراد الإنجليز أن يمثلوا نفس الدور فى وادى النيل .

هل نجحت فى تشخيص سبب الداء وأصل البلاء ؟ أرجو ذلك ولكنى هذه المرة سأحاول أن أعالج هذا الداء من جانب مصر أولا وأشعر أن علاجى كطبيب نفسى لن يثمر إلا إذا رجعت لبعض الحوادث فى الماضى أحللها وأعيد اليها الأذهان. تلك الحوادث والأحداث التى نجم عن تجاهلها وتناسيها أن شب جيلنا هذا خالى الذهن كلية عنها فحدث سوء الفهم الذى قاد إلى كثير من الحساسية والعقد النفسية .

وفاق ١٨٩٩(٩٠).

لقد وقعت مصر شيئا إسمه وفاق ١٨٩٩ وفى الحقيقة هو وفاقان أو إتفاقيتان إثنتان مع بريطانيا .. لقد كانت مصر محتلة فى هذا التاريخ وكان السودان محتلاً كذلك، ولكن هذا الشئ أو وفاق ٩٩ أصبح حقيقة ضخمة فى تاريخ الوادى ونتج عنه كل الأذى الذى حلَ على ضفاف نهر النيل. تمامًا كإحتلال الصهيونيين لأرض فلسطين وطردهم أهلها الأصليين وتشريدهم دون إعتمادهم على حق أو منطق أو قانون، ولكن رغم كل ذلك أصبحت إسرائيل حقيقة سواء لفظنا إسمها مجردًا أم أضفنا اليه لفظة "مزعومة كما كان يحلو لنا حتى عهد قريب.

إننا لم نعترف قط بحقيقة إسرائيل رغم اعتراف العالم كله بها كدولة لها كيانها واستقلالها وأخذنا، بل أخذ، كل العرب يعبئون قواهم وشعوبهم ويحشدون جيوشهم حول هذه الحقيقة الزائفة، وظللنا نذكر إسرائيل وخطر إسرائيل صباح مساء فى صحافتنا وإذاعتنا ومدارسنا وكلنا يأمل بهذا وبعون الله سبحانه وتعالى فى المستقبل وفى انتصار الحق على الباطل .

أما الحقيقة الضخمة الأولى ـ أى وفاق ١٨٩٩ ـ فقد إعترفت به حكومات مصر كلها منذ توقيعه حتى عام ١٩٥١ أى خلال ٥٢ عامًا .. إعترفت به الحكومات ونسيته أو تعمدت نسيانه منعا للحرج وخوفا على كرسى الحكم.. فشب جيل جديد لا يكاد يعرف عنه حرفًا واحدًا رغم أنه أضخم إسفين دقه الغزاة فى قلب الوادى .. ومنذ ١٨٩٩ والأحداث تتلاحق فى جنوب الوادى لتصبح

حقائق، الواحدة تلو الأخرى والقاهرة وحكومات القاهرة تغمض أعينها وتصم آذانها خوفًا من مرارة الحقيقة وهولها وإبقاء على الكرسى فيما لو انكشف الأمر للشعب وطالبها بعمل ـ أى عمل ـ والحكام فى طول هذا النصف قرن يعلمون بعملية حسابية بسيطة أن الأصطدام بالأمر الواقع وبالإنجليز يعنى ويساوى شيئًا واحدًا وهو ترك الكرسى، وفقد لقب صاحب الدولة وصاحب المعالى وصاحب المقام الرفيع[٩١].

خداع

ويا ليت البلاء إنحصر فى تجاهل الحكومات لهذه الحقائق، بل تعداه إلى شئ آخر أمر، إذ تعرض شعب مصر طوال الخمسين عامًا التى أعقبت هذا الوفاق لحملة قاسية من التضليل والخداع وإخفاء الحقائق..

حدث كل هذا منذ وقع بطرس غالى مع لورد كرومر[٩٢] هذا الوفاق الخاص بالسودان، وبموجب هذا الوفاق ومصر قد سلمت بثمانين فى المائة على الأقل من صلاتها وروابطها مع السودان إلى يد انجلترا وبدأ كل شئ يتغير فى وادى النيل فى الروابط والصلات بين أجزائه.

من منكم قرأ هذا الوفاق؟.. من من شباب مصر الحالى عرف حرفًا واحدًا عن هذا الوفاق؟ .. من من المتصدرين للولائم والصالونات والجالسين حول موائد القمار ممن يتقنون الكلام فى كل شئ وحول أى شئ.. من منهم وهو ينتقد السياسة فى السودان يعرف الأوضاع قبل هذا الوفاق وبعده وما هو كنهه وماذا كانت نتائجه.. إنهم يتكلمون فى نفس مجالسهم وصالوناتهم عن أخطاء الجنرال أوكتلك فى الصحراء الغربية وخطة الكماشة التى لو كان أوكتلك[٩٣] قد فطن اليها ونفذها لحطم روميل[٩٤] وغير مجرى التاريخ. إنهم كانوا يصفون حركة الكماشة ودقائقها كما يصفون الآن ما دار ويدور فى السودان.. خبرتهم عن الكماشة تماثل تمامًا خبرتهم ومعرفتهم بأوضاع السودان والحالة فى السودان وماضى السودان.

أعود وأقول كم طالب من مئات الألوف من طلابنا وضع له أثناء دراساته ولو سطر واحد عن عموميات هذه القضية وأبسط مبادئها الحقيقية بجوار دروس مبادئ العلوم والصحة والحساب والمعلومات العامة؟.

وقف النقراشى[٩٥] ـ يرحمه الله ـ أمام مجلس الأمن عام ١٩٤٧ يعرض قضية وادى النيل ويشير فى أكثر من موضع إلى وفاق بطرس غالى الذى وقعه باسم مصر.

ووقف النحاس[٩٦] عام "٥١" يوجه كلامه الى حضرات الشيوخ وحضرات النواب عن إلغاء معاهدة الشرف والإستقلال وإلغاء وفاقى ١٨٩٩ الخاصين بالسودان، أى بعد توقيعه بإثنين وخمسين عامًا [٩٧]..

كم منكم وقت هذه الأحداث المهمة كان يعرف دقائق هذا الوفاق وما قاد إليه هذا الوفاق فى جنوب وادى النيل خلال خمسين عامًا .

الشيوخ والنواب

بل كم من الشيوخ والنواب المحترمين كان قد قرأ مواد الوفاق الإثنتى عشرة وقت أن كانوا يدمون أكفهم للنحاس وهو يعلن هذه الإلغاء فى البرلمان. هذا الإلغاء الذى يماثل تمامًا وقوف رئيس أية حكومة عربية الآن فى البرلمان ليعلن إلغاء دولة إسرائيل من الوجهة القانونية بعد أن دخلها مليون يهودى وأصبحوا حقيقة فى مدنها وقراها وحقولها العربية وخرج منها منذ سنوات مليون عربى وأصبحوا حقيقة محزنة خارجها.

يمكن إلغاء إسرائيل ولكن لن تلغى بخطبة فى البرلمان أو برلمانات العرب مجتمعة وبنصوص فقهية وأصول قانونية .

أنا عن نفسى أجيب عن هذه الأسئلة التى وجهتها وأقول أنى كنت أستمع إلى خطاب النحاس يوم إلغاء المعاهدة والوفاقين وكنت فى غرفة صغيرة برفح على حدود إسرائيل..

كنت أستمع عن طريق جهاز الراديو للخطاب وأنا راقد على سرير، وعلى السرير الآخر المواجه لى فى نفس الغرفة كان يرقد عبد الحكيم عامر يستمع مثلى إلى الخطاب..!

بكيت يومها، وبكيت وبكيت.. بعد كل فقرة من فقرات الخطاب ، وكانت الدماء تغلى فى عروقى وكنت أتحرق لعمل أى شئ.. أى شئ فى الوجود ضد الإنجليز..

نسيت اليهود وقتها ـ وقتها فقط . وكانوا فى مواجهتى وعلى بعد مئات الأمتار منى ولم أعد أفكر إلا فى الإنجليز أعداء بلادى وأعداء وادى النيل.

آلاف من الأفكار وقتها كانت تقفز إلى مخيلتى وأنا أستمع إلى تصفيق حضرات الشيوخ وحضرات النواب وهتافاتهم.. كانت كل هذه الأفكار تدور حول عمل أى شئ لتحطيم الإمبراطورية مرة واحدة إن أمكن أو إفنائهم فى القنال على الأقل والشرب من دمائهم.. كيف ؟ ومتى؟ وأين ؟

انفجار

ظللت أغلى حتى انفجرت بعدها بأيام فى وجه اللواء توفيق مجاهد وكانت القيادة العامة فى مصر قد أوفدته وقتها ليعمل على تهدئة الرأى العام الثائر ضد الإنجليز فى صفوف الجيش على الحدود والمتحرق للإتجاه إلى القنال.

إنفجرت بوقاحة شديدة وقلة أدب فى وجه اللواء المؤدب.. لا أدرى الآن ماذا كان ذنبه ولكنى كنت أريد أن أنفجر بأى شكل من الأشكال!!

كان شعورى هذا هو شعور كل شاب مصرى يستمع من قادته إلى أنباء الإعتداء على حقوق مصر الثابتة وشرف مصر وكرامة مصر.

ولكن مهلاً يا حضرة الصاغ أركان حرب ـ أعنى حضرتى . هل كنت تعلم شيئًا عن وفاق ١٨٩٩ وظروفه وما حدث فى السودان بعد ذلك نتيجة تطبيقه وقبوله خلال خمسين عامًا؟

مطلقًا لا شئ. فقط عرفت أن رئيس الوزراء أعلن الجهاد ضد الإنجليز فى مصر وفى السودان.

أما عن مصر فقد عرفت من زملائى فورًا ماذا يجب أن نفعله عقب هذا الإعلان وقامت شبكة الضباط الأحرار بواجبها كاملاً مما ستأتى عما قريب فرصة نشره كاملاً على حقيقته .

أما عن السودان فلم أكن أعلم شيئا عما يجرى وجرى هناك ولا أذكر عنه سوى كتاب سنكات وعمامة الشيخ على وذكر يوم الثلاثاء وصورة بائع الجرمومج

الهدندوى يحمل سلعة وهى رءوس الخراف فى مقطف على ظهره وينادى بصوته الغريب تحت آشعة الشمس المحرقة وشعره الكثيف يعلو فوق رأسه بمقدار ربع متر على الأقل كعادة قبيلته.

أما عن أحوال السودان السياسية ـ فيما عدا ما يكتب فى الصحف بين حين وآخر ـ وماذا فعله الإنجليز طوال الخمسين عامًا الماضية ورأيته بعد الثورة بعينى واضحًا فى كل ركن من أركان السودان، وعن حقيقة الأوضاع هناك فلا أدرى ولا أحد من شبابنا يدرى ولا الرأى العام كله يدرى.. إلا كلمة واحدة وهى حق مصر الواضح والتاريخى فى الإتحاد وسيل من الحجج والأسانيد تعود إلى قرون وأجيال..

يكفى أن يدرى الوزراء وبعض السياسيين الذين ينتظرون دورهم فى الحكم، كانوا يعرفون الحقيقة كاملة، الحقيقة المرة، والواقع من الألف إلى الياء ولكنهم لا يستطيعون أن يواجهوه خوفا من الإحراج من الخصوم المتلهفين على الكرسى..

أما الشعب فمش مهم!!

وأما معظم الشيوخ والنواب فيكفى أن يعرفوا أقصر الطرق لبناء العمارات واقتناء العزب ودراسة نظم تراخيص الإستيراد والتصدير.

وقلت معظم لأنى لا يمكن أن أتجاهل الشيخ لويس أخنوخ فانوس الذى كان يصمم على إضاءة الطريق وحده حاملا فى كل مكان ملفات قضية السودان ولكن للأسف كان فانوسه ضعيف الإضاءة خلال الظلام الحالك الذى ضرب أطنابه منذ عشرات السنين، وإنى أذكر هذا الشيخ المكافح الذى جاء إلى رئاسة مجلس الوزراء قبيل توقيع اتفاقية ١٢ فبراير ١٩٥٣ بدقائق..جاءنى يحمل طنًا من الأوراق فى ربطة ضخمة وصمم على إخراجى من جلسة التوقيع، وخرجت وقابلته وسط مئات من الصحفيين والمصورين من كل أنحاء العالم وقال لى: عاوز والنبى أشرح لك قضية السودان وجايب معايا كل المستندات التى تثبت حق مصر الواضح فى السودان. الحق التاريخى والقانونى الذى لا يمكن انكاره. !

ظل الشعب طوال الخمسين عاما الماضية لا يعرف شيئًا عن السودان وماذا يحدث فيه.. لا يعرف إلا حقه فى الإتحاد.. لا يعرف إلا المظاهرات التى تطوف الشوارع وتحطم الفوانيس وتحرق عربات الترام لتردد الهتاف بالإتحاد بلا وعى ولا إدراك ولا فهم للحقائق الضخمة فى السودان..

قلت أن تاريخ ١٨٩٩حمل يوم وقع بطرس غالى وفاقه.. حمل فى طياته فصل ثمانين فى المائة على الأقل من روابط مصر السابقة بالسودان ومكن للإنجليز من السيطرة على كل شبر وحدهم فى السودان.!!

وبقى لمصر بعد هذا التاريخ جيش كبير جدًا فى السودان ظل همزة الوصل بين شقى الوادى يتألف من كتائب مصرية وسودانية شمالية وجنوبية.

نقط وفاق ١٨٩٩

فماذا تضمن هذا الوفاق المشئوم الذى وقع بين "حكومة جلالة ملكة الإنجليز وحكومة الجناب العالى خديوى مصر" (٩٨).

- تسلق العلم البريطانى إلى جانب العلم المصرى فى البر والبحر !!
- تقلد الرئاسة المدنية والعسكرية فى السودانى بريطانى.. حاكم عام له كل سلطات الملك ورئيس الوزراء والبرلمان والحاكم العسكرى وكل شئ يمكن أن تتصوره ..!
- تعطل سريان القوانين المصرية كلها على أرض السودان .

وضع السودان فى يد الحاكم تحت حكم عرفى مطلق له أن يفعل ما يريد دون نقض أو إبرام .

وبهذا بدأ الإنفصال الحقيقى بين مصر والسودان.

وبدأت بريطانيا توطد أقدامها وأصابعها وتتسرب إلى كل شبر فى السودان وتقطع كل ظل لرابطة بينه وبين مصر مستندة إلى هذه الورقة وإلى قوة إمبراطوريتها التى كانت لا تغيب عنها الشمس.

وظل الحال هكذا إلى أن جاء عام ١٩٢٤ وفى هذا العام بدأت المرحلة النهائية للإنفصال الواقعى الكامل بين شطرى الوادى. الإنفصال السافر العلنى الذى تسجله الوثائق وتؤكده المذكرات المتبادلة والإنذارات المتتالية والتى بلغت سرعتها أحيانا انذارين فى اليوم الواحد.

من الذى كان يبعث بهذه الإنذارات من لندن ومن الذى كان يتلقاها فى القاهرة وماذا تضمنت هذه الإنذارات وكيف كانت لهجتها.

إن هذا هو حديثى معك غدًا، فإلى اللقاء يا أخى غدًا.

الهوامش

(٨٦) بطرس باشا نيروز غالى (١٨٤٦ ـ٢٠ فبراير ١٩١٠) رئيس وزراء مصر من ١٢ نوفمبر ١٩٠٨ إلى ١٩١٠ . والده نيروز غالى كان ناظرًا للدائرة السنية لشقيق الخديوى إسماعيل فى الصعيد . تلقى تعليمه فى كلية البابا كيرلس الرابع كوزير للخارجية صاغ ووقع على إتفاقية الحكم الثنائى الإنجليزى المصرى للسودان عام ١٨٩٩ . كرئيس وزراء وافق على تمديد إمتياز شركة قناة السويس ٤٠ عامًا إضافية من ١٩٦٨ إلى ٢٠٠٨ فى نظير ٤ مليون جنيه تدفع على أربع أقساط تمكن محمد فريد من الحزب الوطنى من الحصول على نسخة من المشروع فى أكتوبر ١٩٠٩ ونشرها فى جريدة اللواء، وطالبت اللجنة الإدارية للحزب الوطنى بعرض المشروع على الجمعية العمومية، فاضطر المسئولون تحت الضغط إلى دعوة الجمعية التى رفضت المشروع بمحاباة الإنجليز حين صادق، كوزير العدل المؤقت، على أحكام محكمة دنشواى بإعدام ٦ فلاحين مصريين قتلوا جنود بريطانيين كانوا قد قتلوا فلاحة مصرية أثناء صيدهم للحمام. مع تنامى الحركة الوطنية بمصر تحت شعار «مصر للمصريين» أصبحت سياسات بطرس غالى شديدة الولاء لبريطانيا بؤرة لنقمة الوطنيين المصرين اغتياله على يد إبراهيم الوردانى فى ٢٠فبراير ١٩١٠ .

ـ رمزى تادروس: الأقباط فى القرن العشرين جـ٢ ص ٦٢ .

ـ زكى محمد مجاهد: الأعلام الشرقية جـ١ ص ٧٥ .

ـ د/ محمد عبد الرحمن برج: بطرس غالى ودوره فى السياسة المصرية، ص ٩ .

(٨٧) لم استطع أن أجد ترجمة له، غير أن خالد محيى الدين ذكر اسمه عرضًا فى مذكراته.

(٨٨) الختمية طريقة صوفية، مؤسسها محمد عثمان بن محمد أبو بكر بن عبد الله الميرغنى المحجوب ويلقب (بالختم) إشارة إلى أنه خاتم الأولياء، ومنه اشتق اسم الطريقة الختمية، كما تسمى بالطريقة أيضًا الميرغنية ربطا لها بطريقة جد المؤسس عبد اللّه الميرغنى المحجوب.

من أفكارهم: تبدو فكرة وحدة الوجود التى نادى بها من قبل محيى الدين بن عربى وتلامذته، وقالوا بفكرة النور المحمدى والحقيقة المحمدية وعبّروا عن ذلك نظمًا ونثرًا وبسطوها لأتباعهم فى مدائحهم ومناجاتهم وأذكارهم وأورادهم، واستخدموا مصطلحات الوحدة والتجلى والانبجاس والظهور والفيض وغيرها من المصطلحات الفلسفية الصوفية. واستشهدوا بما استشهد به أصحاب هذه النظريات من آيات أولوها، وأفكار انتحلوها. أسبغوا على الرسول صلى الله عليه

وسلم من الأوصاف ما لا ينبغى أن يكون إلا لله تعالى. وذهبوا إلى حقيقته لا تدرك ويعجز الوصف عن بيان ذاته. ومن ثم جعلوه صلى الله عليه وسلم غاية فنائهم ومنتهى سيرهم. كما توجهوا بدعائهم واستغاثاتهم ورفعوا شكاواهم إليه، سائلينه أن يفك ضيقهم وينصرهم على أعدائهم، مخاطبينه صلى الله عليه وسلم بأنه مزيل للغم والكرب مفرج للهمّ والضيق.

ادعى مشايخ الطريقة بأنهم لقوا الرسول صلى الله عليه وسلم ورأوه عيانًا، وأنه يحضر إحتفالاتهم بمولده صلى الله عليه وسلم، وأنهم تلقوا منه أسس الطريقة وأورادها وتعاليمها.

ـ أحمد بن محمد بن أحمد جلى: طائفة الختمية أصولها التاريخية وأهم تعاليمها، دار خضر الخرطوم، ١٤١٢هـ.

(٨٩) فى العصر الحديث تسمى باسم الأنصار أتباع ومناصرو (الإمام محمد أحمد المهدى) الذى قاد دعوة المهدية وثورتها ثم دولتها فى السودان فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، حيث سمى الإمام أتباعه بانصار الله، وصار اتباع المهدية داخل السودان وخارجه ـ فى نيجيريا والكاميرون والسنغال وتشاد وغيرها ـ يسمون بالانصار. يسميهم أنصار المهدى، وهم يؤكدون أنهم أنصار الله المعتدين على الآية القرآنية: (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصارًا لله) باعتبار الأنصارية درجة أعلى من الإيمان. نهج الأنصار يقوم على خمسة أسس واضحة هى:

١ ـ الالتزام بالكتاب والسنة والامتثال للنص القرآنى والسنى ورودا والقطعى دلالة.

٢ ـ فيما عدا القطعيات هذه فإن أحكام الإسلام تحتمل الاجتهاد والتجديد على أساس : لكل وقت مقام حال ولكل زمان وأوان رجال.

٣ ـ إن لتكاليف الإسلام أغوارًا وبواطن لا تصلح إلا بصلاح تلك البواطن.

٤ ـ الجهاد الهادف لإعلاء كلمة الله ماض إلى قيام الساعة.

٥ ـ الإمامة قيادة دينية واجبة.

د/ عبد الودود ابراهيم شلبى الأصول الفكرية لحركة المهدى ودعوته، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٢٠٨ ومابعدها.

(٩٠) اتفاقية السودان هى اتفاقية حكم ثنائى لإدارة شئون السودان، وقعتها الحكومة المصرية مع إنجلترا فى ١٩ يناير ١٨٩٩ فى ظل غطرسة الإحتلال البريطانى لمصر. وقع الإتفاقية من الجانب المصرى بطرس باشا غالى باعتبار أنه ناظر خارجية مصر وعن الجانب الإنجليزى اللورد كرومر باعتباره المندوب السامى البريطانى فى مصر، بموجب الإتفاقية أصبح لإنجلترا حق رسمى فى المشاركة فى إدارة شئون الحكم فى السودان ورفع العلم البريطانى جنب العلم المصرى فى كل السودان وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب بريطانيا وبهذا أصبح المصريين فى السودان مجرد خيالات ضل فى السودان والانجليز هما الحكام الفعليين.

أعطت الاتفاقية بريطانيا نفوذًا ضخمًا فى السودان لم تكن تحلم به. من الناحية الفعلية فصلت الاتفاقية السودان عن مصر وأصبحت كل السلطات فى أيد حاكم عموم السودان وده كان بريطانى بتوافق عليه الحكومة المصرية شكليًا من غير ما تدى رأى. وفوق هذه الاتفاقية كان من بنودها أن القوانين والتشريعات فى مصر لا تسرى على السودان وقابلت الصحف العربية والأجنبية توقيع الاتفاقية باستنكار كامل، وقد نشر الزعيم مصطفى كامل فى جريدة اللواء عدة

مقالات انتقد فيها الاتفاقية واعتبر يوم توقيع الاتفاقية (يومًا مشؤومًا) لمزيد من التفاصيل راجع: عبد الله الرازق إبراهيم وشوقى الجمل: تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٣٤٤ ومابعدها.

(٩١) ألقاب تشريفية كانت تطلق على رئيس وزراء مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢.

(٩٢) اللورد كرومر الإسم الحقيقى إيفلنج بارنج من مواليد ١٨٤١ كان مندوب بريطانيا السامى فى مصر من ١٨٨٣ إلى ١٩٠٧ وكان الحاكم الفعلى لمصر الذى كان رمزًا بارزًا لطغيان الإحتلال الإنجليزى لمصر، وعرف عنه بغضه الشديد للإسلام وبمقولته إن المصريين لن يفلحوا أبدًا طالما ظل هذا الكتاب (القرآن الكريم) بأيديهم، وفى عهده عام ١٩٠٦، وقعت حادثة دنشواى. يعد أفيلنج بارنج (كرومر) من كبار دعاة التغريب والاستعماريين فى العالم الإسلامى وواحد من الذين وضعوا مخطط السياسة التى جرى عليها الإستعمار ولا يزال فى محاولة القضاء على مقومات العالم الإسلامى والأمة العربية. دعا إلى:

١ ـ الإقليمية الضيقة، مصر للمصريين، نحن لسنا عربًا وليس لنا بالمسلمين أى روابط لا يجوز لنا أن نشارك فى معارك طرابلس التى وقعت مع بريطانيا فى سبيل مقاومة الإستعمار.

٢ ـ التعليم لا يكون إلا لطبقة معينة من الأمة هى الطبقة الثرية التى تتأهل لولاية الحكم، وأبناء الفقراء لا يجوز أن يتعلموا إلا فك الخط.

٣ ـ اللغة العربية الفصحى هى مصدر التخلف ولذلك لابد من تحسين اللغة العامية حتى تصبح لغة الكلام والكتابة.

ـ تيودور روثستين: تاريخ المسألة المصرية ١٧٨٥ ـ ١٩١٠، ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران، دار الوحدة بيروت ١٩٨١، ط ٢ ص١٧٣ ومابعدها.

ـ مصطفى النحاس جبر: سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية ١٩٠٦ ـ ١٩١٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥م. ص٧ ومابعدها.

ـ آرثر جولد شميت: مرجع سابق ص ٥٧٩.

(٩٣) أوكنلك Auchinlee; قائد بريطانى خلال الفترة المبكرة من الحرب العالمية الثانية، اشترك فى الهجوم على النرويج، ثم تولى القيادة العامة فى الهند، ثم جاء إلى الشرق الأوسط ليحل محل الجنرال "ويفل" Wavell ونجح فى دفع قوات المحور إلى التقهقر عام ١٩٤١، ولكن عندما تقهقر البريطانيون أمام روميل فى العلمين، حل محله الكسندر Alexander القائد العام فى الشرق الأوسط، وعاد إلى الهند حيث تولى قيادة الحملة على بورما، وعمل كقائد أعلى فى الهند وباكستان خلال فترة الإستقلال الحرجة فى ١٩٤٧.

(٩٤) قائد ألمانى يتمتع بحس تكتيكى واستراتيجى رائع تولى قيادة القوات الألمانية والإيطالية فى شمال أفريقيا ١٩٤١ انتصر دائمًا وعلى طول الخط على قوات الحلفاء الأقوى والأكثر عده وعددًا كاد يحتل مصر بقواته عام ١٩٤٢ ووصل حتى العلمين على بعد أقل من ١٠٠ كيلو متر من الإسكندرية هزم فى معركة العلمين الثانية بواسطة مونتجومرى الذى لم يجرؤ على مهاجمته إلا بعد أن أصبحت قواته أضعافًا مضاعفة وأصبح متفوقًا فى المدرعات والطيران وبعد أن حوصوت

إمدادات روميل فى البحر وأصبح لايجد وقوداً لدباباته ومركباته ولا ذخيرة لمدافعه أجبره هتلر على الانتحار عام ١٩٤٤ لشكه فى إشتراكه فى مؤامرة لقتله.

ـ منير البعلبكى: معجم أعلام المورد، ١٩٩٢، ص ٢١٢.

(٩٥) محمود فهمى النقراشى باشا (٢٦ أبريل ١٨٨٨ ـ ١٩٤٨) هو رئيس وزراء مصرى راحل، ومن قادة ثورة ١٩١٩ فى مصر. ترأس الوزارة مرتين. أغتيل فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨. ولد محمود فهمى النقراشى فى مدينة الاسكندرية شمال مصر فى ٢٦ أبريل ١٨٨٨، عمل كسكرتير عام لوزارة المعارف المصرية، ووكيلا لمحافظة القاهرة، ثم صار عضواً فى حزب الوفد. حكم عليه بالإعدام من قبل سلطات الاحتلال الانجليزى بسبب ثورة ١٩١٩، والتى كان من قياداتها وأعتقل من قبل سلطات الاحتلال الانجليزى وفى مصر العام ١٩٢٤. تولى وزارة المواصلات المصرية العام ١٩٣٠م. اغتيل رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى فى ٢٨ ديسمبر١٩٤٨ فى القاهرة حيث قام القاتل المنتمى إلى النظام الخاص لجماعة الإخوان المسلمين التى كان رئيس الوزراء قد أصدر قراراً بحلها فى نوفمبر ١٩٤٨. وكان القاتل متخفياً فى زى أحد الضباط الشرطة وقام بتحية النقراشى فى حينما هم بركوب المصعد ثم أفرغ فيه ثلاث رصاصات فى ظهره. تبين أن وراء الجريمة النظام الخاص لجماعة الإخوان المسلمين.

ـ أحمد عبد الرحيم: شخصيات مصرية، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٥٥.

ـ شكرى القاضى: خمسون شخصية مصرية، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ص ٦٠.

ـ طارق البشرى: شخصيات تاريخية، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٨١ ومابعدها.

ـ آرثر جولد شميت: مرجع سابق ص ٧٣٧.

ـ الزركلى: الاعلام جـ ٧ ص ٢٤٦.

(٩٦) مصطفى محمد سالم النحاس: (١٨٧٩ ـ ١٩٦٥) ولد فى سمنود بالغربية، أحد أبرز السياسيين المصريين. تولى منصب رئيس الوزراء مصر فى ١٩٢٨، ١٩٣٠، بين ١٩٣٦ و ١٩٣٧، ومن ١٩٤٢ حتى ١٩٤٤، أخيراً بين ١٩٥٠ و ١٩٥٢ ساعد على تأسيس حزب الوفد وعمل زعيماً له من ١٩٢٧ إلى ١٩٥٢، عندما حل الحزب ساهم كذلك فى تأسيس جامعة الدول العربية وكان رئيساً للوزراء لبضعة أشهر فى ١٩٢٨ بعد الاصطدام مع الملك فؤاد بسبب رغبته فى الحد من سلطات الملك عن إشتعال ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ فى فلسطين أسس النحاس اللجنة العربية العليا كمحاولة لتهدئة الأمور فى المنطقة. وكان مسئولاً عن المعاهدة المصرية البريطانية عام ١٩٣٦، إلا أنه لاحقًا ألغاها، الأمر الذى أشعل اضطرابات مضادة للانجليز، مما أدى إلى حل وزارته فى يناير ١٩٥٢، وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ سُجن هو وزوجته، زينب الوكيل، من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٤. ثم تقاعد من الحياة العامة.

ـ علاء الحديدى: مصطفى النحاس دراسة فى الزعامة السياسية المصرية، دار الهلال، القاهرة، العدد ٥٠٥، ١٩٩٣.

ـ الرافعى: فى أعقاب الثورة المصرية جـ٢ ص ٢٧١.

ـ مصطفى أمين: شخصيات لا تنسى، جـ١ ص ١٢٤: ص ١٤٢.

- جولد شميث: مرجع سابق ص ٧٢٦.

- رفعت السعيد : مصطفى النحاس السياسى والزعيم المناضل، ص ٢٣.

- لمعى المطيعى: هذا الرجل من مصر ٥٩٢ - ٦٠٢.

(٩٧) على الرغم من الايجابيات التى حوتها والإعتراف بإستقلال مصر إلا أنها لم تحقق الإستقلال المطلوب حيث حوت فى طياتها بعض أنواع السيادة البريطانية حيث ألزمت مصر بتقديم المساعدات فى حالة الحرب وإنشاء الثكنات التى فرضت أعباء مالية جسيمة مما يؤخر الجيش المصرى وإعداده ليكون أداة صالحة للدفاع عنها، كما أنه بموجب هذه المعاهدة تصبح السودان مستعمرة بريطانية يحرسها جنود مصريون، لذلك طالبت وزارة النحاس فى مارس ١٩٥٠ الدخول فى مفاوضات جديدة مع الحكومة البريطانية واستمرت هذه المفاوضات ٩ شهور ظهر فيها تشدد الجانب البريطانى مما جعل النحاس باشا يعلن قطع المفاوضات وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وإتفاقيتى السودان وقدم للبرلمان مراسيم تتضمن مشروعات القوانين المتضمنة هذا الإلغاء فصدق عليها البرلمان وصدرت القوانين التى تؤكد الإلغاء الذى نتج عنه إلغاء التحالف بين بريطانيا ومصر واعتبرت القوات الموجودة فى القناة قوات محتلة ومن هنا بدء النضال يشتعل مرة أخرى ولكن هذه المرة نضال مسلح.

- عبد الرحمن الرافعى: مصر فى أعقاب الثورة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨.

- أحمد عبد الرحيم مصطفى: العلاقات المصرية البريطانية (١٩٣٦ - ١٩٥٦) القاهرة، ١٩٦٨.

- د/ جلال يحيى، د/ خالد نعيم: الوفد المصرى ١٩١٩ - ١٩٥٢، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص ٥٠٩.

(٩٨) غرض اتفاقية فبراير بين مصر وبريطانيا تمكين شعب السودان من ممارسة حق تقرير المصير بعد فترة انتقال يتوفر للسودانيين فيها الحكم الذاتى الكامل، وأعتبرت فترة الانتقال بمثابة تصفية للإدارة الثنائية، وحددت مدتها بثلاثة أعوام.

من المهم أن نذكر رأى هيكل الذى زار السودان قبل الاتفاقية بأيام وهو يؤكد إننا لم نكن نعرف السودان كما ينبغى وأن مجموعة يوليو ارتكبت عشرات الأخطاء فى حق السودان عدت إلى القاهرة.. ودفتر مذكراتى ملىء حتى آخر ورقة، بأبيات من الشعر ولقاءات وإنطباعات.. إلى آخره، صلاح سالم يبدو كالبطل، وغلاف آخر ساعة يحوى صورة صلاح سالم.. ومعه حربة تدخل فى رقبة الأسد البريطانى. كلمت جمال عبد الناصر، وكان قد رأى غلاف آخر ساعة.. وهو يعلم رأيى من قبل سفرى.. وهو اعتقادى بأن المسألة فى السودان أكثر تعقيداً مما يبدو فى القاهرة. إتصل بى فى الصباح الباكر وهو يسأل: ايه؟ غيرت رأيك ! فأجبته بأن الأسد البريطانى فعلاً أصيب، ولكن السؤال هل نحن سنستفيد شيئًا؟!... نحن مقبلون على إستفتاء، وأنا على إعتقاد بأن هذا الإستفتاء سوف يصوت ضد الأمانى التى نتصورها. هذا الكلام نُقل إلى صلاح سالم، ولسوء الحظ إشكالاً بينى وبين صلاح سالم، تبدت له عواقب فيما بعد.

- محمد حسنين هيكل: سيرة صحفى ومسيرة وطن، جريدة العربى، القاهرة، ١٧ / ١ / ٢٠١٠.

(٦) قصة الأيادى التى أسدتها بريطانيا لمصر

الأسد البريطانى بين سير لى ستاك [٩٩] ولورد موين[١٠٠]

وعدتك بالأمس أن أحدثك عن تفاصيل مرحلة الإنفصال النهائى بين مصر والسودان التى تحددت فى عام ١٩٢٤ والتى بدأت بمقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم عام السودان فى ذلك الوقت.. فقد إغتاله مصرى وطنى.. وما أن انطلقت هذه الرصاصات صوب قلب هذا البريطانى حتى اهتزت لندن وتحركت بعنف وقسوة وبدأت فى إستغلال هذه الفرصة الذهبية لتنفيذ المرحلة الجديدة على حساب دم الحاكم المسفوك..

ففى صبيحة يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ إتجه مندوب من دار المندوب السامى البريطانى فى قصر الدوبارة الشهير إلى مقر رئاسة مجلس الوزراء فى لاظوغلى يحمل الإنذار رقم "١" إلى رئيس وزراء مصر سعد زغلول .

الإنذار رقم "١" [١٠١]

ولم يشهد التاريخ وقاحة وتجنيا مثلما شهد فى هذا الإنذار، وكان نصه كما يلى:

القاهرة فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤

إلى حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا رئيس مجلس الوزراء

يا صاحب الدولة

أقدم لدولتكم من قبل حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية البلاغ التالى:

إن الحاكم العام للسودان وسردار الجيش المصرى الذى كان أيضًا ضابطًا ممتازًا فى الجيش البريطانى قد قتل قتلا فظيعا فى القاهرة.

فحكومة حضرة صاحب الجلالة تعد هذا القتل الذى يعرض مصر كما هى محكومة الآن لازدراء الشعوب المتمدينة ، نتيجة طبيعية لحملة عدائية ضد حقوق بريطانيا العظمى وضد الرعايا البريطانيين فى مصر والسودان. وهذه الحملة القائمة على إنكار الجميل إنكارًا مقرونًا بعدم الإكتراث للأيادى التى أسدتها بريطانيا العظمى لم تعمل حكومة جلالتكم على تثبيطها، بل أثارت هيئات على إتصال بهذه الحكومة.

ولقد نبهت دولتكم حكومة حضرة صاحب الجلالة منذ أكثر من شهر إلى العواقب التى تترتب حتمًا على العجز عن وقف هذه الحملة، ولا سيما فيما يتعلق بالسودان، ولكن هذه الحملة لم تتوقف ، والآن لم تستطع الحكومة المصرية أن تمنع إغتيال حاكم السودان العام وأثبتت أنها عاجزة عن حماية أرواح الأجانب، أو أنها قليلة الإهتمام بهذه الحماية .

فبناء على ذلك تطلب حكومة حضرة صاحب الجلالة من الحكومة المصرية:

١ ـ أن تقدم إعتذارًا كافيًا وافيًا عن الجناية .

٢ ـ أن تتابع بأعظم نشاط وبدون مراعاة للأشخاص البحث عن الجناة وأن تنزل بالمجرمين ـ أيا كانوا ومهما تكن سنهم ـ أشد العقوبات .

٣ ـ أن تمنع من الآن فصاعدًا وتقمع بشدة كل مظاهرة شعبية سياسية.

٤ ـ أن تدفع فى الحال إلى حكومة صاحب الجلالة غرامة قدرها نصف مليون جنيه.

٥ ـ أن تصدر فى خلال أربع وعشرين ساعة الأوامر بإرجاع جميع الضباط المصريين ووحدات الجيش المصرى البحتة من السودان مع ما ينشأ عن ذلك من التعديلات التى ستعين بعد ذلك .

٦ ـ أن تبلغ المصلحة المختصة أن حكومة السودان ستزيد مساحة الأطيان التى تزرع فى الجزيرة من ٣٠٠,٠٠٠ فدان إلى مقدار غير محدود تبعًا لما تقتضيه الحاجة.

٧ ـ عدل عن كل معارضة لرغبات حكومة حضرة صاحب الجلالة فى الشئون المبينة بعد المتعلقة بحماية المصالح الأجنبية فى مصر .

وإذا لم تلب هذه المطالب فى الحال تتخذ حكومة حضرة صاحب الجلالة على الفور.

التدابير المناسبة لصيانة مصالحها فى مصر والسودان.

وإنى أغتنم هذه الفرصة لأجدد لدولتكم عظيم احترامى.

الإمضاء.

اللنبى[١٠٢] (فيلد مارشال)

المندوب السامى

إنذار رقم "٢" [١٠٣] بعد ساعتين

ولم تكتف بريطانيا بهذا التبليغ الممعن فى الوقاحة، بل بادرت بعد ساعتين بإرسال إنذار آخر لا يقل إفتئاتًا وتجنيًا عن السابق، وكان أهم ما تضمنه الإنذار الثانى هو الطلب الأول الذى يقول:

بعد أن يسحب الضباط المصريون والوحدات المصرية البحتة بالجيش المصرى تحول الوحدات السودانية التابعة للجيش المصرى إلى قوة مسلحة سودانية تكون خاضعة وموالية للحكومة السودانية وحدها وتحت قيادة الحاكم العام العليا، وباسمه تصدر العرائض (البراءات للضباط) .

ثم تدخل الإنذار فى شئون وسلطات المستشارين البريطانية وامتيازاتهم وأقسام وزارة الداخلية المصرية وتحديد إختصاصاتها وسلطات مدير القسم الأوروبى وغيرها وغيرها .

قصة الذئب والحمل

وباختصار تكررت قصة الذئب والحمل. تنفصل مصر نهائيًا عن السودان

وتدفع نصف مليون جنيه وتملى إنجلترا إرادتها فى داخل الوزارات المصرية ويصبح الحاكم العام الإنجليزى ملكًا متوجًا على السودان يتبعه جيش يدين له هو فقط بالولاء والطاعة رغم صراخ المادة ٤٦ من الدستور المصرى وعويله، ويجلو الجيش المصرى بأكمله عن السودان لأن بريطانيا قتل فى القاهرة وكان يشغل وظيفة حاكم عام فى السودان!!

وبعد عشرين عامًا!

وبعد حوالى عشرين عامًا وفى القاهرة نفسها قتل يهوديان صهيونيان وزيرًا بريطانيا هو اللورد موين وكان أعلى مقاما من الحاكم العام وكانت بريطانيا فى ذلك الوقت تحتل مصر كما تحتل فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية.. ولكن إنذارًا واحدًا أو شبه إنذار لم يوجه إلى عصابات اليهود فى فلسطين! . لم تهدد بريطانيا بإلغاء وعد بلفور(١٠٤) الذى وعدت فيه الصهيونيين بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين الأرض التى زعموا أنهم ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ولكنهم بدلا من تهديد تل أبيب.. وبدلاً من فرض الغرامات على تل أبيب وصهيونييه هلموا إجلدوا ضباطنا.. واستمروا فى حرق دورنا.. واصطياد جنودنا.. زيدوا من عدد المشانق المعلقة لهم فى مزارع البرتقال فى طول فلسطين وعرضها.. هلموا أذلوا كبرياء رجالنا.. رجال الإمبراطورية البريطانية فى القدس وتل أبيب وكل مدن فلسطين وقراها..!

ولم يفرضوا مليمًا واحدًا كتعويض يدفعه "صهاينة" تل أبيب ثمنًا لرأس الوزير البريطانى الطائر والذى كان يشرف على منطقة الشرق الأوسط كوزير مقيم فيها.

سر خنوع الإنجليز!

أتريد أن تعرف السبب؟ سبب تحمل الأنجليز لكل الإهانات والإعتداءات التى لحقت بهم من يهود فلسطين وما زالوا حتى يومنا هذا يساعدونهم ويسلحونهم ويتعصبون لهم.

أتريد أن تعرف السبب ؟

إعلم يا أخى أن تحقيق وعد بلفور وإقامة اسرائيل ومعاونتها يعرقل بل يقف سدًا منيعًا أمام وحدة العرب لأن اسرائيل تمثل أضخم إسفين فى قلب العرب. ولذلك سكتوا عن دم اللورد موين ولكنهم أقاموا الدنيا وأقعدوها من أجل دم السير لى ستاك. لأن هذه الإنذارات لم تكن تهدف قط إلى الثأر من الجريمة ولكنها كانت تهدف إلى إكمال الفصل بين شقى وادى النيل وإزالة آخر رباط بينهما.. رباط الجيش الذى بقى بين الشعبين منذ زالت كل الأربطة منذ وقع بطرس غالى الوفاق مع كرومر عام ١٨٩٩.

أكذوبة الحكم الثنائى

لم يعد لمصر منذ هذا التاريخ ولا حتى الرمز أو الشكل فى السودان. لم تعد مصر تشارك فى حكم السودان مع بريطانيا وإن ظلت أكذوبة الحكم الثنائى قائمة زمنًا طويلاً بعد هذا التاريخ !!

لم تخف بريطانيا عدم إعترافها بنظام الحكم الثنائى حتى أن جريدة التيمس التى كانت تعبر عن لسان الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت صدرت تعلن بالحرف الواحد ما يلى:

"ان نظام الحكم الثنائى فى السودان لا يعدو أن يكون فى أحسن الظروف نظامًا مؤقتًا وأما فى أسوأ الظروف فإنه يمهد تربة خصبة للأخطار" إلى أن قالت: "ولا بد من إبدال النظام القائم بإتفاق نهائى وأن إنشاء قوة دفاع السودان التى تخضع للحاكم العام وحده بعد إخراج الجيش المصرى هو خطوة رائعة نحو تحقيق تلك الغاية".

تضليل وخداع

إنفردت بريطانيا نهائيا بحكم السودان شكلاً وموضوعًا وظلت مصر تدفع ٣/٤ مليون جنيه سنويًا لحكومة السودان وهنا يأتى دور الخداع والتضليل الذى اشترك فيه كافة ساسة مصر وزعماؤها الذين تعاقبوا على الوزارات منذ ذلك التاريخ حتى قيام الثورة.

الخداع وإخفاء الحقائق.. ومقابلة المفاوض البريطانى بوجه ثم مواجهة الشعب بوجه آخر.. وسياسة التخدير للتهرب من الواقع المر، كل ذلك سبب عقدًا

فى النفوس وحساسية تخف حينًا لتشتد أحيانًا كلما سمع خبرًا من الخرطوم لا تتوقعه العقول التى وقفت عند الماضى البعيد جدًا ولم تعد تتابع أى شئ أو تدرى حرفًا واحدًا عن أى شئ.. لأن كل الحكام كانوا يعلمون أن مواجهة الحقائق معناها الوحيد ترك الحكم إلى غير رجعة.

دور المفاوضات!

وجاء دور المفاوضات..

دارت مفاوضات ومباحثات ومشاورات والتقى وزراء وزعماء مصريون بوزراء إنجليز.

إلتقى ثروت [105] بتشمبرلن [106] سنة ١٩٢٧.

والتقى محمد محمود[107] بهندرسون [108] سنة ١٩٢٩.

والتقى النحاس بهندرسون سنة ١٩٣٠[109].

وحتى عام ١٩٣٦ لم تستطع مصر أن تغير حرفًا واحدًا من الوضع القائم فى السودان الذى قام على أساس الفصل الكامل بين البلدين شكلا وموضوعًا كما جاء فى إنذارات اللنبى عام ١٩٢٤ ذلك الفصل الذى وضع أساسه كما شرحت بالأمس فى وفاق ١٨٩٩بين بطرس غالى ولورد كرومر وقبلته كل الحكومات المتعاقبة وإعترفت به رسميًا .

وجاءت معاهدة الشرف والأستقلال وكسبت مصر بموجبها ـ إن كان هذا يعد كسبا ـ تثبيت وفاق الفصل.. وفاق ١٨٩٩وتأكيد الإعتراف به من كافة زعماء مصر فى ذلك الوقت عدا رجال الحزب الوطنى وأيضا تأكيد وضع وسلطات الحاكم العام ملك السودان الحقيقى..!

على الورق فقط

وبقيت لمصر كلمة الحكم الثنائى على الورق. وأرسلت مصر بموجب المعاهدة خمسمائة جندى كقوة رمزية ثم سجنتها فى إحدى ثكنات الجيش المصرى السابقة فى الخرطوم ولم تخجل من وضع هذه القوة الرمزية تحت قيادة الحاكم العام.

وكسبت مصر وظيفة ياور مصرى عسكرى للحاكم العام!! وكسبت مصر وظيفة خبير إقتصادى فى السودان !!

واتفق الطرفان على ترك الأمر كما هو عليه فى السودان، أى أن تظل بريطانيا تحكم السودان وتقيم الحواجز وتبذر بذور الكراهية والحقد فى كل مكان. ويظل الحاكم العام يمثل كل السلطات ولا يقبل ولو مجرد كلمة أو إشارة من أى رئيس وزراء مصرى مهما كانت تفاهة هذه الكلمة..!

وتحضرنى بهذه المناسبة قصة أزمة خطيرة هزت كل الأوساط الرسمية المسئولة فى مصر وكانت تدور حول باب حديدى من أبواب الحاكم العام .

وإلى الغد لأروى لك تفاصيل أزمة البوابة الحديدية.

الهوامش

(٩٩) السير لى ستاك (بالإنجليزية: Lee Stack) ولد عام ١٨٦٨ سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام إبان الإحتلال البريطانى لمصر والسودان، وكان قد إغتاله أحد الوطنيين المصريين، وعقب مقتله أعلنت حكومة سعد زغلول أسفها عن الحادث ووعدت بعقاب المسئولين عنه. قتل فى ٢٠ نوفمبر ١٩٢٤. أما بريطانيا فقد إنتهزت الحادث وطالبت الحكومة بسحب الجيش المصرى من السودان وطالبت بتعويض نصف مليون جنيه مصرى، ورفض سعد زغلول وحكومته تلك المطالب واضطر إلى الاستقالة، لتخلفه وزارة زيوار باشا التى قبلت بالمطالب البريطانية.

ـ على شلبى ومصطفى النحاس جبر: مرجع سابق، ص ٢٧.

ـ مرسى أحمد إبراهيم حسين: أغتيال السردار السير لى ستاك وآثاره على الحركة الوطنية فى مصر والسودان حتى عام ١٩٣٦، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب الزقازيق، ١٩٨٦.

ـ مارسيل كولومب: تطور مصر ١٩٢٤: ١٩٥٠م، ترجمة زهير الشايب، مراجعة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، مكتبة مدبولى، القاهرة، ص ٥٥.

(١٠٠) اللورد موين: سياسى بريطانى من حزب المحافظين، ولُد عام ١٨٨٠، فى عام ١٩٤٤ عُين وزيراً مقيمًا لشئون الشرق الأوسط ومقره فى القاهرة. اغتاله يهوديان من عصابة شتيرن وفدا من فلسطين لهذه الغاية بأمر مباشر من إسحاق شامير فى ٤ نوفمبر بغرض إجبار بلاده على التسليم بالمطالب الصهيونية فى فلسطين..

(١٠١) الأهرام ٢١ نوفمبر ١٩٢٤.

(١٠٢) إدموند هنرى هاينمان اللنبى (بالإنجليزية، الفايكونت الأول اللنبى) ٢٣ ابريل ١٨٦١ ـ ١٤ مايو ١٩٣٦) ضابط وادارى بريطانى، إشتهر بدوره فى الحرب العالمية الأولى حيث قاد قوة التجريدة المصرية فى الاستيلاء على فلسطين وسوريا عامى ١٩١٧ و ١٩١٨. بعد تقاعده ١٩٢٥ عن العمل كمندوب سامى فى مصر عاد إلى إنجلترا ممارسًا هواياته وقضى فترة وجيزة كرئيس جامعة أدنبرة وتوفى فى ١٤ مايو عن عمر يناهز ٧٥ سنة ودُفن فى كنيسة وستمنستر.

ـ آرثر جولد شميت: مرجع سابق ص ٩١.

(١٠٣) رد سعد زغلول على الانذارين الموجهين إلى حكومته والمتضمنين المطالب سالفة الذكر بقبول ما يتعلق منها بالحادث فقط، ورفض بقية المطالب، وتقدم باستقالة وزارته إلى الملك فى ٢٤ نوفمبر

عام ١٩٢٤م.

على شلبى ومصطفى النحاس جبر: مرجع سابق ص ٢٧.

(١٠٤) لقد تبنت إنجلترا منذ بداية القرن العشرين سياسة إيجاد كيان يهود سياسى فى فلسطين قدروا أنه سيظل خاضعًا لنفوذهم ودائرًا فى فلكهم وبحاجة لحمايتهم ورعايتهم وسيكون فى المستقبل مشغلة للعرب ينهك قواهم ويورثهم الهم الدائم يعرقل كل محاولة للوحدة فيما بينهم. وتوجت بريطانيا سياستها هذه بوعد بلفور الذى أطلقه وزير خارجيتها آنذاك.

ولعل من أبرز الدلالات على الربط الإستراتيجى بين أهداف الحركة الصهيونية وأهداف الدولة البريطانية ما ذكرته صحيفة مانشستر جارديان فى عام ١٩١٦: كانت بلاد ما بين النهرين مهد الشعب اليهودى ومكان منفاه وجاء من مصر موسى مؤسس الدولة اليهودية وإذا ما انتهت هذه الحرب العالمية الأولى بالقضاء على الدولة العثمانية وأدت الحاجة إلى تأمين جبهة دفاعية فى مصر إلى تأسيس دولة يهودية فى فلسطين فسيكون القدر قد دار دورة كاملة وزارة الخارجية فى الثانى من نوفمبر / تشرين الثانى سنة ١٩١٧.

عزيزى اللورد روتشيلدو يسرنى جدًا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته التصريح التالى الذى ينطوى على العطف على أمانى اليهود وقد عرض على الوزارة وأقرته.

" أن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليًا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى".

وسأكون ممتنًا إذا ما أحطتم الاتحاد الصهيونى علمًا بهذا التصريح.

المخلص آرثر بلفور.

- عبد الرحيم عبد الرحيم: دراسات فى تاريخ العرب الحديث، دار الكتاب الجامعى، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٤٢٩، ومابعدها.

(١٠٥) عبد الخالق ثروت باشا (١٨٧٣ - ١٩٢٨) سياسى مصرى مهادن للانجليز. كان رئيس وزراء مصر فى عهد الملك فؤاد، تولى رئاسة الوزراء لفترتين من ١ مارس ١٩٢٢ إلى ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢ ومن ٢٦ ابريل ١٩٢٧ إلى ١٦ مارس ١٩٢٨. دخل فى مفاوضات مع الإنجليز للوصول إلى اتفاقية معهم.

- مشرفة محمد أحمد المليجى: عبد الخالق ثروت ودوره فى السياسة المصرية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩.

(١٠٦) تشمبرلن، نيفل (١٨٦٩ -١٩٤٠) رجل سياسى بريطانى. أصبح عضوًا فى البرلمان عام ١٩١٨، ثم وزيرًا للمالية، فرئيسًا للوزارة البريطانية عام ١٩٣٧ اتبع سياسة الترضية مع هتلر فى البداية معتقدًا أن ذلك سيمنع هتلر فى البداية من المطالبة بالمزيد من التوسعات وأنه بذلك لن يجر أوروبا إلى حرب واسعة النطاق. وكان آخر لقاء له مع هتلر فى نهاية صيف ١٩٣٨ فى برلين بعد إحتلال الألمان لمنطقة السوديت. ثم توصل إلى عقد اتفاقية ميونخ والتى تقضى بهدنة سياسية. ولكن ما تلاها من تطورات جعلت بريطانيا تقتنع أن كل الخطوات السابقة ما هى إلا

ترك المجال لهتلر بالاستعداد جيداً للحرب والقتال. وقدم تشمبرلن إستقالته من رئاسة الحكومة فى آبار ١٩٤٠ بعد الهزائم الأولى التى منيت بها بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية.

- منير البعلبكى: المورد، ص١٤١.

(١٠٧) محمد محمود باشا (١٨٧٧ - ١٩٤١) ولد محمد محمود باشا فى أسرة سياسية بمفهوم العصر، فقد كان أبوه محمود باشا سليمان وكيل مجلس شورى القوانين، ومن كبار ملاك الأراضى الزراعية فى الصعيد، ساحل سليم بأسيوط، حتى أنه ورث عنه ١٦٠٠ فدان، وقد أصبح رئيساً لـ حزب الأمة لدى تشكيله عام ١٩٠٧. وعين رئيساً للوزراء فى عهد فؤاد الأول وكان محمد محمود باشا شديد الاعتزاز بنفسه وكان يؤكد دائماً أن أباه محمود باشا سليمان قد عرض عليه ملك مصر قبل الملك فؤاد فأبى. أشتهر خلال وزارته الأولى التى شكلها عام ١٩٢٨ بصاحب "اليد القوية".

- أحمد عبد الرحيم: مرجع سابق، ص ٢٢١.

- لمعى المطيعى: مرجع سابق،جـ٢ ٢٩٣.

- آرثر جولد شميت: مرجع سابق، ص ٦٥٢.

(١٠٨) سياسى بريطانى من المدافعين عن نزع الأسلحة ولد فى ١٣ سبتمبر ١٨٦٣ فى مدينة غلاسغو لأب يعمل فى مجال الأقمشة وتوفى فى ٢٠ اكتوبر ١٩٣٥، ترأس حزب العمال البريطانى خلال ثلاث فترات قصيرة وهى: ١٩٠٨ - ١٩١٠ و ١٩١٤ - ١٩١٧ و ١٩٣١ - ١٩٣٢. شغل منصب وزير الخارجية بين ١٩٢٩ و١٩٣١. حصل على جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٣٤ لترأسه مؤتمر جينيف لنزع الأسلحة.

(١٠٩) راجع القضية المصرية: الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، ١٩٥٦.

(٧) الباب البريمو

وعدتك أن أحدثك عن أزمة الأبواب فى سراى الحاكم العام.. وهى الأزمة التى نشبت بين حكومة مصر والحاكم العام فى السودان قبيل الثورة ببضع سنوات وكانت تدور حول القائد المصرى فى الخرطوم، القائد الذى كان يقود الخمسمائة جندى مصرى الذين عادوا للسودان كرمز عقب معاهدة ٣٦ ووضعوا تحت قيادة الحاكم العام العليا.

الباب رقم "٢"

تقرر فى نظام البروتوكول فى سراى الحاكم العام أن يدخل القائد المصرى مع من يدخلون إلى السراى فى الحفلات الرسمية من الباب رقم ٢.

واحتج القائد المصرى وأصر على أن يدخل مع كبار المدعوين من الباب رقم ١ وبدأت مباحثات طويلة وتبادل للمذكرات بين القاهرة والخرطوم وصدرت الصحف المصرية تحمل أنباء الأزمة ساعة بساعة تثبت مدى حرص الحكومة المصرية وذودها ودفاعها عن حقوق مصر وكرامة مصر فى الخرطوم، وخيل للكثيرين فى مصر وقتها أن الحرب واقعة لا محالة بين مصر وبريطانيا، أو أن مصر على الأقل ستقدم على عزل الحاكم العام نتيجة تصرفه هذا .

الباب البريمو..!

وبعد أن استمرت أزمة الأبواب هذه بضعة أيام، إقتنعت بريطانيا ممثلة فى شخص الحاكم العام بأن القائد المصرى يجب أن يدخل فى حفلات الحاكم من الباب البريمو "رقم١" وكانت مصر قد خرجت قبل ذلك وبوقت طويل جدًا من كل الأبواب فى السودان وإنفصلت عنه إنفصالاً كاملا واقعيًا فى كل شئ.

الانفصال منذ ١٨٩٩

وعلى هذا وحول هذا كانت تدور دائما إنتصارات فى السودان.. مظاهر.. شكليات.. قشور.. كلها لا تقدم ولا تؤخر من الحقيقة الواقعة وهى أن السودان قد إنفصل منذ عام١٨٩٩ رغم إصرار كل الساسة المصريين على مواجهة شعب مصر فى كل خطبة سياسية أو حفلة إنتخابية أو خطاب عرش بأن السودان جزء لا يتجزأ من الأراضى المصرية.. لم يقولوا له قط أنهم باعترافهم بوفاق ١٨٩٩ قد قبلوا حكم إنجلترا وحدها واقعيًا للسودان ومكنوها خلال عشرات من السنين من فصم كل رابطة وتدمير كل علاقة بين القطرين وظل " هادلستون؛ و "روبرت هاو" وغيرهما من حكام السودان يخرجون ألسنتهم من سراى الحاكم العام فى الخرطوم إستهزاء وسخرية من قادة مصر وساستها الذين ما فتئوا يخدرون الشعب بهذه الألفاظ المعسولة ويضحكون عليه بتلك العبارات البراقة.

ظل هادلستون وروبرت هاو ملوكًا للسودان لا ينقصهم غير التاج ، ظلوا يكرسون كل إمكانيات الإمبراطورية فى تدعيم أسس الشقاق والكراهية فى نفوس السودانيين ضد كل ما هو مصرى.

أصبح التعليم فى السودان وخاصة فى مراحله العليا مطابقًا للبرامج البريطانية.

الشعر المستعار

وأصبح القضاء فى السودان دوائر من القضاء الإنجليزى حتى الشعر المستعار الذى يضعه القاضى الإنجليزى فى جلسات المحاكمة فى لندن، أصبح القاضى السودانى يضعه على رأسه فى محاكم الخرطوم وأم درمان وأصبحت شهادة القانون التى يحصل عليها الشباب السودانى من جامعات مصر لا تساوى فى السودان ثمن الورق الذى كتبت عليه ولا تؤهله لأحط وظيفة كتابية فى حكومة السودان .

وأصبحت قوة دفاع السودان التى خضعت للحاكم العام بالولاء منذ عام ١٩٢٤ وبعض بلوكات جيش الإمبراطورية فيما وراء البحار...

وقامت الحرب العالمية الثانية ووقفت مصر بجيشها على الحياد حتى إنتهائها وتفادت الزج بجيشها فى معارك هذه الحرب التى لم يكن لنا ولا للعرب ناقة فيها ولا جمل حتى بعد أن توغلت جيوش المحور فى الصحراء الغربية وأصبحت على مرمى البصر من الإسكندرية.

هذا بالنسبة لمصر وجيش مصر.. أما السودان "الجزء الذى لا يتجزأ من مصر" فقد أرسل جيشه لا ليرد عدوان الطليان فى منطقة كسلاً عام ٤٠ فحسب بل تحركت كل قواته بناء على أوامر بريطانيا التى إنفردت وحدها بحكم السودان إلى الكثير من ميادين القتال ..

السودان يدخل الحرب العالمية الثانية

حاربت قوات دفاع السودان والحبشة وفى الصومال وفى أريتريا وفى ليبيا وطرابلس وكل مناطق القتال التى نشبت فى شمال أفريقيا وحتى فى إيطاليا.

حارب السودان تحت الراية البريطانية وتحت القيادة البريطانية وبلغت القوات السودانية التى أشتركت فى هذه العمليات أكثر من ثلاثين ألف جندى من جنوب الوادى "الذى لا يتجزأ مطلقًا عن شماله"...

لم يصدر تصريح واحد.. أو كلمة واحدة من فم أى مسئول مصرى طوال هذه السنوات التى إستخدمت فيها بريطانيا جيش السودان خارج وادى النيل - أقول لم تصدر كلمة إحتجاج مصرية رسمية واحدة على هذا الإجراء الذى يثبت إمعان بريطانيا فى الفصل بين البلدين، بل ولم تكلف بريطانيا نفسها مجرد إخطار مصر عن هذا الإجراء بحكم إشتراكها ولو إسميًا فى تمثيلية أو مهزلة "الحكم الثنائى" الذى وضع أساسه كرومر مع بطرس غالى.

وأى فصل أشد وأنكى من هذا..! فقسم من الوادى يقف على الحياد والقسم الآخر يدخل الحرب .

قيود.. وتهجم!!

وأقيمت كل القيود.. أعنف القيود وأقصاها على تنقلات المصريين والسياسيين إلى السودان بحجة المحافظة على الأمن العام والصحة العامة..!

شجع الأنجليز كل تشكيل سياسى فى السودان يقوم بمهاجمة مصر والمصريين، أخذوا يصورون مصر بالدولة المستعمرة التى تريد أن تستغل السودان وتستعمره وتسوم أهله الظلم والهوان.

وجنود الإمبراطورية الخليعة يسرحون ويمرحون فى شوارع القاهرة والخرطوم يسكرون ويعربدون وينهبون ويسلبون ومصر أمة مستعمرة.. وبريطانيا الوديعة تحمى الحرية وإستقلال الأمم والشعوب بواسطة هؤلاء الجنود.. جنود الإحتلال والإنحلال..

ألم يقف المتحدث الرسمى بإسم وزارة الخارجية البريطانية منذ أسبوعين يعلن بأن بريطانيا قد ضحت بأجسم التضحيات وأغلاها من مال ورجال خلال حربين عالميتين من أجل إستقلال العرب .

جنوب.. وشمال

لم يكتف الحاكم العام بالفصل الكامل بين مصر والسودان.. بل قاموا بفصل جنوب السودان عن شماله وأقاموا ستارًا حديديًا هائلاً حول غابة الجنوب وإحتفظوا بها كحديقة حيوانات ضخمة (١١٠) . .

وصدرت التشريعات التى تحمى حيوانات الغاب من سكان الغاب ليستمتع بالصيد والقنص الحاكم العام ورجال الإمبراطورية..

أبشع جريمة

حمى الحاكم العام تلك الحيوانات من الإنقراض وترك سكان هذه الغابة وهم أكثر من ثلاثة ملايين آدمى فى أحط الظروف التى مر بها بشر منذ خلق البشرية .. حرم عليهم إرتداء الملابس.. حرم عليهم الدخول فى دين الإسلام، دين شعب الشمال ومعظمهم وثنيون، حرم عليهم التكلم باللغة العربية.. حرم عليهم رؤية الشمال والشماليين .. كما حرم على الشماليين رؤية الجنوب والجنوبيين. (١١١)

الإنجليزية فى مؤتمر عربى

وعلى ذكر تحريم إستخدام اللغة العربية وتعليمها فى الجنوب تذكرت زعيما من زعماء الجنوب وصل فى ظل الحكم الوطنى والإستقلال إلى منصب "عضو لجنة السيادة" التى تمثل الآن رأس الجمهورية السودانية وهو السيد سير بسيوايرو ومنذ شهرين كان السيد سيريسيو يرأس مجلس السيادة هذا.. وكان العرب يفكرون وقتها فى عقد إجتماع على مستوى عال يضم ملوك ورؤساء العرب.. تذكرت وقتها أن هذا الإجتماع لو تحقق وحضر فيه الملك سعود مع جمال عبد الناصر مع الملك حسين وبقية الملوك والرؤساء كان سيضم حتما السيد سيربسيوايرو كرأس للسودان وتذكرت يومها أن مثل هذا الإجتماع لو حدث يحتم إستخدام اللغة الإنجليزية بجانب اللغة العربية حتى يتم التفاهم بين الجميع.. جميع ملوك ورؤساء العرب، لقد ذكرت هذا المثل لكى أدلك على مدى الهوة التى أقامها الإنجليز بين شمال السودان وجنوبه خلال خمسين عامًا.. فأصبحت الإنجليزية لغة التفاهم بدلا من العربية بين أبناء شعب واحد وأمة واحدة.

حدث كل ذلك باسم حماية الجنوب من الشمال.. تمامًا كما فعلوا فى علاقات مصر بالسودان.. فصلوا السودان ليحموه من مصر الدولة الباغية المعتدية المستعمرة.. ولكن مهلاً.

اطمئنان بالوحدة

لقد كسب حكام مصر جولة كبيرة فى السودان.. فقد عادت صلة مصر بالسودان لقد عادت الثقة بين شعبى وادى النيل.. لقد كادت أن تندمج الأمتان فى أمة واحدة ووطن واحد ..لقد عرفت مصر وفاق الفصل.. وفاق سنة ١٨٩٩ وتحدت إنذارات اللنبى لسعد زغلول.. لقد عاد كل شئ لمصر فى السودان كما كان.. لقد دخل القائد المصرى من الباب نمرة ٢.. فليطمئن الشعب المصرى، فليطمئن على مصير واديه الذى لن يتجزأ أبدًا، فليطمئن لأن حكامه "أعدوا لكل أمر عدته"!.

لتخرج المظاهرات وليسقط الشباب صرعى بالرصاص تحت أقدام رجال البوليس.. وليسقط شباب الجامعات من فوق كوبرى عباس..!

لم يقف سياسى واحد فى الحكم ليواجه الأمر بشجاعة وهو أن مصر منذ زمن طويل وطويل جدًا لا تملك فى السودان غير قطعة من القماش خضراء اللون بها هلال وثلاثة نجوم ترتفع على سارية تعلو قصر الحاكم العام.. وهذا العلم كل ما كانت تملك مصر..

لم يقف سياسى واحد ليواجه هذا الأمر ويواجه هذا الواقع وليصارح الشعب بأن الأمور لا يمكن أن تعود إلى ما كانت عليه قبل عام ١٨٩٩ قبل أن يوقع بطرس غالى وفاقه المشئوم وقبل أن يوقع الوردانى(١١٢) رأيه . ورأى الشعب ـ فى بطرس غالى بالرصاص..!!

كيف واجهت الحكومة المصرية هذا الموقف؟

وإنى أذكر على سبيل المثال مفاوضات صدقى (١١٣) ـ بيفن (١١٤) عام ٤٦ التى سبقتها عشرات المفاوضات والإتصالات بين القاهرة ولندن لحل قضية السودان..

ذهب صدقى سنة ١٩٤٦ ليفاوض بيفين فى لندن ومحاولاً فى فندق كلاريدج أن ينجح بكل ما أوتى من مقدرة وخبرة ولباقة ودهاء أن يحصل على كلمة.. لفظ.. تعبير واحد يكون بمثابة مورفين جديد للشعب المصرى الذى عاش نصف قرن وهو فى وهمه الكبير بأن السودان جزء من مصر وأن مصر جزء من السودان بعد أن أخفى عنه كل الحكام فى القاهرة طوال هذه المدة حقائق ما جرى ويجرى فى الجنوب خشية الإصطدام بالإنجليز وفقدان كرسى الحكم. -

سياسة التسليم

لقد سلم صدقى لبريطانيا بكل سلطانها وجبروتها ونظامها فى السودان..! أقر بأن تبقى الأمور على ما هى عليه فى السودان.

تستمر للحاكم العام سلطاته المطلقة: يحكم طبقًا لسياسة بريطانيا.. يستمر المديرون البريطانيون يحكمون الشعب السودانى فى كافة المديريات.. ويستمر الجنوب منفصلاً عن الشمال.. وتستمر القوات البريطانية تحتل السودان إلى أجل غير محدود.. تدق شوارع الخرطوم وأم درمان بنعالها الغليظة وعجرفتها المتغطرسة..

لقد سلم صدقى لبريطانيا بحقها فى زيادة قواتها فى السودان فى أى وقت تريد وبأى نسبة تشاء.. وأنا لا أتجنى على صدقى ولا أظلمه ، فكل السياسيين الذين سبقوه فى مفاوضتهم كان هذا تفكيرهم حول قضية السودان.

لقد كان صدقى يريد المخدر.. يريد الكلمة.. يريد اللفظ.. ولم يخجل لحظة واحدة من مواجهة المفاوض البريطانى بوصف طلب مصر الوحيد بأنه رمزى.. إنه يريد فقط "علاقة رمزية" وهذا الذى أقوله أنقله لك من واقع المحاضر الرسمية لهذه المفاوضات.

تضليل الشعب

ولكن هل علم الشعب المصرى بكل ذلك..؟ هل علم بهذه الحقائق..؟ أبدًا.. إن هذه المحاضر وما جاء فيها قد طوتها مقابر وزارة الخارجية المصرية وما أكثر ما طوت..

ولكنه واجه الشعب عندما عاد من لندن.. واجه الشعب المضلل المخدوع المسكين بأنه حقق الوحدة وعاد بالسيادة فى الوقت الذى كانت فيه السيادة على مصر نفسها فى يد لندن.. لم يقل لهم أبدًا أن أقصى ما طالب به وسجلته المحاضر هو "علاقة رمزية"؟ "رمزية فقط".

الرمزية:

وأترك لك يا أخى أن تبحث فى مختار الصحاح أو المحيط أو لسان العرب عن معنى كلمة "رمزية" فربما كانت تعنى وأنا لا أدرى وحدة الشعبين.. ووحدة وادى النيل وقيام أمة واحدة ودولة واحدة وسياسة واحدة وجيش واحد. ربما كانت تعنى كل هذا وأنا وأنت لا ندريا ولكن ماذا كان لإنجلترا فى مقابل هذه الرمزية

.. فى مقابل وحدة التاج.. لم ينس أن يؤكد صدقى كما أكد كل سياسى ـ وأقول كل سياسى سبقه فى الحكم ـ حرصه على قبول وفاق الفصل سنة ١٨٩٩.

ورغم الرمزية التى طالب بها صدقى ومن سبقوه فقد قبل أن يزول هذا الرمز بعد التفاهم مع السودانيين أنفسهم فى المستقبل.. حتى هذا الرمز يمكن أن يزول فى أى وقت.

وأحب أن أؤكد لك يا أخى أننى لم أقصد أن أعرض بصدقى ولكننى قدمته لك إذ كان من المعروف عنه أنه شجاع فى مواجهة الرأى العام!! ولا يعبأ كثيرًا بالرأى العام واتجاهاته ورغم شجاعته هذه فإنه لم يواجه الشعب أبدًا بحقيقة الأمور فى السودان وحقيقة ما وصل اليه الحال بين البلدين .

وفدان فى مجلس الأمن

جاء النقراشى[115].. ووقف أمام مجلس الأمن ساعات وأيامًا يطالب بجلاء الانجليز عن وادى النيل كله مصره وسودانه.. بح صوته أمام أعضاء المجلس الذين ركبتهم الحيرة وهم يرون وفدين سودانيين أحدهما يقف بجوار النقراشى والآخر يعلن فى أروقة المجلس أن النقراشى لا يمثل السودان، والسودان لا يقبل حجج مصر وأسانيدها ويطالب بالإستقلال عن مصر وإنجلترا وتقرير مصيره.. إحتار أعضاء مجلس الأمن ولم يعلن عضو واحد من أعضائه عن وقوفه بجوار النقراشى فى مطالبته بوحدة الوادى وعلق المجلس القضية كما هو معروف حتى تم شطبها بعد قيام الثورة وجلاء الإنجليز عن مصر والسودان..

مجلس.. وجمعية

إستمر الإنجليز فى خلق الكيان السودانى المنفصل تمامًا عن مصر . ففى عام ١٩٤٤ أنشأوا مجلسًا إستشاريًا لشمال السودان قام بدور البرلمان الهزيل المعين. وفى عام ٤٨ أقاموا جمعية تشريعية تقوم بنفس الدور .

وقامت حكومات مصر وقعدت وشدت شعر وزرائها ولطمت خدود برلماناتها.. السودان جزء من مصر ولا يحق لبريطانيا أن تقيم فيه كيانًا منفصلاً عن مصر

.. ولكنهم نسوا أو تناسوا أن هذه الشكليات قد سبقتها منذ أمد طويل حوادث موضوعية هائلة أخطر كثيرًا من هذه الشكليات وسكتوا عن الموضوع أخيرًا جاءوا يحتجون على الشكل.

لم تهتز شعرة واحدة فى جسد صاحب الجلالة الحاكم العام فى السودان من جراء صراخ مصر وإحتجاجها، وما أن جاء أبريل عام ٥٢ حتى أقدمت بريطانيا على إخراج الدور الأخير من المهزلة التمثيلية التى بدأ فصلها الأول فى يناير عام ١٨٩٩ أقرت بريطانيا مشروع دستور يعطى للسودان حق تقرير مصيره سواء رضيت مصر أو لم ترض كما حدث فى مشاريع ٤٤ و٤٨ الدستورية .

تقرير المصير

ووقف إيدن [١١٦] فى مجلس العموم يعلن بإسم بريطانيا أنها لا تمانع فى أن يعلن السودان عن مستقبله ويقرر إستقلاله ومصيره خلال عام ١٩٥٢ولكنه لم يشر بحرف واحد عن إحتمال خروج بريطانيا بجيوشها وإداريها وموظفيها ونفوذها من السودان.. أى أن يستقل السودان فى ظلهم.. وفى كنفهم.. وتحت رايتهم.. وأرسل مشروع هذا الدستور كالمعتاد إلى كل من مصر وبريطانيا فى مايو عام ٥٢..

وفى مصر أخذ هذا المشروع طريقه فى درج مظلم من أرشيف وزارة الخارجية .. ومر شهر وشهران وثلاثة ولم تقل حكومة مصر كلمة فيه.. لم تجب بنعم أو لا.. لم ينتظر الحاكم العام كلمة مصر وكأن هذه الكلمة كما إعتاد دائمًا لا تعنيه.. ألم ينفذ كل مشاريعه فى الماضى رغم إعتراضات مصر؟!

بدأت إجراءات الإنتخابات التى تتبع تنفيذ هذا الدستور تسير على قدم وساق فى ربوع السودان.. وأخذ روبرتسون السكرتير الإدارى يجوب فى مديريات السودان ويتحدث الى زعماء القبائل بلغاتهم ولهجاتهم ويجسم لهم الأحلام التى تنتظر السودان فى العهد الجديد الذى سيعقب هذا الدستور..

وفجأة وعلى غير ما تتوقع حكومة القاهرة وحكومة لندن قامت الثورة، ثورة ٢٣ يوليو وكل هذه الظروف تحيط بمصر وقضية السودان.. فماذا فعلت الثورة وكيف واجهت الموقف فى جنوب الوادى؟!

لعلنى فى الحلقة القادمة أستطيع أن أزيح لك الستار عن جانب من تاريخ الثورة تجاه قضية السودان..

الهوامش

(١١٠) راجع فى ذلك محمد عمر البشير: مشكلة جنوب السودان، ترجمة هنرى رياض والجنيد على عمر، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٧.

(١١١) عملت بريطانيا على فصل شمال السودان عن جنوبه عام ١٩٠٤م، ومنعت الشماليين من دخول المديريات الجنوبية الثلاثة، وفى عام ١٩٢٢م صدر قانون المناطق المقفولة الذى يمنع الشماليين من دخول المديريات الجنوبية وجبال النوبة فى كردفان وبعض مناطق فى الغرب، إلا بترخيص، ومنعهم من العمل إلا بإذن، ويضع القانون قيودًا ثقيلة على إنتقال أهل هذه المناطق إلى الشمال.

ـ محسن محمد: مرجع سابق، ص ٩.

(١١٢) المقصود إبراهيم الوردانى الذى إغتال بطرس غالى.

(١١٣) جسد إسماعيل صدقى باشا البرجماتية بكل أبعادها وبفهم كامل وبلا مواراة فإسماعيل صدقى هو ذات الرجل الذى كان من بين الأربعة الذين تم نفيهم إلى مالطة من قبل سلطات الحماية فى مارس ١٩١٩ والذين كان نفيهم إيذانًا بتفجر الثورة وهو أيضًا نفس الرجل الذى التحف بحماية دار المندوب السامى خلال العهد الذى عرف باسمه بين عامى ١٩٣٠و١٩٣٢. وإسماعيل صدقى هو الذى أبطل الدستور ١٩٢٣ الذى شايعه الوطنيون ووضع بدلا منه دستورًا على المقاس الملكى هو دستور ١٩٣٠.

ـ إسماعيل صدقى: مذكراتى، تحقيق د. سامى أبو النور، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩١.

ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق ص ١٢٥.

ـ آرثر جولد شميت: مرجع سابق ص ٤٠١.

(١١٤) بيفن، إرنست bevan١٩٥١ ـ ١٨٨١، زعيم حزب العمال البريطانى، ورجل دولة، بدأ حياة مهنية طويلة وتجارة، المسئول النقابى عندما أصبح أمينًا عامًا لنقابة عمل الميناء فى عام ١٩١١. أصبح سكرتيرًا عامًا للاتحاد العمالى العام من ١٩٢٥ حتى ١٩٤٠. بيفن لعب دورًا قياديًا فى تنظيم الإضراب العام لعام ١٩٢٦، ولكن بعد فشل الاضراب الذى كان يعمل لتحقيق مزيد من التعاون بين العمال وأرباب العمل. وكان لديه نفوذ كبير فى الحياة السياسية لحزب العمل، تولى وزير النقل للعمل ثم وزيرًا للخارجية فى حكومة حزب العمال فى عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٥١، بيفن كرسّ نفسه لبناء قوة فى أوروبا الغربية فى تعاون وثيق مع الولايات المتحدة وساعد فى إرساء

الأسس لمنظمة حلف شمال الأطلسى. وقال أنه يحبذ إقامة دولة اتحادية بين العرب وإسرائيل فى فلسطين.

- منير البعلبكى: قاموس المورد، ص ١٣٠.

(١١٥) سبق الترجمة له.

(١١٦) أنطونى إيدن، (مواليد ١٢ يونيو ١٨٧٩ - وفيات ١٤ يناير ١٩٧٧) - رئيس الوزراء البريطانى الأسبق، شغل منصب وزارة الخارجية فى وزارة الحرب التى ألفها تشرشل ١٩٤٠ - ١٩٤٥م، ثم تولاها مرة أخرى ١٩٥١ - ١٩٥٥، ثم عُين رئيسًا لوزراء سنة ١٩٥٥، كان المحرك الأكبر لتحالف بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فى شن العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ على مصر. وإستقال بعدها.

(٨) نص قرار مجلس الثورة بشأن السودان

قصة الحاكم الهارب

سير نوكس يرجو العودة لإستلام ملابسه

قامت الثورة ورويت لك الظروف التى قادت إلى حملى لعبء قضية السودان، تلك القضية التى أصبحت جزءًا منها.

لن أستطيع أن أروى لك قصتى كاملة، تلك القصة التى وعدتك بسرد حلقاتها دون أن أتعرض لقصة السودان، قصة الثورة مع السودان. كان علينا بعد قيام الثورة بأيام قلائل أن نعين الغرض وأن نحدد الهدف الذى نعمل ونجاهد ونكافح فى الوصول إليه .

تنفيذ سياسة الثورة

عرض الأمر برمته على مجلس قيادة الثورة الذى إجتمع بكامل هيئته بمبنى القيادة العامة بكوبرى القبة . وكنا فى منتصف شهر أغسطس عام٥٢ تلك الجلسة التى وكل إلى فيها المجلس أمر تنفيذ السياسة التى تم وضعها فى نفس الجلسة بعد إستعراض دقيق لموقف القضية.

لم يكن أمام مصر سوى طريقين إثنين لا ثالث لهما..

الطريق الأول

وهو أن نستمر فى سياسة مصر السلبية الماضية ونعارض مشروع الدستور الذى يوشك الحاكم العام على تطبيقه فى شهر نوفمبر عام ٥٢ ذلك الدستور الذى يمكن السودان من حكم ذاتى وبعد شهور قلائل من تطبيقه يمكنه من إعلان

إستقلال زائف تستطيع بريطانيا بمعاونة حلفائها من تسجيله وتوكيده بلغة القانون الدولى العام وتظل بريطانيا فى السودان كحليف له، كما بقيت فى مصر كحليفة لها بحكم احتلالها بعد إعلان إستقلالها بسنوات طويلة، وكما فعلت فى أكثر من عشر دول خلال هذا القرن العشرين لم تنل من الإستقلال سوى اللفظ ولا زالت تطبق نفس الأسلوب إلى يومنا هذا فى مفاوضاتها الجارية الآن مع ساحل الذهب (١١٧) فى أفريقيا.

التلويح بالوثائق

وكان علينا أن نقبل هذه النتيجة إذا ما إتخذنا هذا الأسلوب، أسلوب التلويح بالوثائق والحجج التاريخية والأسانيد القانونية فى المحافل الدولية التى جربناها عام ٤٧ فى نفس القضية فلم نجد أذنا صاغية من أحد وأكرر أننا لم نحصل على سند من مخلوق فى مجلس الأمن عند عرض قضية السودان فى هذا العام وإن حصلنا على تأييد البعض فى قضية القنال وكانت حكومة الوفد حينما يئست من بلوغ أى هدف فى مفاوضات بيفين - صلاح الدين عام ٥١(١١٨) تلك المفاوضات التى دامت حوالى ثمانية عشر شهرا كانت قد لوحت على لسان وزير خارجيتها الدكتور صلاح الدين بفكرة الإستفتاء فى السودان إذ قال صلاح الدين بالحرف الواحد فى محضر هذه المفاوضات ما يلى:

"وأود فى هذا الصدد أن أسألكم هل توافقون على إستفتاء يجرى الآن فى السودان وتتوفر له الشروط والضمانات اللازمة لإستفتاء حر يجرى تحت إشراف محايد وفى طليعة هذه الشروط بالطبع جلاء القوات البريطانية والإدارة البريطانية عن السودان".

ولكن صلاح الدين عاد فى الجلسة التالية مباشرة وتجاهل هذا الإقتراح وعاد يطالب بريطانيا ويستجديها بالتاج والوحدة منتهجا نفس أسلوب المفاوضات الطويلة السابقة والأسلوب الذى يمكن الإنجليز من الوصول بالسودان إلى الوضع الذى شرحته عند قيام الثورة إذ أصبحوا على وشك إعلان إستقلال زائف عملوا له طوال خمسين عامًا بعد أن نجحوا فى فصم كل الروابط التى كانت بين البلدين قبل وفاق الفصل.. وفاق عام ١٨٩٩.

هـذا طريق كان يمكن لمصر أن تتبعه لتواجه بعد شهور معدودات السودان المنفصل عن مصر والمستقل استقلالاً زائفًا والخاضع لحكم بريطانيا وإحتلالها...

الطريق الثانى

أما الطريق الثانى فكان ينحصر فى تركيز كل الجهود لتعديل مشروع الدستور ليعطى أكبر قسط من السلطات للشعب السودانى وحكومته بدلاً من الحاكم العام ومعاونيه والإصرار على خروج الإنجليز من السودان فى أقرب فرصة ممكنة وليقرر شعب السودان بعد ذلك مصيره بمحض إختياره بعد زوال كل أثر للإنجليز إذ كان من المضحك أن نطالب الإنجليز بأن يعترفوا لنا بشكل العلاقة بيننا وبين السودان دون الرجوع للسودان نفسه فإن قرر السودان بعد خروجهم إتحادًا مع مصر فأهلا وإن قرر إستقلالاً نكون قد كسبنا سودانا مستقلاً استقلالاً كاملاً حقيقيًا يتحكم فيه الإنجليز ويحتلونه. بهذا الأسلوب نكون قد قلبنا خطط بريطانيا التى نفذتها ودبرتها طوال خمسين عامًا لتركز أقدامها فى جنوب الوادى متظاهرة أمام العالم بحمايته من أمه شمال الوادى.

لم يتردد مجلس قيادة الثورة لحظة واحدة فى قبول الطريق الثانى، فقضية إخراج المحتل من السودان دون أن نتوسل إليه فى معاونتنا فى تكييف أمور وادينا، قضية يشرفنا أن نتبناها وأن ندافع عنها ونكافح فى سبيل إنجاحها يعضدنا فيها شعب السودان على بكرة أبيه وتقف معنا فى المعركة الشعوب الحرة فى العالم كله، الحرة التى تحررت، والحرة التى تسعى لكى تتحرر...

حق تقرير المصير

وحدد مجلس قيادة الثورة الغرض الذى وكل إلى أمر العمل على الوصول إليه بما يلى بالحرف الواحد:

أولا: الإعتراف بحق السودان فى تقرير مصيره ووقف سياسة إستجداء بريطانيا فى أمور علاقتنا بالسودان، هذه الأمور التى لا تملك بريطانيا قانونا وشرعا أمر البت فيها.

ثانيا: زوال الحكم الإنجليزى المدنى والعسكرى من السودان شرط أساسى لممارسة السودانيين لحق تقرير مصيرهم.

ثالثا: العمل على تعديل مشروع الدستور المقدم من الحاكم العام ليضمن أكبر قدر ممكن من السلطات للسودانيين خلال فترة الإنتقال التى تمهد لتقرير المصير.

لقد تم فى هذه الجلسة التاريخية إقرار أعظم وانبل مبدأ، وأصبحت المعركة، معركة تحرير للسودان ومحو لإحتلال طويل وإستعمار بشع تركز أكثر من نصف قرن فى بقعة غالية من وادى النيل .

إذن لم تعد المعركة معركة إستجداء لرمز يتصدق به علينا بيفن أو إيدن فى مقابل إبقاء الإحتلال. ذلك الرمز الذى لم تملك بريطانيا فى حقيقة الأمر فى لحظة من اللحظات حق منحه أو منعه كما قرر مجلس قيادة الثورة فى قراره التاريخى .

وشتان بين المعركتين، معركة التحرير ومعركة الإستجداء، إستجداء المخدر والمورفين للشعب المضلل الذى خدعوه طويلا إبقاء على كراسى الحكم.

وهنا وقبل أن أدخل فى أى تفصيل أحب أن أتساءل.. هل استطعت السير بالقضية فى الطريق الذى آمنت به وحدده مجلس الثورة فى جلسته التاريخية يوم ١٥ أغسطس فى حجرة المؤتمرات الفسيحة من مبنى القيادة العامة..؟

تعالى معى إلى الخرطوم

تعال معى إلى الخرطوم يوم إعلان إستقلال السودان.. يوم ذهبت كمواطن لأهنئ أشقائى ولم أكن يومها عضوا فى مجلس الثورة ولا وزيرًا للدولة.

وكنت أتمنى أن تكون معى فى هذا اليوم وفى العاصمة المثلثة لترى أرض السودان وقد خلت من كل أثر من آثار جنود الإحتلال الأجنبى إلا من ثكنات خالية تشير إلى ماض قريب وماض سحيق.

ولترى معى أجهزة السودان الإدارية وجيشه الوطنى وقد خلا من حكام وقواد الإمبراطورية.. وقضاء السودان وقد تطهر نهائيا من قضاة الإنجليز ومستشاريهم هؤلاء الذين لم يكونوا يومًا من الأيام قضاة ولا مستشارين.

قصر المؤتمرات

وتعال معى إلى قصر الحاكم العام فى الخرطوم.. القصر الذى تمت بين جدرانه مئات المؤتمرات التى حيكت ودبرت ضد وادى النيل وحريته وسيادته دبرها الملوك المؤلهون من حكام السودان البريطانيين الذين أذلوا كبرياء كل حكومة قامت فى القاهرة خلال خمسين عامًا.

وهروب آخر ساكن فيه

ذلك القصر الذى هرب منه آخر حاكم عام شهدته الخرطوم تاركًا خلفه ملابسه وحاجياته الخاصة كما شهد ألسنة لهيب النيران التى أشعلها بنفسه مستر لوس مستشار الحاكم الهارب لتأتى على وثائق وسجلات المؤامرات وأسرار الإحتلال والإستعمار.

لا يمكنك أن تتصور مبلغ تلك السعادة الهائلة التى شعرت بها والرئيس إسماعيل الأزهرى يروى لى قصة صغيرة فى اليوم التالى من وصولى إلى الخرطوم بعد إعلان الإستقلال وكنت أزوره فى مكتبه برياسة مجلس الوزراء..

الحاكم العام ينسى ملابسه

لقد قص علىّ قصة الإشارة العاجلة التى وصلته ـ قبل أن أصل إلى مكتبه بلحظات ـ وصلته من الحاكم العام السابق يطلب فيها منه السماح بالحضور ليوم أو يومين على الأكثر لجمع ملابسه وحاجياته الخاصة التى تركها فى قصره السابق ولكن الرئيس الأزهرى قرر رفض هذا الطلب واعدًا الحاكم السابق بأن مندوبًا من قبل حكومة السودان سيشرف بنفسه على جمعها ويتولى إرسالها إليه فى لندن.. مؤكدًا له أن الحكومة السودانية مسئولة عن تعويضه عن أى شئ يفقده من حاجياته الخاصة !.

الآية تنقلب

سبحانك ربى.. تعز من تشاء وتذل من تشاء.. سبحانك يا من تغير ولا تتغير.. "نوكسهولم" الحاكم العام خليفة كتشنر(119) وهادلستون (120) وروبرت هاو(121) يستأذن رئيس وزراء السودان فى زيارة للخرطوم ليوم واحد فيرفض رئيس الوزراء ويمنعه من دخول الخرطوم ويحنى نوكسهولم رأسه أمام شعب السودان..!

ولكنه يعود فيطلب شيئًا آخر من حكومة السودان.. طلبًا خاصًا هو تسوية مكافأته فيجيب رئيس الوزراء له هذا الطلب ويقدر له مكافأة ألف جنيه عن خدماته.

نوكسهولم خليفة السير لى ستاك الذى قتل عام ٢٤ فاهتزت الإمبراطورية وهددت وأنذرت وزمجرت وركلت وصفعت وطلبت نصف مليون جنيه كتعويض عاجل وثمن لرأس الحاكم الطائر. ولم تكتف بذلك بل فرضت العقوبات المهينة على مصر وعلى السودان .

سبحانك ربى نحمدك ونشكر فضلك.

انتهاء بريطانيا من السودان

إذن لقد إنتهت بريطانيا من السودان وتحقق الهدف الذى وضعه وحدده مجلس قيادة الثورة فى إجتماع ١٥ أغسطس سنة ١٩٥٢أما أمر الإتحاد بين السودان ومصر فلم يكن فى يد مصر أو أية قوة فى العالم أن تقرره لقد كان بيد السودان وبيدهم وحدهم أن يقرروا شكل الصلة بينهم وبين مصر.

لقد قبلت مصر مبدأ تقرير السودان لمصيره ومستقبله بعد أن يجلو عن السودان كلية النفوذ الإنجليزى والحاكم والإستعمار الإنجليزى. وقد تحقق كل هذا.

بينى وبين الحكومة الوطنية

ولكن هل يعنى ذلك أن الطريق كان سهلاً ممهدًا وأن السماء كانت صافية جميلة.. هل يعنى ذلك أن الأزمات إنحصرت بين مصر وإنجلترا فقط، وأن أزمة

واحدة لم تحدث بينى وبين حكومة الخرطوم السودانية أو بينى وبين بعض أحزاب السودان وطوائفه ؟.. لم أقل ذلك أبداً .

إن الحقيقة التى لا يمكن إخفاؤها أن شهورا طويلة مرت بنا تحمل فى طياتها الكثير من الخلافات والأزمات والعواصف بينى وبين حكومة الخرطوم.

ما سر هذه الخلافات؟ وما سر هذه الأزمات؟ وما قصة هذه العواصف؟ وماذا كان موقفى من حكومة الخرطوم؟ وماذا كان موقف حكومة الخرطوم منى؟ وماذا كان موقف الإنجليز من هذه الخلافات؟ وكيف إستغلوها وكيف أوشكوا فى أكثر من مرة تحطيم كل ما تم وأنجز من خطوات إجلائهم وإخراجهم ليعودوا إلى جنوب وادى النيل وليسيطروا على المليون ميل مربع فى قلب أفريقيا ؟.

هذا ما سأبدأ فى شرحه وتوضيحه إبتداء من الغد..

الهوامش

(١١٧) ساحل الذهب هو الآن غانا أو جمهورية غانا هى جمهورية إفريقية على الساحل الشمالى لخليج غينيا الواقع فى غرب إفريقيا، تحدها بوركينا فاسو من الشمال، وتوغو من الشرق، وساحل العاج من الغرب. هى دولة محورية فى غرب أفريقيا. إستقلت عن بريطانيا عام ١٩٥٧م، لغتها الرسمية هى الإنجليزية وعملتها هى السيدى.. إسمها الحالى سمى على إسم الدولة التاريخية المعروفة بإمبراطورية غانا بالرغم من عدم وقوعها ضمن حدود تلك الدولة.

(١١٨) ولد فى مدينة طنطا عام ١٩٠٢م، انخرط منذ شبابه فى الحركة الوطنية وانتمى لحزب الوفد، فى عام ١٩٥٠ تم تعيينه وزيرًا للخارجية، وخلال المفاوضات التى جرت بين مصر وبريطانيا عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ أحرز شعبية كبيرة، بسبب مواقفه الوطنية وتمسكه بحقوق بلاده.

ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى: مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(١١٩) سبق الترجمة له.

(١٢٠) السير هيوبرت هدلستون الحاكم السابع البريطانية للسودان فى الفترة من ١٩٤٠ ـ ١٩٤٧م.

(١٢١) تخرج من جامعة كمبردج، وعُين سكرتيرًا ثالثًا بوزارة الخارجية البريطانية وعمره ٢٦ سنة، تنقل بين السفارات البريطانية فى كوبنهاجن، وبلجراد وريودى جانيرو، وبوخارست، وعُين مستشارًا فى بكين، ثم وزيرًا مفوضًا فى أديس أبابا، ومنها إلى منصب الوكيل المساعد للخارجية البريطانية، حتى إستقر فى منصب الحاكم العام للسودان عام ١٩٤٧م، وكان الخطأ الأكبر الذى وقع فيه هو إحتفاظه بعلاقة قوية مع السيد عبد الرحمن المهدى الذى ينادى بإستقلال السودان مما أثار عليه حفيظة مصر وخصوم المهدى من السودانيين محسن محمد: مرجع سابق، ص٥٢.

(٩) إنجليزى من أصل فرعونى

الصورة التى أدخلت وفد أوغندا السجن

الإنجليز العاملون للإتحاد.. والإنجليز العاملون للانفصال

طوال سنوات ثلاث إحتلت أخبار السودان وأخبار المعارك التى دارت فى أرضه والتى دارت فى القاهرة من أجله، مكان الصدارة فى كافة صحفنا وشغلت أذهان الرأى العام فى مصر إلى حد بعيد، ولا شك أنك لمست من خلال السطور التى نشرت والأخبار التى أعلنت طوال هذه المدة أن أزمات عديدة قد حدثت وإن كنت لم تستطع فى معظم الأحوال أن تجد لها تعليلاً كافيًا أو أن تستشف ما وراءها من حقائق ومعلومات شافية.

كثيرًا ما فوجئت وأنت تطلع فى الصباح على جريدتك بأخبار لم تكن تتوقعها من قراءتك لجريدة اليوم السابق.

تقلبات خطيرة فى كل شئ لابست هذه القضية منذ بدئها، ولم أكن أستطيع وقتها أن أشرح لك أسباب هذه التقلبات ودوافعها.

أسرار لا تذاع

فهناك حقائق تواجه كل سياسى يستحيل عليه أن يعلنها أو يتعرض لها ولو من بعيد وقت حدوثها، وقد لا يستطيع الكشف عنها إلى زمن بعيد، بل وربما إلى أبد الآبدين. فكم من أسرار رقدت فى القبور جنبًا إلى جنب مع أصحابها ولم يتح لها قط فرصة البعث والحياة وأنا وإن كنت أعمل الآن كصحفى ويستهوينى نشر الأسرار المثيرة والحوادث الغامضة، إلا أنى قد أضطر اضطرارا إلى إغفال بعض الحوادث والحقائق كما قلت لك فى أول خطاب لأنها أقوى منى ومن قلمى. ونشر مثل هذه الحوادث والحقائق قد يؤذى المصلحة العامة ويعرضها لضرر بالغ..!

الجو الحر المحايد

سأقص عليك فى خطابات متوالية المراحل التى مرت بها قضية السودان بعد أن حدد مجلس قيادة الثورة الهدف الذى نقصده والطريق الذى نسلكه.

وأرجو من الله أن تكون الحساسية الشديدة قد زالت من نفوس بعض إخواننا السودانيين بحسم القضية وإنتهاء مرحلة تقرير المصير وإعلان إستقلال السودان من البرلمان الذى تم فى أول يناير سنة ١٩٥٥. فلن يستطيع أخى السودانى مهما بلغت حساسيته فى الماضى أن يتهمنى اليوم بمحاولة التأثير على (الجو الحر المحايد) تلك الجملة التى كانت تذكر يوميًا مئات وآلاف المرات فى الصحف المصرية والسودانية والبريطانية وغيرها خلال معركة تقرير المصير .

عقد ومشاكل

لقد جاءت هذه الجملة (أى الجو الحر المحايد) فى صلب الإتفاقية التى عقدت بين مصر وبريطانيا فى١٢ فبراير سنة (١٩٥٣) [١٢٢] بل أن الإتفاقية هذه بكل بنودها وملاحقها كانت تدور حول تحقيق هذه الجملة وتسببت عند تطبيق الإتفاقية فى خلق آلاف العقد والمشاكل والخلافات.

كان الغرض من هذه الإتفاقية ببساطة إجلاء كل نفوذ أجنبى عن السودان خلال مرحلة إنتقال فى سبيل تهيئة جو حر محايد يقرر السودان فيه مصيره دون أى ضغط أو تاثير من دولتى الحكم الثنائى.

التهنئة تعتبر إتهاماً

كم قاسيت من هذه الجملة (الجو الحر المحايد) وكم قاسى معى الكثيرون.. كان الإنجليز لا زالوا يحكمون السودان قبل إتمام الجلاء والسودنة..

وكنت إذا ما وجهت كلمة فى الصحف أو الاذاعة للشعب السودانى لأهنئه بعيد مثلا صودرت صحف وإرتفعت ألسن من الخرطوم تتهمنى بخرق الجو الحر المحايد وأنى بتهنئتى هذه أرجح كفة على أخرى فى السودان .

وإذا ما زرت أو زارنى سياسى سودانى وأمضيت معه بعض الوقت فلا بد وأن أكون قد أثرت على الجو الحر المحايد ومزقته. وإذا ما زرت الخرطوم فإن كلمة الخرق بكل مشتقاتها ومرادفاتها فى قاموس اللغة لا تكفى مطلقًا لوصف ما قمت به ضد الجو الحر المحايد.

حتى فى القاهرة

ومن المهازل القاسية والتى كانت تهزنى بعنف ولا أستطيع أن أجد لها حلاً سوى قبولها كما هى بواقعها المر الأليم والسكوت عنها، حينما كان الحاكم العام البريطانى فى السودان وهو من الوجهة القانونية وكيل للدولتين مصر وبريطانيا فى السودان حينما كان هذا الحاكم يعترض على أمور بحجة أنها تؤثر على الجو الحر المحايد.

كان يحتج على زياراتى وعلى خطاباتى وعلى كل حركة أو سكنة أقوم بها حتى فى القاهرة.

أما وجوده هو فى قصره الشاهق فى العاصمة المثلثة وبرجاله ومعاونيه ومستشاريه كل هذا لا يؤثر من قريب أو بعيد على الجو الحر المحايد. لا يخرقه ولا يمسه وكأن جنسيته البريطانية قد تحولت بمجرد تعيينه فى منصبه هذا على رأس السودان إلى جنسية سودانية أصيلة ولا بد وأن وجهه قد تحول من الحمرة إلى لون أسمر شديد السمرة وإسمه قد تغير من " هاو" أو "هولم" إلى "عبد المولى" أو "حبيب الله".

لوسى.. نصفه مصرى

كم مرت بى لحظات كرهت فيها السياسة والسياسيين وكادت روحى تزهق من الخداع والتمثيل. أقمت يومًا حفل غداء فى نادى ضباط الجيش فى الزمالك تكريما لمعالى حاكم عام السودان "سير نوكس هولم" بمناسبة تعيينه فى منصبه ومروره بالقاهرة فى طريقه إلى الخرطوم وكان آخر حاكم عام شهده السودان خلال تمثيلية الحكم الثنائى التى دامت أكثر من نصف قرن.

لفت نظره يومها إلى بعض التصرفات الشاذة التى يقوم بها مستشاروه البريطانيون الذين سيلتقى بهم عند وصوله إلى الخرطوم.

فقاطعنى وهو يبتسم إبتسامة بلهاء وأظهر تعجبه ودهشته من وصفى لمستر "لوسى" مستشاره السياسى وزملائه بأنهم بريطانيون وقال "أحب أن أصحح لك يا سيدى بعض معلوماتك" فأدركت أنه يريد أن ينفى إتهاماتى التى شرحتها له بالتفصيل كالعادة المتبعة لدى الدبلوماسيين فى مثل هذه الظروف. ولكنه خيب ظنى واسترسل فى إعتراضه قائلا "ياسيدى ربما يخطئ هؤلاء القوم ويسيئون التقدير كأى بشر عند قيامهم بواجباتهم وسأتحرى بنفسى وبدقة كل ما ذكرته لى ولكنى لا أوافقك مطلقًا على وصفك لهم بأنهم بريطانيون "فبدت الدهشة على وجهى وسألته مستفسرًا "مستر لوس.. يامعالى الحاكم.. أليس ببريطانى ؟".

"أتريد أن تقول أنه سنغالى أو يابانى وعلى كل حال أستطيع أن أؤكد لك بحكم إتصالى بالجهاز الحاكم فى السودان أنه لا مصرى ولا سودانى على الأقل".

فضحك قائلا: "وأنا أقطع أنه بمنصبه هذا وبصفته مستشارًا لى فإنه أصبح مثلى تمامًا.. لا يمت لبريطانيا بصلة.. وقد أتساهل وأقول وأوافق على أن نصفه فقط بريطانى "وفى هذه الحالة فإنى أقطع بأن نصفه الآخر مصرى صميم لأننا نمثل كلتا الدولتين مصر وبريطانيا وموكلان عنهما توكيلاً متساويا".

كان على أن أبتلع هذا الكلام وأعتبر مستر لوس وسير نوكس هولم نصفه فقط بريطانى أما نصفه الآخر فيرجع بالتأكيد إلى رمسيس الثانى أو حتشبسوت لأن القوانين والأصول الفقهية تقرر ذلك كما يقول معاليه وأمرى وأمرك إلى الله.

حمدًا لله لقد إنتهت الآن كل مشاكل الجو الحر المحايد ومصائبه.

مهمة قاسية

واليوم أشعر بكثير من التحرر فى كتاباتى عن السودان والسودانيين وأرجو أن أوفق لإرضاء الحقيقة والتاريخ وكل السودانيين ولو أنى أعلم أنها مهمة قاسية

ولكن لا مفر من المحاولة. سأقول ما لنا وما علينا فما من بشر يجد ويعمل إلا وكان عمله سلسلة متصلة من الخطأ والصواب. وسأبدأ بأضخم خطأ أخطأناه عند السير فى هذه القضية .

أخطاؤنا كمصريين

لقد أخطأنا كمصريين حينما إرتضينا أن ننص فى الإتفاقية التى وقعناها مع الإنجليز على تخيير السودان عند تقرير مصيره بين الإستقلال التام أو الإتحاد مع مصر والإرتباط بها[١٢٢]. وقد إشترك معنا فى هذا الخطأ الذى قاد إلى كثير من العقد النفسية كافة من آمنوا بالإتحاد بين البلدين من أهل السودان. كان من العسير جدًا أن نتبين هذا الخطأ عند وضع الإتفاقية دون أن نطلع على المستقبل والغيب بتفصيلاته وظروفه ولكن الآن وبعد أن أصبح هذا المستقبل ماضيًا أستطيع ويستطيع كل عقل بشرى أن يحكم على الخطأ وعلى الصواب بعد حدوثهما.

أين تبلورت الوحدة؟

إذا ما عدنا بعيدًا إلى التاريخ فستعرف أن دعوة الإتحاد قد نشأت وتبلورت بين صفوف السودانيين قبل أن تنشأ وتتبلور بين المصريين .

وحدثت أكثر من محاولة من جانب السودان ليضم إليه مصر ويوحد بين شقى الوادى.

الوحدة معناها الخلاص!

وفى ظل حكم الإنجليز الأخير كانت دعوة الإتحاد تشتد وتقوى وخاصة بين صفوف المتعلمين والمثقفين كلما زاد الإنجليز من بطشهم وسطوتهم على السودان.

لم يفكر طويلا السودانى الإتحادى فى ظل إحتلال الإنجليز فى تفسير كلمة إتحاد أو مجرد تحليلها بينه وبين نفسه. كانت تعنى هذه الكلمة بالنسبة له توحيد الكفاح المشترك وتوحيد الجهود بين الجيران للخلاص من العدو المشترك.

لقد كانت الثقة بالنصر قبيل توقيع الإتفاقية الأخيرة بيننا وبين الإنجليز تملأ نفوس السادة الإتحاديين فى السودان فما من معركة خاضوها كإتحاديين واحتكموا فيها للشعب السودانى إلا وشعروا بأن أغلبية الشعب تقف بجانبهم تعطف عليهم وتؤازرهم.. كان يحدث هذا فى ظل حكم الإنجليز وكانوا يكتسحون الكثير من دوائر انتخابات المجالس البلدية فى العواصم. وإحتلوا مكان البطولة فى قلوب الكثيرين من أبناء الشعب بقدر إحتلالهم العديد من الأمكنة فى السجون والمعتقلات وفى المحاكمات أمام القضاة البريطانيين فى القضايا السياسية .

(الاستقلاليون)

كانوا قوة

ولا يعنى كلامى هذا أن الإستقلاليين كانوا قلة تافهة لا يؤبه بها بل بالعكس كانوا قوة كبيرة يعمل لها ألف حساب وإن كانت بعيدة بعض الشئ عن المدن الرئيسية والعواصم التى يتمركز فيها المتعلمون والمثقفون.

فالسودان كما شرحت لك فى خطاب سابق قطر مترامى الأطراف تقطنه شعوب مختلفة متباينة متباعدة كثيرًا بعضها عن بعض نتيجة إتساع الرقعة وضعف وسائل المواصلات.. فإن أبرز نشاط الإتحاديين فى المدن والعواصم فإن نفوذ ونشاط الجبهة الإستقلالية تمركز فى أجزاء نائية من البادية وخاصة فى أقاليم غرب السودان بين القبائل التى تدين بالولاء المطلق للسيد عبد الرحمن المهدى[١٢٤] زعيم طائفة الأنصار [١٢٥] وراعى حزب الأمة[١٢٦].

أعود وأقول أن مصر والإتحاديين فى السودان أخطئوا حينما قبلوا وضع كلمة الإتحاد مضادة لكلمة الإستقلال عند تقرير المصير. فكلمة الإستقلال التام أمنية كل مواطن ومكافح وتحمل كل معانى القوة والحرية والكرامة.

الاتحاد مبدأ

ولا يعنى تفسيرى هذا لكلمة الإستقلال أنى أتنكر لمبدأ ولفكرة الإتحاد فإنى أدين بهذا المبدأ ـ أى مبدأ الإتحاد ـ لا بين مصر والسودان فحسب بل وبين كافة

الدول والشعوب العربية من المحيط الأطلسى حتى خليج العرب الذى إفتروا عليه وسموه خطأ بالخليج الفارسى (١٢٧) وأعتقد أن اليوم الذى يتمكن فيه قادة هذه الأمم وشعوبها من تحقيق هذه الغاية النبيلة سيتحقق للعرب قوة ضخمة عالمية تمكنهم من فرض رسالتهم ومبادئهم ومثلهم على البشرية جمعاء ويتهيأ لهم أرفع مستوى من المعيشة فى أقصر وقت ممكن .

بريطانيا تدافع عن الاستقلال

أعود إلى كلمتى "إتحاد وإستقلال" وأقول أن وضعهما فى إستفتاء بهذا الشكل مما حمل على الإعتقاد على أنهما متضادتان.

وبهذا مكنا بريطانيا وأعطيناها الفرصة لأول مرة فى تاريخها من أن تقف موقف المدافع عن إستقلال أمة.. نعم.. فهذه هى المرة الأولى لبريطانيا منذ برزت فى التاريخ كلمة مستعمرة، المرة الأولى التى تقف فيها تتظاهر بالنضال عن إستقلال شعب وكلنا نعلم اليقين والأغلبية الساحقة من أهل السودان كانت تشعر فى قرارة نفسها وتعلم مثلنا تماماً ماذا كانت تعنى بريطانيا من وراء ترديدها لكلمة الإستقلال وزودها عنها خلال معركة السودان. لم تكن تعنى قط، وتاريخها القريب والبعيد يشهد على ذلك، لم تعن مطلقاً أن تتمتع الأمة السودانية بالحرية التى تتمتع هى بها فى جزيرتها.. ولكنها كانت ترمى إلى تفكيك أوصال الوادى تحت ستار كلمة الإستقلال ليسهل عليها السيطرة على السودان وإبقاء إحتلالها ونفوذها رغم حصوله على كلمة الإستقلال.. تلك الكلمة التى ما حالت قط بينها وبين إستغلال وإستعمار الكثير من الأمم التى تحمل نفس الكلمة .. كلمة الإستقلال..

الخوف من توحيد القوى

إن بريطانيا كانت ولا زالت ترهب من خروجها من وادى النيل كلية ومن توحيد قوى هذا الوادى مهبط الحضارة الأصيلة فى القارة الأفريقية التى تخضع ثلاثة أرباعها لنفوذها وإستغلالها وإستعمارها السافر. وهى فى ذلك لا تجد أى حرج أو غضاضة من وضع ملايين التعساء فى هذه القارة وفى غيرها من القارات

تحت الإشراف المباشر لما تسميه علنًا ودون أدنى حياء بوزارة المستعمرات، أى أنها لا تخجل من أن تصف هى نفسها بصفة الإستعمار ولكنها تغضب ويزمجر سفراؤها وممثلوها إذا ما وصفها سياسى فى خطبة أو كاتب فى مقالة أو انطلق صوت العرب أو ركن السودان ليقول عنها بريطانيا المستعمرة . كانت بريطانيا ـ ولا زالت ـ ترهب توحيد قوى هذا الوادى تحت أى شكل من الأشكال لأن هذا التوحيد سيقصر من عمرها فى مستعمراتها الأفريقية العديدة والتى يلاصق بعضها السودان الذى يمثل الباب الرئيسى إلى قلب أفريقيا لإشعاع حضارة مصر، ومعرفتها .

ولكى أعطيك مثلا على مدى حساسية بريطانيا بل وذعرها من كل خطوة تؤثر على مستعمراتها الأفريقية هذه ، أذكر خلال رحلتى الأولى لجنوب السودان فى ديسمبر عام ١٩٥٢ تلك الرحلة التى اكتسبت فيها لقب "الصاغ الراقص"(١٢٨).

وفد اتحادى من أوغندا

أذكر أن وفدًا من أوغندا عبر الحدود خلسة وجاء لمقابلتى مستترًا بالأحراش المجاورة لمدينة جوبا عاصمة المديرية الإستوائية.. جاءوا يحدثوننى عن أملهم فى تحرير أوغندا ورغبتهم فى معاونة مصر ومساندتها وعن حزبهم الإتحادى الذى أقاموه ليدعو إلى فكرة توحيد كل أجزاء وادى النيل من منبعه إلى مصبه ليقف أمام بريطانيا التى طغت طويلا وفجرت فى أفريقيا .

صورة سببت السجن

كان يمكن أن تتم هذه المقابلة الخاطفة دون أن يعلم بها حكام جوبا من الإنجليز فى ذاك الوقت وحكام أوغندا كذلك، لولا ضبطهم عند عبورهم الحدود فى منطقة "نيمولى" عائدين إلى بلادهم وعثور المفتش الإنجليزى الذى قام بتفتيشهم على صور تذكارية لى فى وسطهم فقدموا ثلاثتهم من جراء هذه الصورة فقط للمحاكمة، وسجنوا عامين!! هذا مثال صغير يوضح لك سياسة بريطانيا وذعرها من مجرد إتصال فردى بيننا وبين أفراد من مستعمراتهم هذه

.. فإن أى إتصال يعنى فى نظرهم خطرًا داهمًا على مستقبلهم ومستقبل قطن ومطاط وحاصلات الأفريقيين.

انفصال فى وادى النيل

معذرة يا أخى إذا ما بعدت بك قليلا عن السودان وقصة السودان، فأنا لا أستطيع أن أختصر وأقتضب ، كلما ورد إسم الإستعمار البريطانى وأساليبه.. وهل يمكن أن ننسى شقاء سبعين عامًا ؟!

المهم.. فى الوقت الذى تعمل فيه بريطانيا بشتى الأساليب ، على تجزئة وتفتيت وحدة وادى النيل ، نسمع أنها تتولى اليوم الكفاح ، فى سبيل إتحاد الشعوب وفى سبيل وحدتها أيضا!

.. ودستور اتحادى فى المحميات (١٢٩)

لا تعجب.. هل سمعت بالمحميات؟!.. وهل سمعت مثلا بالدستور الإتحادى الذى تزمع بريطانيا أن تطبقه فى هذه الأرجاء الشاسعة، دون أن ترجع إلى هذه الشعوب بأى أسلوب من الأساليب.

إن بريطانيا التى يصيبها الذعر من الإتحاد فى الضفة الغربية للبحر الأحمر، تعمل وتتآمر لخلق فكرة الإتحاد فى الضفة الشرقية للبحر الأحمر، ما دام هذا الإتحاد سيكون تحت حمايتها وفى ظل إحتلالها.. وبهذا تستطيع أن توحد إشرافها على بترول هذه المنطقة، وأن تتمكن من خلق قوة تناوئ بها الملك أحمد ملك اليمن .. الإستعمارى العريق فى إستعباد شعوب الأرض وأممها ، وهذا هو منطق بريطانيا !!.

الوحدة فى "حرب النهر"

ولماذا نذهب بعيدا إلى عدن والمحميات.. أتذكر موقف بريطانيا، وقت أن كانت تحتل مصر بقبضتها الحديدية ، فى أواخر القرن التاسع عشر؟!.. إنها كانت تعمل فى بداية الأمر على توحيد مصر والسودان، طالما بقيت هذه الوحدة تحت حكمها المباشر ونفوذها التام.. وإليك ما كتبه تشرشل(١٣٠) فى كتابه "حرب النهر

"إذا نظر القارئ إلى خريطة مجرى النيل أخذته الدهشة للشبه القائم بينه وبين شجرة النخيل ، فأرض الدلتا بخضرتها وخصوبتها، تنتشر عند قمة الوادى كما ينتشر فى رشاقة، جريد النخل وسعفه، وقد يلتوى الجذع قليلا إذ ينحنى النيل إنحناءة واسعة فى أرض السودان، ولكن الشبه يكون كاملا جنوبى الخرطوم، وتبدأ جذور الشجرة فى التوغل فى أعماق السودان.. ولا يسعنى أن أتخيل صورة أصدق من هذه الصورة التى تنم عن ذلك الرباط الوثيق، بين مصر والمديريات الجنوبية.. فالماء، حياة الدلتا، يهبط من السودان مندفعًا فى مجرى النيل، كما تسرى العصارة فى ساق الشجرة ، لتؤتى ثمرها رطبًا جنيًا، وإذا كانت منفعة مصر، واضحة جلية ، فهى ليست لها وحدها إذ كان الرباط بين مصر والسودان مزاياه متبادلة، فالسودان جزء من مصر بحكم الطبيعة والعوامل الجغرافية، وليست حاجة السودان إلى مصر، بأقل شأنًا من هذا كى يتسنى له التقدم، فأى خير فى الجذور والأرض الطيبة، إذا فصلت الساق التى لا يتهيأ المظهر الخارجى للحياة بغيرها "

تلويث كلمة الاستقلال

هذا ما قاله تشرشل بالحرف الواحد وخطته يده منذ أكثر من خمسين عامًا، ولكنك ستعلم ما قام به تشرشل، ورجاله فى السنوات القريبة الماضية، خلال سطورى المقبلة..

ثم أعود مرة أخرى، إلى كلمتى الإستقلال والإتحاد، ووقوف بريطانيا متظاهرة بالزود عن الإستقلال، وهى تهدف من ورائها كما أوضحت إلى الإنفصال فقط، دون أن تعنى حرفًا واحدًا من كلمة الإستقلال، حتى أن الإتحاديين كان يلذ لهم أن يلقبوا دعاة الإستقلال من خصومهم السياسيين، فى خطبهم ومقالاتهم بالإنفصاليين بدلاً من الإستقلاليين، لأنهم كانوا يرون أن الإستقلال يعنى فصل الكفاح بين شعبى الوادى مع بقاء الإنجليز، على أن يتم كل هذا تحت ستار كلمة الإستقلال.

ولكى أزيدك إيضاحًا، أقول أن بريطانيا خلال حكمها السودان وتبنيها لفكرة إستقلاله قد لوثت كلمة الإستقلال فى نظر الرأى العام السودانى بوجه عام حتى

آمن زعماء الإتحاد فى السودان ومصر، بأن هذه الكلمة لا تعنى مطلقًا سوى إستمرار حكم الإنجليز فى جنوب الوادى للتحكم فى شماله أى مصر.. ولهذا كافحت مصر كلمة الإستقلال فى العهود الماضية بكافة الوسائل، وأمام مجلس الأمن، لأنها هى نفسها - أى مصر - قد عرفت معنى الإستقلال الزائف الذى نالته منذ أكثر من خمسة وثلاثين عامًا عندما أعلن استقلالها وتم تتويج فؤاد ملكًا عليها، إلا أن الوطنيين المصريين كانوا يؤمنون بأن هذا الإعلان قد عاق وأخر من كفاح الأمة فى سبيل الحرية الحقيقية، لأن جهود الكثير من المصريين، قد كفت عن الكفاح ضد المحتل، وإنصرفت إلى معارك الحكم والدستور والبرلمان.

إن مصر التى جربت ويلات الإستقلال الزائف، أرادت أن يتفادى السودان هذا المصير؛ فكافحت كلمة الإستقلال مع الإتحاديين السودانيين.. ومع كل هذا، أعود لأقول أننا أخطأنا فى وضع كلمة الإستقلال مضادة لكلمة الإتحاد فى اتفاقية تقرير المصير بيننا وبين الإنجليز.

تطهير كلمة الاستقلال

كانت كلمة الاستقلال لكافة الظروف التى شرحتها لك قد لوثت تمامًا، فى نظر الرأى العام السودانى، ولكن حينما بعدت بريطانيا كلية عن السودان، بدأت كلمة الإستقلال تأخذ شكلاً جديدًا فى أعين الكثير من السودانيين.. لم تعد تلك الكلمة الملوثة التى إنطبعت فى عقولهم فى الماضى، عندما كانوا يرون بريطانيا تهيئ لها السبل، مع بقاء حكمها وإستعمارها للسودان، فلقد بدأت تظهر تلك الكلمة، بعد أن خرج الإنجليز من السودان قبل تقرير المصير وأخيرًا وقفت كلمة الإستقلال الواضحة المطهرة ، وجهًا لوجه أمام كلمة غامضة هى كلمة الإتحاد.. ثم بدأت الجهود تبذل فى تلويث هذه الكلمة، قالت الدعاية: أن الإتحاد هو نوع جديد من أنواع السيطرة على السودان، وإستعمار مصر له.. فهل هذا صحيح؟

هل كانت مصر فعلا تريد السيطرة على السودان، وتهدف إلى إحتلاله وإستعماره؟.. ولماذا لم يقف قادة الإتحاديين فى وجه معركة التضليل هذه، ولماذا لم يدافعوا عن معنى كلمة الإتحاد؟ أسئلة كثيرة، سأجيب عليها غدًا.. وفى الكثير من الأزمات والمفاجآت!! وإلى الغد..

الهوامش

(١٢٢) سبق الحديث عنها.

(١٢٣) لمزيد من التفاصيل راجع الدراسة.

(١٢٤) عبد الرحمن المهدى ولد بأم درمان بعد وفاة والده الإمام محمد أحمد المهدى ببضعة أسابيع وذلك غرة شوال ١٣٠٢هـ ١٢ يوليو ١٨٨٥م وحفظ القرآن الكريم فى صغره، تم تحديد إقامته فى الشكابة وجزيرة الفيل لمدة تسع سنوات مع والدته وما بقى من أسرة والده والخليفة شريف وتولى السيد عبد الرحمن قيادة الأسرة وكان وقتها لم يبلغ من العمر العشرين عامًا. سمح له بالحضور لأم درمان حيث كان يحضر مجالس العلم.

خلال فترة الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨م بزغ نجم الإمام عبد الرحمن المهدى كزعيم وسياسى ورجل مال وإقتصاد. وبعد نهاية الحرب كان ضمن الوفد الذى سافر إلى بريطانيا بقيادة السيد على الميرغنى عام ١٩١٩ فكان أصغر أعضاء الوفد سنا. حينها أهدى الملك جورج الخامس سيف والده رامزًا إليه أنه هجر الجهاد بالسيف ألذى دعا له والده. وقد التزم فى خطته لنيل الإستقلال الوسائل المدنية.. ذلك التصرف نال النقد من الكثيرين الذين كانوا يحبذون مواجهة الاستعمار بالقوة. ووصل إلى حد رميه بالعمالة للإنجليز.

بعد نهاية الحرب العالمية الأول عمل بفاعلية ونشاط فى تطوير أعماله ومشروعاته الزراعية مما وفر له عائدًا ماليًا مجزيًا إستخدمه فى دعم الحركة الإستقلالية والمناداة باستقلال السودان.

لعب دورًا بارزًا فى حركة "مؤتمر الخريجين" والتف حوله مجموعة من الخريجين والمثقفين وكان يدفعهم نحو مطلب الإستقلال التام.

أسس صحيفة "حضارة السودان" فى عام ١٩١٩م وأسس صحيفة "النيل" فى عام ١٩٣٥م وأسس حزب الأمة الذى كان شعاره " السودان للسودانيين" فى عام ١٩٤٥م وقف طول الوقت ضد الدعوة إلى الإتحاد مع مصر والدخول تحت التاج المصرى. لحقت به لفترة تم كثيرة فالبعض يتهمه بأنه عميل للإنجليز والبعض يشك فى أن ثروته جمعت بإستغلال الأتباع السذج. فى الأونة الأخيرة وخاصة بعد الاطلاع على الوثائق البريطانية نمت حركة لإنصافه بين المثقفين وقد تمثل ذلك فى الاحتفال بالعيد المئوى لمولده الذى تم فى عام ١٩٩٦، وصاحبته ندوة علمية بها العديد من الأوراق، ومعظمها ذهب مذهب الإنصاف له بعد عقود من التشويه الذى نال صورته جزء من

مذكرات موشى شاريت يتحدث عنه: " ويكشف شاريت عن زيارة رئيس حزب الأمة السودانى، إلى إسرائيل ولقائه معه ومع بن غوريون وجولدا مائير. يقول أن السودانى شرح للإسرائيليين أن لديهما عدوًا مشتركًا ـ وهو الرئيس المصرى، جمال عبد الناصر. إنتقل إلى جوار ربه فى ٢٤ مارس من عام ١٩٥٩م. ودفن بقبر الإمام محمد أحمد المهدى بأم درمان. وخلفه ابنه الصديق المهدى. محسن محمد: مرجع سابق، ص ٣٥.

(١٢٥) سبق التعريف بهذه الطائفة.

(١٢٦) حزب سياسى فى السودان (تأسس فى فبراير ١٩٤٥)، وهو تكوين سياسى هدف به السودانيون القوميون الذين كونوه كأول حزب سياسي شعبى نحو تحقيق المطامح الوطنية فى الإستقلال عن دولتى الحكم الثنائى، كان حزب الأمة السودانى يطالب بإستقلال السودان عن بريطانيا ومصر رافعًا راية الإستقلال الكامل عن الدولتين وسمى مؤيدوه بالإستقلايين. ونص دستور الحزب الذى أقر فى الاجتماعات التأسيسية على أن مبدأ الحزب هو «السودان للسودانيين»، وأن غرضه هو الحصول على إستقلال السودان بكامل حدوده الجغرافية مع المحافظة على الصلات الودية مع مصر وبريطانيا. محسن محمد: مرجع سابق، ص ٣٧.

(١٢٧) أقدم اسم معروف هو اسم " بحر أرض الإله" ولغاية الألف الثالثة قبل الميلاد. ثم أصبح اسمه "بحر الشروق الكبير" حتى الألف الثانى قبل الميلاد. وسمى "بحر بلاد الكدان" فى الألف الأول قبل الميلاد "بحر الجنوب" خلال النصف الثانى من الألف الأول قبل الميلاد. سماه الآشوريون والبابليون والأكاديون: البحر الجنوبى" أو " البحر السفلى" ويقابله البحر العلوى وهو البحر الأبيض المتوسط. كما أطلق عليه الآشوريون نارمرتو أى "البحر المر" سماه الفرس " بحر فارس" قبل التسمية عرفت فى أول الأمر من قبل الملك الفارسى داريوش الأول (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق.م) فى كلامه "على البحر الذى يربط بين مصر وفارس". والراجح أن الأسكندر الأكبر هو أول من أطلق تلك التسمية بعد رحلة موفده أمير البحر نياركوس عام ٣٢٦ ق . م. وقد عاد من الهند بأسطوله بمحاذاة الساحل الفارسى فلم يتعرف إلى الجانب العربى من الخليج. مما دعا الاسكندر إلى أن يطلق على الخليج ذاك الاسم، وبقى تداولاً بطريق التوارث. وعن طريق اليونان تسربت التسمية للغرب وإستعملها بعض العرب (أحيانًا باسم " الخليج الفارسى") كذلك حتى منتصف القرن العشرين سماه الرومان "الخليج العربى" وممن أطلق تلك التسمية المؤرخ الرومانى بلينى فى القرن الأول للميلاد.

عبد الوهاب الكيالى: مرجع سابق جـ ٢ ص ٦٢٣.

(١٢٨) يذكر أحمد حمروش قوله : وقد أحيط بعض ما قام به بدعاية هائلة فعندما قرر زيارة الجنوب لم يحصل على التصريح الخاص الذى إعتاد أبناء الشمال أن يحصلوا عليه إذا أرادوا السفر إلى الجنوب. ويذكر اليوزباشى محمد أبو نار ـ مدير مكتب صلاح سالم ـ أن مستر كافرى السفير الأمريكى ومستر سوينى ضابط إتصال السفارة قد ساعدا فى عدم حدوث أزمة من زيارة صلاح سالم دون تصريح.

وقد نجحت الرحلة تمامًا، وكان للمناقشة العنيفة التى دارت بين صلاح سالم والمحافظ البريطانى حول أسلوب معاملة الناس فى الجنوب أثر سحرى بين الجماهير التى تعرض فيها المعبود البريطانى أمامهم للنقد والهجوم. وكذلك فإن مشاركته لقبائل الدنكا بالرقص معهم (رقصة

الحرب) وعاريًا قد جذبت إليه قلوب الجنوبيين....... وأطلقت عليه الصحافة البريطانية اسم (الصاغ الراقص).

ـ أحمد حمروش: مرجع سابق جـ٢ ص ٣٠٩.

(١٢٩) هى دولة موضوعة تحت سلطة دولة أخرى منها قادرة على حمايتها، وقد تكون الحماية الإستعمارية أو اختيارية، وينظم القانون الدولى العام بواسطة معاهدة دولية بين الطرفين ـ تعترف بها الدول الأجنبية ـ الحقوق والإلتزامات بين الطرفين.

وتشمل التزامات وحقوق الدولة الحامية العلاقات الخارجية والأمن والدفاع، وفى المقابل فإن هذه العلاقة لا تفقد الدولة المحمية شخصيتها الدولية، ويكون لسكانها جنسية مستقلة، كما إنها تكون مسئولة عن شئونها الداخلية بواسطة حكومة. وتنتهى الحماية إما بالإستقلال أو بوضع الدولة المحمية تحت نظام الوصاية.

ـ عبد الوهاب الكيالى: مصدر سابق جـ ٢ ص ٧٢٢.

(١٣٠) سبق الترجمة له.

(١٠) وكالة وزارة السودان لا تعرف السودان

الوثائق والمستندات المفقودة

الاتحاديون يتصارعون فى سميراميس

الصحفى الذى يبدل رسالته كل ساعة

منذ عام ١٨٤٠ ولإنجلترا سياسة محددة واضحة تجاه الشرق الأوسط وقد حددها بالمرستون[١٣١] فى هذا العام بالذات وعمادها الحيلولة دون تحقيق الوحدة السياسية للعالم العربى للإحتفاظ بالمواقع الجغرافية والإستراتيجية فى تلك المنطقة التى تشرف على طرق الشرق الأقصى..

وظل الشعب العربى يجاهد ويحلم بتحقيق أعز أحلامه وأقصى أمانيه ألا وهو" الإتحاد".

سوريا المستقلة تنص فى دستورها على ضرورة العمل والوصول الى الإتحاد مع بقية الدول العربية.

لبنان والأردن والعراق وليبيا واليمن والسعودية كل هذه الدول المستقلة والمحميات والمغرب العربى الذى يكافح فى سبيل إستقلاله. كل هذه الدول المستقلة والتى تسير فى طريق الخلاص لا تحلم بأقصى من تحقيق الوحدة الكاملة الشاملة بين أجزاء الوطن العربى لولا الظروف التى خلقها الإستعمار طوال حكمه لهذه البلاد.

كلمة الاتحاد

تلك الكلمة كلمة "الإتحاد" قد تعرضت كما قلت فى الحلقة السابقة لهجمات عنيفة وقامت حملة ضخمة تشكك فى مراميها وأهدافها وتصورها بالشئ

المناقض والمضاد لكلمة الإستقلال تلك الكلمة التى لا يمكن أن يختلف عليها وطنيان . وأخذت قدسية كلمة "الإتحاد" تهتز فى أذهان الكثيرين بعد أن خرج الإنجليز من السودان وقارب وقت تقرير المصير.. ولم تعد كلمة الإستقلال تلتصق بإحتلال الإنجليز الذى زال فعلا من أرض السودان.

لقد إعتمدت تلك الحملة ضد "الإتحاد" على عوامل كثيرة سيرد ذكرها فى سياق حديثى معك عن هذه المرحلة الحاسمة فى حياة السودان.

وأهم هذه العوامل وأقواها كان يكمن فى صفوف الإتحاديين أنفسهم وفى داخل الحزب الوطنى الإتحادى الذى ينص دستوره على العمل فى نطاق مبدأ الإتحاد مع مصر.

نعم، كانت قاعدة الحملة ضد فكرة الإتحاد فى نهاية المعركة فى خلافات الإتحاديين المريرة وفى أحزابهم المتنافرة المتعددة القديمة والتى تشكل منها حزبهم الموحد الجديد.

الحزب الاتحادى.. يحارب الاتحاد

أظنك تعلم تمامًا وتذكر أن الحزب الوطنى الإتحادى الذى فاز فى الإنتخابات عقب توقيع إتفاقية السودان ونال أغلبية أصوات الناخبين وهو يجاهر ويعلن بإيمانه بالإتحاد مع مصر.. لم تقف قيادة هذا الحزب نفس الموقف فى نهاية قصة تقرير المصير ..

ولم يدافع معظم زعماء هذا الحزب الإتحادى عن مبدأ الإتحاد ولم يردوا بحرف على إتهامات الإستقلاليين وهجماتهم ضد فكرتهم التى قام عليها حزبهم الإتحادى. بل أظنك علمت بأن قيادة هذا الحزب الوطنى الإتحادى قد حاربت فى الشهور الأخيرة التى سبقت إعلان الإستقلال فكرة الإتحاد بكل قوة وعنف وحملت علم الإستقلال عاليًا وعملت على إلغاء الإستفتاء الذى نصت عليه الإتفاقية وكانوا أبطال إعلان الإستقلال من داخل البرلمان فى أول يناير سنة ١٩٥٦.

ماذا حدث لرجال هذا الحزب ؟ وما أسباب هذه التغيرات الشديدة المفاجئة؟ فالإتحاديون يناضلون الإستقلاليين عشرة من الأعوام وإذا ما جاء تقرير المصير تبنى هؤلاء الإتحاديون أنفسهم فكرة الإستقلال وقاوموا الإتحاد بكل الوسائل والسبل.

لا اتحاد بين صفوف الاتحاديين

كان على الحزب الوطنى الإتحادى أن يبحث عن الإتحاد أولا بين صفوف رجاله قبل أن يدعو لمبدأ الإتحاد وفكرته .فلم يتحد الإتحاديون فيما بينهم فى أى وقت من الأوقات إلا فى فترات مؤقتة ولظروف خاصة، وحتى فى هذه الفترات وتلك الظروف لم يكن الإتحاد بينهم عميقا فى القلوب ولا صادرًا عن اقتناع.. كان إتحادًا ظاهريًا يحمل فى طياته أعنف عوامل الفرقة والإنفصال..

وإنعكست هذه العوامل على مبدأ الحزب الرئيسى وفكرته فى آخر الأمر، تلك الفكرة التى قام وإجتمع شمله من أجل الدفاع والذود فى سبيلها.

أحزاب اتحادية متنافرة

وإنى أذكر فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر عام٥٢ أى بعد أسبوعين من تحملى لمسئولية القضية السودانية أمام مجلس قيادة الثورة، أذكر هذا الوقت الذى بدأت وفود الأحزاب السودانية الإتحادية تصل فيه تباعًا إلى القاهرة وتنزل فى فندق سميراميس فى غرف متجاورة متلاصقة وكل وفد يحمل أكثر من ضغينة وحقد للوفد الآخر. وقائد كل حزب من هذه الأحزاب الإتحادية يجاهر بعدائه فى السر والعلانية لبقية قادة هذه الأحزاب .

صلح فى الخرطوم

عملت الحكومات المصرية المتعاقبة قبل الثورة المستحيل فى سبيل الجمع بين هذه الأحزاب وإصلاح ما بينهم من خلافات عميقة ولكن هذه الجهود كانت تذهب دائمًا أدراج الرياح وكانت آخر هذه المحاولات ما قامت به آخر حكومة وفدية من إرسال بعثة إلى الخرطوم برئاسة اللواء محمد فتوح للتوثيق بين أزهرى

زعيم حزب الأشقاء فى ذلك الوقت ونور الدين الذى إنفصل عن أزهرى ورأس حزبًا آخر إسمه الأشقاء، أيضا ذهب الوفد لإصلاح ما بين الشقيقين ولكنه عاد بعد أيام بعد أن يأس من إيجاد قاعدة للتفاهم بين جناحى حزب الأشقاء الألداء..

مجابهة الاستعمار

ومنذ وصول زعماء الأحزاب الإتحادية وأنا أقيم معهم صباح مساء فى الفندق، أحضر إجتماعاتهم العديدة المتوالية التى كانت تبدأ فى الصباح الباكر ولا تنتهى إلا ببزوغ فجر اليوم التالى.. وكانت مصر قد دعتهم للقاهرة لنتفاهم معهم ونتفق وإياهم حول خطة نجابه بها الجانب البريطانى الذى يوشك على تنفيذ مشروع دستور الحكم الذاتى كما أراده الحاكم العام وإجراء تقرير المصير مع بقاء الإنجليز فى السودان. كما دعت مصر زعماء الحزبين الإستقلاليين فى ذلك الوقت وهما حزب الأمة والحزب الجمهورى الإشتراكى.

توحيد الصفوف.. أمر مستحيل

وسأقصر كلامى الآن عن الأحزاب الإتحادية.. لم أستطع أن أناقش معهم جوهر القضية.. فما يمكن أن يوافق عليه هذا الحزب يرفضه الحزب الآخر ويأباه، وأيقنت بعد أيام أن الوصول إلى إتفاق مجرد مع الأحزاب الإتحادية ضرب من المستحيل والخيال وشعرت أنه من العبث مناقشة القضية إلا إذا إتحدت صفوفهم أولاً وقبل كل شئ ولكن توحيد صفوفهم كان يبدو أيضًا ضربًا من الخيال..

شهدت عشرات من الإجتماعات فى غرفة أزهرى زعيم جناح الأشقاء المسمى باسمه كما شهدت إجتماعات مماثلة فى غرفة نور الدين زعيم الجناح الآخر من حزب الأشقاء وفى غرف زعماء حزب الإتحاديين والإتحاديين الأحرار وحزب وحدة وادى النيل وحزب الجبهة الوطنية..

كانوا ثمانية أحزاب إتحادية إختلفوا فيما بينهم حول كل شئ وإن إتفقوا حول فكرة الإتحاد مع مصر.

اختلاف فى نوع الاتحاد

لقد كان هناك أكثر من سبب لهذا التنافر والتنابذ فيما بين هؤلاء الرجال الذين آمنوا بمبدأ واحد، ولن أستطيع الخوض فى هذه الأسباب التى يرجع بعضها إلى وقت طويل دون أن أغضبهم جميعًا، ولكنى أسجل للتاريخ أنه كان لكل حزب من هذه الأحزاب الإتحادية رأى معين فى تحديد نوع الإتحاد الذى يسعى إلى تحقيقه مع مصر(١٣٢) .

فحزب وحدة وادى النيل يبغى اندماجا كاملا بين مصر والسودان ويرأس هذا الحزب السيد الدرديرى أحمد إسماعيل.

وحزب الجبهة الوطنية كان يريد إستقلالاً عن مصر فى كل شئ.. فقط يرتبط معها برابطة التاج ولم يهدف هذا الحزب الذى قام على أكتاف ثالوث من زعماء طائفة الختمية وهم الدرديرى محمد عثمان عضو مجلس السيادة الآن وخلف الله خالد وميرغنى حمزة ولم يهدف هذا الحزب أو هذه الجبهة إلى رابطة التاج حبًا فى شخص فاروق أو فى تاجه ولكنهم أرادوا أن يتفادوا معارك خطيرة وإصطدامات عنيفة قد تحدث وتودى بكيان السودان كله إذا ما اختلفت وتصارعت طائفتا الأنصار والختمية حول منصب رأس الدولة..

وكان العداء على أشده بين زعماء هاتين الطائفتين إلى درجة قل إن حدثت فى أى بلد آخر من العالم كانوا لا يتزاورون ولا يتصاهرون ولا يمد أحد يده لمجرد مصافحة الآخر فى مكان عام أو خاص، وكان هذا الإختلاف الخطير بين هاتين الطائفتين من صنع الإنجليز بل كان أخطر سلاح فى يدهم وزال بعون الله بزوالهم .

ولهذا قبل زعماء الجبهة الوطنية فى الماضى فكرة تاج مصر ليجنبوا السودان مغبة صراع عنيف قد يقضى على مستقبله ووحدته لأجيال عديدة..

وأرجو ألا تندهش إذا ما علمت أن زعماء الجبهة الذين نادوا بالتاج لعمق الهوة بينهم وبين الأنصار هم الآن أول العاملين على التقاء الطائفتين وتعاونهما فى جبهة واحدة.

تقلبات فى كل لحظة

لقد شهدت طوال عملى فى هذه القضية تقلبات وتحولات من النقيض إلى النقيض. لا يمكن أن تخطر على بال بشر قبل حدوثها وما زلت أذكر ذلك المراسل الأجنبى الذى زارنى مرة فى مكتبى منذ عام وكان قادما لتوه من الخرطوم جاء يشكو لى الظروف السيئة التى أحاطت به فى السودان وقال.. "لقد اشتغلت بالصحافة ما يزيد عن عشرين عاما وكنت طوال هذه الفترة على ما أظن صحفيًا ناجحًا ولأول مرة أشعر بمرارة الفشل فى عملى خلال رحلتى الأخيرة هذه إلى الخرطوم.. إنى أخشى أن تفصلنى جريدتى بعد هذه الخدمة الطويلة فى عالم الصحافة لأنى لم أستطع أن أزودها برسالة واحدة صادقة .."واستمر يقول": كنت أذهب فى الصباح إلى مكتب التلغراف لأبعث ببرقية وما أن أعود إلى فندقى إلا وأكتشف أن كل حرف من هذه البرقية قد تغير وتبدل.. بدلته الأحداث السريعة المتلاحقة على مسرح الخرطوم السياسى فأعود لاهثًا إلى مكتب التلغراف لأرسل برقية جديدة ولكنها لا تلبث أن تصبح بعد ساعات لا تطابق الواقع وهكذا".

كان يشاركنى فى جهودى كلها هذه الأخ حسين ذو الفقار وقد أسدى لى معاونة لا يمكن نكرانها.

متابعة الأحداث من الخارج

ورغم ما فى قصة هذا الصحفى من بعض المبالغة إلا أنها تمثل جوهر الحقيقة فعلاً.. الحقيقة التى يعرفها تماما كل من حاول متابعة أحداث السودان فى المرحلة الأخيرة.. كل شئ يمكن أن يتبدل بشكل مذهل وفى لمح البصر حتى أنى كنت أحرص خلال رحلاتى السريعة خارج مصر فى العالم العربى على الإتصال يوميًا برجال مكتبى فى القاهرة لأتابع الأحداث المحمومة فى السودان وإلا ضللت الطريق وأصبحت بعيدًا كل البعد عن حقيقة الأوضاع فى السودان..

أعود بك إلى فندق سميراميس لأكمل لك صورة الخلاف العنيف الذى كان يدب بين غرف الفندق الكبير..

كلمتك عن حزب ينادى بالإندماج بين مصر والسودان وآخر ينادى بالإستقلال مع رابطة التاج.. أما بقية الأحزاب الإتحادية فكانت تتأرجح بين هذين الحزبين .. فهذا حزب ينادى بوحدة الجيشين وهذا حزب يصر على وحدة الدفاع فقط مع بقاء الجيشين منفصلين.. وهكذا وهكذا..

كان يصيبنى الدوار فى بادئ الأمر بعد ساعة من تنقلاتى بين غرف الفندق ولكنى بعد فترة وجيزة من الزمن ألفت هذا الجو الصاخب وأصبحت أعيش فيه عشرين ساعة كاملة فى اليوم الواحد أشهد خلافات ومتناقضات لا أول لها ولا آخر .. لا تتحل عقدة دون أن تعود بعد لحظات لتتعقد وتتشابك مرات ومرات.

جهد مشكور

كان يشاركنى فى جهودى كلها الأخ حسين ذو الفقار وقد أسدى لى معاونة لا يمكن نكرانها بتقاريره الوافية التى كان يرسلها لى تباعًا وبالساعات الطويلة التى قضاها معى ليحدثنى عن دقائق الموقف فى الخرطوم، وكان قد أمضى أكثر من ثلاث سنوات قبل الثورة فى العاصمة المثلثة وعرف الكثير من أحوال السودان والظروف الدقيقة التى أحاطت بقضيته.

أيهم الزعيم

وقد كانت أشق مهمة قابلتنى فى بادئ الأمر هى الحصول على المعلومات الكاملة الصحيحة.. قابلت المئات من إخوانى السودانيين، إتحاديين وإستقلاليين وفهمت من كل منهم على حدة أنه هو الرجل الوحيد الذى تتبعه الأغلبية الساحقة فى السودان وتدين له بالسمع والطاعة ويدلل على كلامه هذا بعشرات من القصص عن ماضيه فى الحركة الوطنية وكفاحه ضد المستعمر ذلك الكفاح الذى قاده إلى السجن أكثر من مرة. وبعد كل مقابلة من هذه المقابلات كان الأمر يزداد تعقيدا فوق تعقيد.. أيهم الزعيم وأيهم الرجل الذى أستطيع أن أبنى خطتى على معلوماته وبياناته ومعظم المعلومات يناقض بعضها بعضًا وأى النصائح أحق بالإتباع.. آلاف من الأسئلة تقفز إلى ذهنى دون أن أهتدى إلى جواب يهدينى ويكشف لى هذا الطريق الوعر المظلم..

دوسيهات الهلالى[١٣٣]

لم أجد فى وزارة الخارجية قصاصة ورق واحدة تنر لى هذا الطريق.. وأذكر أنى لجأت يوما إلى الرئيس السابق نجيب الهلالى وكنت قد سمعت عن إتصالاته ومفاوضاته مع زعماء حزب الأمة التى حدثت فى القاهرة قبيل الثورة بشهور قلائل.. وقد تفضل مشكورًا وسلمنى محاضر تلك الجلسات التى لم أعثر على أثر لها فى أى مكتب من مكاتب الدولة.

كانت وزارة الخارجية تعتذر بأن كل الإتصالات السودانية إنما كانت تتم عن طريق رؤساء الوزارات، وإذا ما قلبت مكاتب رئاسة مجلس الوزراء وأدراجها وأرشيفها رأسًا على عقب فلن تستطيع أن تعثر على حرف واحد يلقى بصيصًا من الضوء على دقائق الموقف السياسى الداخلى فى السودان وتوزيع القوى بين جبهاته العديدة وأحزابه وطوائفه.

أما عن الجنوب فلا أحد تقريبًا فى القاهرة أو فى الخرطوم يعلم ما يحدث فى هذه الغابة الموحشة. زارنى كل الموظفين الذين عملوا فى الخرطوم مدنيين وعسكريين وحاولوا مشكورين إطلاعى على وجهات نظرهم حول طبيعة الموقف الداخلى بين أحزاب السودان ومدى قوة كل فريق.. ولكن للأسف زاد الموقف ظلامًا على ظلام فكلهم إختلفوا فى تقديرهم لمدى قوة ونفوذ كل حزب وكل زعيم، ولا شك أنهم جميعًا كانوا معذورين إذ لم يسبق أن حدث إنتخاب حقيقى فى السودان إشتركت فيه أحزاب السودان كلها وطوائفه حتى يمكن الحكم على مدى قوة ونفوذ كل فريق.

والعاصمة وما يدور فيها لا يمكن أن يمثل التيارات المختلفة وسط القبائل التى تقطن مساحة تقرب جدًا من مساحة الصين الشعبية . فالسودان مليون ميل مربع والصين حوالى المليون ومائتى ألف ميل مربع..

أعود بك إلى خلافات الإتحاديين العميقة وخلافات السودانيين عمومًا حول تقدير أهمية رجالهم وأحزابهم وأيهم الكبير وأيهم القائد وأيهم الصغير وأيهم صاحب الإصبع الذى يحرك جموع السودان. الله وحده كان يعلم الإجابة عن كل

هذه الأسئلة التى كانت تتراقص أمامى ليل نهار ولم تكن تتخلى عنى حتى عندما آوى إلى فراشى آخر الليل..

وكالة للسودان.. لا تعرف السودان

ولكن مهلا فقد يخيل إليك أنى تجنيت وظلمت.. ألم يكن هناك شئ إسمه وكالة الوزارة لشئون السودان التى كانت تتبع رئاسة مجلس الوزراء.. وكانت تضم عشرات عديدة من كبار الموظفين وصغارهم.. صدقنى عندما أقول لك أنى لجأت إلى هذه الوكالة التى إستهوانى إسمها الضخم منذ اللحظة الأولى ولكنى صدمت عندما جاءنى الرد القاطع بأنه لا توجد قصاصة ورق واحدة أو تقرير أو بيان أو محضر عن السياسة والسياسيين فى السودان.. وعندما تساءلت عن سر إنشائها واختصاصاتها كان الجواب الرسمى أنها أنشئت لتشرف على شئون الثقافة والإقتصاد ولا صلة لها بالسياسة من قريب أو بعيد.

لا روابط اقتصادية

وعلى فكرة لم يكن هناك أى رابطة إقتصادية بين البلدين لكى تشرف عليها وكالة طويلة عريضة يرأسها وكيل وزارة أو حتى مجرد موظف واحد صغير.. فإقتصاد السودان يخضع وقتها من الألف للياء للندن وشركات الإنجليز الملتفين حول الحاكم العام.

إنت شفت السودان..!!

وأذكر بهذه المناسبة أن روبرت هاو الحاكم العام السابق مر بالقاهرة فى طريقه إلى لندن قبيل الثورة بشهور وتوجه لمقابلته فى المطار وكيل الوزارة لشئون السودان فى ذلك الوقت.. وبعد أن صافح الوكيل الحاكم العام وقدم له نفسه إذا بروبرت هاو يسأله بالعربية الفصحى: "فلان بك إنت شفت السودان "؟ ولم يدر الوكيل بماذا يجيب لأن سيادته الذى رأس وكالة السودان طويلاً وكان بمثابة المستشار الأول لرئيس الوزراء فى شئون السودان لم يفكر لحظة واحدة فى زيارة الخرطوم ولو للنزهة ولم ير شبرًا واحدًا من أرض السودان. وكانت نكتة تندر بها السودانيون وقتًا طويلاً ودللوا بها على مدى بُعد القاهرة عن الخرطوم وما يجرى فى ربوع السودان من أحداث متلاحقة.

معركة عنيفة فى الفندق

أعود بك مرة أخرى إلى فندق سميراميس فهناك معركة حامية عنيفة تدور رحاها فى ردهات الفندق وقاعات الطعام وغرف النوم. هذه المعركة التى بلغت ذروتها فكادت تعصف بكل شئ والإنجليز على وشك تنفيذ آخر مرحلة من مراحل خطتهم لمواجهة العالم بسودان مستقل عن مصر يخضع عشرات من السنين لاحتلالهم ونفوذهم وتوجيههم .

وإلى اللقاء غدا.

الهوامش

(١٣١) لور بالمرستون أو بامرستون ١٧٨٤ - ١٨٦٥م، لقب هنرى جون تامبل، سياسى بريطانى من أركان حزب الأحرار، تولى وزارة الخارجية ثلاث مرات ورئاسة الوزراء مرتين، لعب دورًا بارزًا فى الشئون الأوروبية، أيد الحركات القومية حينما إتفقت مع المصالح البريطانية.

- منير البعلبكى: مرجع سابق، ص ١٣٠.

(١٣٢) كان صلاح سالم قد لقى عنتًا من الأحزاب التى ترفع شعار الوحدة وتلك التى تمت إليها بصلات، من حيث اعتمادها هى الأخرى هى طائفة الختمية، يثيرون تحفظات شكلية أو هامشية وكانها لب اللباب، ولكنها فى الحقيقة الأحقاد الشخصية بين الزعامات كل يخشى أن يحظى الغريم بالمساندة التى قد ترفعه إلى تفرد فتنتكس بالتالى مكانة الآخرين إلى حضيض، وكان صلاح سالم يرى أنه لا بد من الجمع بينهم فى إطار تنظيمى واحد على الرغم مما بينهم من إختلافات عميقة: "أن يفرض عليهم فرضًا أن يتكاتفوا فى سبيل الأهداف وإلا فإنه ينذرهم بأن مآلهم إلى السقوط جميعًا..... إلى مصير سواء".

- حسين ذو الفقار صبرى : مرجع سابق ص ٢٩١.

(١٣٣) أحمد نجيب الهلالى هو رئيس آخر وزارة مصرية فى عهد الملكية وأحد رجال السياسة والقضاء البارزين فى هذا العصر. ولد فى أكتوبر ١٨٩١ بأسيوط. عين وزيرًا للمعارف فى وزارة توفيق نسيم والتى أيدها حزب الوفد وأعادت دستور ١٩٢٣ ثم إنضم إلى حزب الوفد وأعيد وزيرًا للمعارف عام ١٩٣٧ قبل سقوط الوزارة. وفى فبراير ١٩٤٢ عاد للمرة الثالثة وزيرًا للمعارف وأقر مجانية التعليم الإبتدائى التى نادى بها طه حسين المستشار الفنى لوزارة المعارف فى ذلك الوقت. وفى يناير ١٩٥٠ رفض الهلالى الاشتراك فى الوزارة الوفدية وإعتزل الحياة السياسية. وفى صيف ١٩٥١ ظهرت له إتصالات ببعض رجال السراى والانجليز ثم خرج عن عزلته بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ بتصريح هاجم فيه الوزارة فقرر الوفد فصله من الحزب.

تولى الوزارة فى مارس ١٩٥٢ رافعًا شعار التطهير قبل التحرير وشن هجومًا على الوفد وإعتقل جمعًا من العناصر الوطنية وحل البرلمان وأعلن الأحكام العرفية وفرض الرقاب على الصحف. وسقطت هذه الوزارة فى ٢ يوليو ١٩٥٢.

- شكرى القاضى: مرجع سابق، ص ٦٧.

- آرثر جولد شميت: مرجع سابق، ص ٧٤٧.

(١١) تنصيب المهدى ملكًا على مصر والسودان

زعماء السودان فى معتقل الثانوية العسكرية.

أعود بك مرة أخرى إلى فندق سميراميس لتتابع معى معركة الوصول إلى الإتحاد بين زعماء أحزاب الإتحاد. قلت لك أنى عقدت مئات الإجتماعات مع رجالات الإتحاديين كل فريق منهم على حدة. فما يمكن أن يقبله نور الدين يرفضه إسماعيل الأزهرى جملة وتفصيلاً وما يرضى عنه الأزهرى ويطالب به يثير ثائرة حماد توفيق وما يقترحه حماد توفيق يضع الطيب محمد خير أمامه ألف عقدة وعقدة.. وخضر حمد.. وميرغنى حمزة.. وخضر عمر وهكذا إلخ قائمة طويلة.

وبعد أيام خيل إلى أن الوصول إلى إتفاق بين العرب وبن جوريون[١٣٤] أو بين الروس والأمريكان أكثر إحتمالا من اتحاد الزعماء الإتحاديين وكاد اليأس يغمرنى وشاركنى يأسى نفس الزعماء.. زعماء الإتحاديين.. فقد أجمعوا بعد خلافاتهم الطويلة على أمر واحد اتفقوا عليه وهو إستحالة تحقيق أى إئتلاف بين أحزابهم المتنافرة فإن الخلافات التى بينهم أعنف وأعمق من أن تعالجها إجتماعات أو وساطات فقد تأصلت فيهم منذ زمن طويل وساعدت فى كثير من الأحوال على تدعيمها بعض التصرفات من الحكومات المصرية المتعاقبة ورجالاتها فى الخرطوم .

مد.. وجزر

فكانت حكومة الوفد مثلا تقرب أزهرى وتبتعد بنفس القدر عن نور الدين فإذا جاءت حكومة السعديين[١٣٥] إنقلبت الآية ويصبح نور الدين أقرب الإتحاديين إلى قلوب رجالها ويقف أزهرى فى المعارضة كالوفد وقتها فى مصر

وهكذا.. أى أن الخلافات بين الأحزاب المصرية انعكست إلى حد بعيد على هذه الأحزاب الإتحادية فزادت من هول الهوة بين رجالاتها ووصلوا فى تنازعهم إلى حد الوصول أمام المحاكم فى السودان يتصارعون حول أموال وممتلكات ومطابع وجرائد حزبية.

وما أسهل أن يتهم رجال أى حزب زعماء حزب آخر بالخيانة العظمى وبالتعاون مع المستعمر كعادة معظم الساسة فى شرقنا العربى فى أسلوبهم الحزبى.. وكنت أقف حائرا وسط هذه القذائف الصاروخية التى تنطلق بين حجرات وردهات الفندق .

حبس زعماء السودان فى الثانوية العسكرية

ولمس أحد الإتحاديين من الشبان مدى ألمى وتعبى حتى أنى كنت أستأذنهم وأنسحب من الاجتماع لأرقد على سرير فى غرفة مجاورة لنصف ساعة أو ساعة حتى أتمكن من مواصلة الاشتراك فى المناقشات بعد أن يكون عقلى قد توقف كلية عن التفكير نتيجة عدونا ليل نهار فى حلقة مفرغة لا نهاية لها على الإطلاق وقال لى هذا الإتحادى الشاب لما لمس مبلغ إعيائى: "يا أخى أنتم وديتم نفسكم فى داهية وعرضتم حياتكم للضياع علشان تخلصوا من السياسيين عندكم" وكان معظم السياسيين القدامى وقتها فى مبنى شهير وهو الثانوية العسكرية فى مصر. ومضى يقول : "بالله عليكم تريحونا من السياسيين بتوعنا كمان وكلهم موجودين فى مكان واحد وترسلوهم للثانوية العسكرية بتاعتكم وتكونوا بذلك قد حققتم وحدة وادى النيل عمليا وبأسلوب جديد".

كانت نكتة.. وأُطلقت بعد قليل إلى كل غرف الفندق فأضفت جوًا مرحًا للحظات وسط الإجتماعات الواجمة والوجوه العابسة والمناقشات الحادة.

خلاف فى الصفوف الثانية

ولم تقتصر الخلافات والحزازات على رؤساء الأحزاب فقط ولكنها تعمقت بشكل أعنف وأقسى بين رجال الصفين الأول والثانى من هذه الأحزاب .

وكثيرًا ما كان يخيل إلى فى لحظة من اللحظات احتمال الإتفاق بين أزهرى ونور الدين بل حدث هذا الإتفاق فعلا فى جلسة استمرت من الصباح الباكر إلى ما بعد غروب الشمس بقليل فى صالون برياسة مجلس الوزراء ضم ثلاثتنا طوال هذه المدة وطلب الزعيمان منى أن أستدعى لهما السيد يحيى الفضلى ساعد الأزهرى الأيمن وخضر عمر ساعد نور الدين الأيمن أيضًا ليباركا هذا الإتفاق الذى سيكون نواة قوية بلا شك لجمع شمل بقية الأحزاب الإتحادية..

وجاء يحيى الفضلى وخضر عمر وبعد أقل من نصف ساعة إنهارت كل آمالى فى الوصول إلى إتفاق ووفاق وكان نور الدين قد قبل رئاسة أزهرى فى الحزب الجديد المقترح تشكيله قبيل وصول ساعدى الزعيمين ولكن ما أن رأى يحيى الفضلى وبدأ النقاش يدور بينهما إلا وعاد لتوه يرفض مجرد مصافحة أزهرى بعد اليوم ..

ومضى يوم كامل كبقية الأيام التى سبقته وضاعت كل جهوده سدى ونسى أزهرى ونور الدين عناقهما وقبلاتهما المتبادلة التى تمت منذ وقت قصير.. تركت أزهرى ونور الدين فى الصالون وحدهما واصطحبت يحيى الفضلى وخضر عمر إلى غرفة أخرى وإنضم إلينا مبارك زروق – وزير الخارجية الحالى – وبعد ساعات تم الوفاق بينهما على شرط أن يتنازل يحيى وخضر عن المطالبة بأى منصب فى تشكيل الحزب الجديد .

لا عناق بعد اليوم..!

عاد الأمل عندى ينتعش من جديد وعدنا إلى الصالون حيث وجدنا أزهرى ونور الدين وكان يبدو عليهما أنهما لم يتبادلا كلمة واحدة فيما بينهما طوال غيابنا وما أن نظرت اليهما إلا وتوجست شرًا.. وإقترب عقربا الساعة ليتعانقا معلنين منتصف الليل وإبتعد نور الدين عن أزهرى، وأزهرى عن نور الدين، ليعلنا أن لا عناق بعد اليوم ولا قبلات بين القوم..

التشكيك فى الإيمان بالوحدة

وخيل إلى أن الحلم قد تبدد إلى الأبد واحتمال وقوف مصر صفًا واحدًا مع كل أحزاب السودان إتحادية وإستقلالية لنواجه الإنجليز ونطالبهم بالخروج

وبرفض مشروع دستورهم.. قد أصبح بعيد المنال بل غدا من أشد المستحيلات وأخذت أتخيل قرب حدوث الحادثة ، كارثة إقدام الإنجليز على تنفيذ مشروعهم. وأحب أن أسجل هنا حقيقة مهمة أرجو ألا تغضب أحداً، ما إجتمعت مرة واحدة بزعيم لحزب من هذه الأحزاب الإتحادية إلا وحاول بكل الحجج والقصص التاريخية أن يشككنى فى صدق نوايا الزعيم الآخر نحو فكرة الإتحاد بين مصر والسودان .. ترى هل كانوا جميعا يطلعون يومها على الغيب؟..

اتهامات

ومن الأمور التى كانت تدير رأسى إتهام كل فريق للفريق الآخر بأن أنصاره من شعب السودان لا يزيدون عن العشرة أو العشرين مع التساهل الشديد وعلى أقصى تقدير.. بل أن البعض قد غالى فى تقديره وإتهم بعض الأحزاب بأن عدد مريدى وأعضاء كل منهم لا يزيد على ثلاثة ولما لفت نظرى الراوى إلى أن بعض الأحزاب التى يتهمها، لها وفود بيننا يتكون بعضها من ثلاثة أعضاء قال من فوره "أيوة أنا عارف هم دول كل أعضاء الحزب" وكانت هذه الإتهامات المبالغ فيها إلى هذا الحد تدل على مدى عمق الهوة بينهم وكنت أختلى إلى نفسى وأتساءل عن عدد الإتحاديين فى السودان إذا صدقت إتهامات كل فريق نحو الفريق الآخر، وبعد حسبة يسيرة كنت أصل إلى أن الإتحاديين على هذا الوضع لا يزيد تعدادهم فى كل السودان عن مائة.. وستعرف فيما بعد أن أغلبية السودانيين أعطتهم أصواتها فى أول انتخابات ولكنه الصراع الحزبى العنيف الذى مرت به أممنا العربية فى حياتها السياسية الحديثة التى جاءت فى أعقاب الاستعمار والاحتلال.

وفى الوقت الذى كانت تدور فيه هذه المفاوضات المضنية الشاقة بينى وبين القادة الاتحاديين المتنافرين دون أن نتمكن من معالجة صلب الموضوع الذى دعوناهم من أجله .

ألا وهو مناقشة مشروع الدستور والإتفاق على خطة موحدة نواجه بها الإنجليز لنحبط مسعاهم وهدفهم الذى أوشك أن يتحقق.

زعيم معارض يزور مصر

أقول فى هذا الوقت بالذات كان ينزل فى أحد القصور فى القاهرة زعيم سودانى كبير يقود فلسفة دينية يعتنقها فريق مهم من السودانيين كما يقود فكرة سياسية ويرعى حزبًا سياسيًا.. وطالما اصطدم هذا الزعيم بكل الحكومات المصرية المتعاقبة وطالما اصطدمت به كل هذه الحكومات.. إنه ابن ثائر كبير أراد فى يوم من الأيام بعد أن إمتلك السلطة عنوة فى السودان أن يضم إليه مصر بحد السيف وجاء الإبن يناهض طوال ربع قرن أو يزيد كل جهد قامت به مصر لتوحد بينها وبين السودان .

مصر كإسرائيل

ظل هذا الزعيم أعواما عديدة يتحاشى أن تطأ قدمه أرض مصر ولو للحظات فى طريق سفراته المتعددة للخارج من أجل السياسة والإستشفاء.. كان يختار الطائرات التى لا تهبط فى أى مطار مصرى كما يفعل العرب الآن بالنسبة لإسرائيل. إنه زعيم واضح غاية الوضوح صريح الى أبعد حدود الصراحة. إتهمه معظم رجالات الحكومات المصرية قبل الثورة بأشد الإتهامات وأقساها فى تصريحاتهم وبياناتهم وصحفهم وإذاعاتهم، وإتهمهم هو بدوره بنفس القسوة.. ولم يكن هناك ذرة من الأمل فى إمكان أى تلاق بينه وبين مصر قبل الثورة.. قام الرئيس السابق نجيب الهلالى فى وزارته الأخيرة (١٣٦) ببعض الجهد محاولاً تضييق الهوة بينه وبين مصر ولكن جهود الهلالى ذهبت سريعًا بذهاب وزارته .

حب.. وكراهية.. واحترام

جاء وقت كنت عنده بمثابة الإبن.. أحبنى وأحببته من قلبى.. وبعد وقت قصير افترقنا من أجل ظروف السياسة وحدها كما سيأتى شرحه فى كتابات مقبلة ورغم هذا الافتراق احتفظت بعمق حبى واحترامى له ثم إلتقينا أخيرًا وتصافينا. إنى أجد له أكثر من مبرر وسبب لكى يحنق على فى وقت من الأوقات كما أنى أشعر ـ مجرد شعور ـ بأنه يجد لى بينه وبين نفسه أكثر من مبرر وسبب لمواقفى منه ومن رجاله. على كل حال إنه ابن من أبناء النيل وكلنا من أبناء النيل. إنه السيد عبد الرحمن المهدى.

عندما تسلمت قضية السودان فى أغسطس فور قيام الثورة كان السيد عبد الرحمن المهدى فى زيارة لإنجلترا.. وكان فى مصر رجل من رجالاته السيد صالح الشنقيطى زعيم الجمعية التشريعية فى ذلك الوقت.. كان الشنقيطى ينزل أيضًا فى فندق سميراميس العتيد فى غرفة بعيدة من غرف القادة الإتحاديين بعد الإتحاد عن الانفصال.

لقد حدثتك طويلا عن العلاقات بين الكثير من قادة الإتحاد وأظن أنه يمكنك أن تستنتج العلاقة بين الإتحاديين والإستقلاليين أو الإنفصاليين. وكان الشنقيطى يؤمن بالإستقلال ويناهض بعنف الإتحاد وكل الإتحاديين .

هجوم الاستقلاليين

دارت بينى وبينه وفى فندق سميراميس أيضًا أحاديث طويلة هاجم هجومًا مريرا للإتحاد وزعماء الإتحاديين وهذا أمر طبيعى كما تكلم حول ضرورة حسم الخلاف المزمن بين مصر والسيد عبد الرحمن المهدى زعيم طائفة الأنصار وكنا نؤمن ايمانًا تامًا بضرورة الوصول إلى هذا الغرض وكنا نؤمن كذلك باستحالة تغيير حرف واحد مما انتوى الإنجليز تطبيقه وتنفيذه فى السودان خلال شهور بل أسابيع من فصل، وإبقاء لإحتلالهم.. إذا بقى زعيم واحد فى السودان على خلاف مع مصر .

تقارب.. وتنافر..!!

أرسلنا دعوة رسمية إلى السيد عبد الرحمن المهدى ليزور مصر وينزل فى ضيافتها فى طريق عودته من لندن إلى الخرطوم. وقام الشنقيطى بإتصالات تليفونية يومية بالسيد عبد الرحمن فى لندن لترتيب أمر هذه الزيارة التى تم الإتفاق حولها ـ تلك الزيارة التى خطت بنا خطوة ضخمة نحو تحقيق هدف مجلس قيادة الثورة ألا وهو إخراج الإنجليز من السودان، وما أن ذاع خبر هذه الزيارة حتى أخذت عشرات التليفونات والرسائل والبرقيات تتوالى إلى من فريق من السودانيين تنذرنا بسوء العاقبة إذا تمت هذه الزيارة وتؤكد أن كل تقارب يتم بين مصر والسيد عبد الرحمن المهدى سينتج عنه تباعد وتنافر بين مصر وفريق

آخر من أهل السودان وبحسبة بسيطة لا نكون قد خطونا أى خطوة للأمام نحو توحيد الصفوف .

لم أتصل بالختمية بعد

ولا أحب أن يتبادر إلى ذهنك أن السيد على الميرغنى(١٣٧) أو المحيطين به كانوا من بين الذين إتصلوا به متشائمين ومتشككين ولم أكن حتى هذا الوقت قد تعرفت إلى السيد على الميرغنى أو إلى رجاله. ولكن الخلافات العميقة بين كل أحزاب السودان وطوائفه جعلتنى أخشى فعلاً من أى خطوة يمكن أن أخطوها فى هذه القضية فلا شئ يمكن أن يرضى عنه الجميع ويتفقوا عليه.

وكنت أتساءل بينى وبين نفسى ـ هل أخطأنا حقا فى مد يدنا نحو السيد عبدالرحمن المهدى وبينه وبين غيره من السودانيين أعنف الخلافات وأعمق الشقاق؟ كما كنت أتساءل. وهل من الممكن أن نتفق مع الإنجليز ونجبرهم على تنفيذ خطة معينة دون أن نتفق مع السيد عبد الرحمن المهدى زعيم الأنصار ورائد حزب الأمة والرجل الذى تدين له بالولاء المطلق قبائل بأسرها قوية فتية متماسكة؟ ..

كان لا مفر من المحاولة مع الجميع والإتصال بالجميع ومحاولة إتساع الجميع والله وحده يتكفل بالنتائج.. لا أمل فى الوصول إلى شئ مع الإنجليز إلا إذا توحدت كتلة السودان والسودانيين ولا أمل من زوال احتلالهم واستعمارهم لجنوب الوادى إلا ببلوغ هذه الغاية مهما بدت طرق الوصول إليها وعرة شاقة شائكة . يجب أن نحصل على توكيل كامل شامل من كل السودانيين قبل أن ندخل فى أى تفاوض مع الإنجليز.

ملك للسودان

وفجأة ملأت الجو إشاعة خبيثة.. إشاعة أخذت تنتقل بكل حرية بين القاهرة والخرطوم وتدور حول إتجاه مصر إلى الإتفاق مع السيد عبد الرحمن المهدى ليكون أول ملك على السودان وأن مصر أنتوت الجهر بالعداء ومحاربة الفريق الآخر من السودانيين الذى يعادى السيد عبد الرحمن. وأخذ البعض يطوف بين

المحافل السياسية والندوات الحزبية فى الخرطوم. وما أكثرها ـ يؤكد هذا الخبر ويقسم بأغلظ الإيمان على أنه إستمع إليه بأذنيه من قادة الثورة والمتصلين بهم فى القاهرة.

لا تقل ما شأنك والشائعات؟ ولكنى أؤكد لك بعد خبرة بشئون السودان، كم فعل هذا السلاح.. سلاح الشائعات.. فى سياسة السودان. وكم تحكم وأثر فى كثير من الأوقات على مجريات الأمور فى السودان.. إشاعة واحدة محبوكة الأطراف تعتمد على بعض الحقائق والمظاهر يطلقها البعض فى جانب من جوانب العاصمة المثلثة وتتردد فى جنباتها كفيلة بقلب آراء ونسف خطط وتدمير إئتلافات وتغيير مبادئ..!

اعتمدت هذه الإشاعة على حقيقة صغيرة.. حقيقة لا تمت بصلة إلى هذه الإشاعة الخطيرة التى هددت بالنسف جهود الوفاق والإئتلاف .

سأحدثك عنها غداً إن شاء الله.

الهوامش

(١٢٤) دافيد بن غوريون (١٦ أكتوبر ١٨٨٦ ـ ١ ديسمبر ١٩٧٣)، أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل. ولُد بن غوريون فى مدينة " بلونسك" البولندية باسم دافيد غرين، ولتحمسه للصهيونية، هاجر إلى فلسطين فى ١٩٠٦. امتهن بن غوريون الصحافة فى بداية حياته العملية وبدأ بإستعمال الإسم اليهودى "بن غوريون" عندما مارس حياته السياسية.

(١٣٥) حزب سياسى مصرى تألف فى أوائل عام ١٩٣٨ بإنفصال عدد من أعضاء الوفد المصرى، بدأت هذه الحركة الإنفصالية التى مهدت لقيام الحزب بخروج النقراشى باشا فى سبتمبر ١٩٣٧ وكان وزيراً للمواصلات فى الوزارة الوفدية برئاسة النحاس باشا، وإنضم إليه أحمد ماهر.

شكل حزب الهيئة السعيدية أول وزارة برئاسة رئيسه أحمد ماهر فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ الذى اغتيل فى ٢٤ فبراير ١٩٤٥م، فخلفه على رئاسة الحزب والوزارة النقراشى باشا.

(١٣٦) أعيد نجيب الهلالى باشا إلى الوزارة فى ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ثم استقال بعد ١٨ ساعة فقط لقيام ثورة ٢٣ يوليو. بعد الثورة اعتزل السياسة حتى توفى فى ديسمبر ١٩٥٨.

(١٣٧) السيد على الميرغنى (١٨٧٣ ـ ١٩٦٨م) زعيم دينى وسياسى سودانى. سليل أسرة الميرغنية المعروفة ولد فى جزيرة مساوى فى ديار الشايقية وأنتقل منها إلى مدينة كسلا، خرج مع والده إلى سواكن حيث درس العلوم الإسلامية على يد عمه السيد تاج السير الميرغنى ومنها إلى مصر وبعد الفتح الإنجليزى المصرى للسودان عام ١٨٩٨ بثلاث سنوات عاد للسودان عام ١٩٠١ عن طريق سواكن ومنها إلى كسلا. وساهم فى نشر الإسلام.

وقد رأت سلطات الحكم الثنائى أن محاربة المهدية والأنصار لن تتم إلا بمساعدة الطرق الصوفية التى حاولت المهدية منعها. فوقفت إلى جانب الطريقة الختمية. ترأس الوفد الذى ذهب إلى بريطانيا ليتفاوض مع الإنجليز فى مستقبل السودان إلى أين هم به سائرون، وقد حدثهم مولانا السيد على طويلا عن مستقبل السودان وضرورة إنتمائه إلى العالم العربى والإسلامى وضرورة خلاصه من الوصاية الإنجليزية. إنتخب رئيسًا لحزب الأشقاء الذى كان يدعو للاتحاد مع مصر.

كان سنداً للإتحاديين وإختلف مع إسماعيل الأزهرى ولما إنقسم الحزب الإتحادى وقف مع حزب الشعب الديمقراطى. انشأ جريدة " صوت السودان" كان مهتمًا بالعلم توفاه الله عام ١٩٦٨م ودفن بمسجده بالخرطوم بحرى. خلفه ابنه السيد محمد عثمان الميرغنى بن السيد على الميرغنى.

محسن محمد: مرجع سابق، ص ٤٢.

ـ محمد إبراهيم أبو سليم: بحوث مرجع سابق، ص ٤٥.

(١٢) قصة السقالات وأزمة قصر الزعفران

الملكية والمهدية وسراى آل لطف الله

حدثتك عن الإشاعة التى انطلقت فى كل مكان فى الخرطوم تؤكد تنصيب السيد عبد الرحمن المهدى ملكًا على مصر والسودان واعتزام مصر الوقوف موقف العداء الواضح للفريق الآخر من السودانيين . وكان يبدو فى ذلك الوقت أن احتمال أى وفاق بين طائفتى الختمية والأنصار فى السودان أمر مستحيل.

لقد اعتمد مروجو هذه الإشاعة على تفصيلات البرنامج الذى أعدته الحكومة المصرية لاستقبال السيد عبد الرحمن المهدى فى القاهرة . لقد شمل هذا البرنامج فيما شمل استضافة سيادته فى قصر الزعفران[١٣٨].. ولقصر الزعفران ماض فى استقبال الملوك والرؤساء . فقد سبق أن استضافت مصر الملك الراحل عبد العزيز آل سعود [١٣٩] والملك الراحل عبد الله بن الحسين [١٤٠] ملك الأردن فى هذا القصر بالذات.. وعليه فنزول السيد المهدى فى نفس القصر كان بمثابة الدعامة الرئيسية التى بنيت عليها هذه الإشاعة..

وحتى زعماء الأحزاب الاتحادية فى ذلك الوقت فى فندق سميراميس وصلتهم هذه الإشاعة وكانت مدارًا لأحاديثهم.

إشاعة أكثر من حقيقة

استهنت بهذه الإشاعة فى أول الأمر وأهملتها لبضعة أيام ولكن التقارير أخذت تنهال على من كل جانب تؤكد أن هذه الإشاعة قد أصبحت فى نظر الكثيرين أكثر من حقيقة.

أصبحت ملزما بعمل شئ ما.. أى شئ للقضاء على هذه الشائعة التى تهدد بنسف أى وفاق بين السودانيين أو بينهم مجتمعين وبين مصر.

تغيير قصر الضيافة

فكرت وفكر معى الكثيرون واهتدينا إلى حل .. يجب أن يتغير برنامج زيارة السيد عبد الرحمن المهدى .. ويجب تغيير قصر الضيافة بأى شكل وبأى ثمن .. يجب أن ينزل السيد عبد الرحمن فى قصر آخر يليق بمكانته وزعامته ولا مانع من أن يكون أعظم وأفخر من قصر الزعفران ولكن بشرط واحد! .. يجب أن لا يكون ملك ما ـ أى ملك ـ قد حل ضيفا على هذا القصر ولو فى زيارة عابرة ..

لقد بنيت الإشاعة على تاريخ القصر ـ قصر الزعفران فإذا ما تغير انهارت الإشاعة من أساسها..

ولكن أين هذا القصر..؟! وأين أجده ..؟

اطمئنان لحسن الاستقبال

إنها مشكلة.. وإن كانت تبدو موضوعًا شكليًا بحتًا . يجب أن أبحث عن هذا القصر.. وأن أتفقده، وأن يجهز لإستقبال الضيف القادم. وكل هذا يجب أن يتم فى أقل من ٢٤ ساعة وهناك نقطة أخرى يجب أن يعمل لها ألف حساب وحساب..! وهى مدى تأثير هذا التغيير على السيد عبد الرحمن نفسه.. لقد مضت علينا أيام تبادلنا فيها مع لندن ـ حيث كان يقيم سيادته فى ذلك الوقت ـ عشرات المحادثات التليفونية حتى اتفقنا على كل تفصيلات البرنامج.. كان الرجل يريد أن يطمئن على أن مصر لن تسئ إستقباله.. ولن تعمل شيئًا لا يليق بمكانته لاختلافها الطويل معه حول مستقبل السودان وعلاقته بمصر..

كيف سيقابل السيد عبد الرحمن مثل هذا التغيير المفاجئ فى البرنامج..؟ ونحن ندخل فى معركة إعادة الثقة المفقودة ؟ ووصل ما بين القلوب. يجب أن تعود الثقة بأى شكل وبأى ثمن.. فلن يرضخ الإنجليز إلى أى طلب لمصر حول مستقبل السودان ما لم تتفق مصر مقدمًا مع كافة الأطراف السودانية حول هذه القضية.

مع مندوبه فى القاهرة

اتصلت بالشنقيطى مندوب سيادته فى القاهرة.. وحاولت أن أجس نبضه حول إمكان تغيير البرنامج ولكنه أخبرنى بصدق أن أى تغيير أو تبديل فى دقائق

البرنامج المتفق عليه سيدفع الرجل حتمًا إلى إلغاء رحلته وعدم قبول دعوة مصر وأخرج من جيبه الورقة التى دون فيها كل ما اتفقنا عليه وأصر على تنفيذ كل ما جاء فيه حرفيًا.. طريقة استقباله فى المطار ومن الذى يستقبله.. ونوع العربة التى سيركبها.. وأين يقيم فى القاهرة .. وأماكن زياراته إلى آخر البرنامج..

تركته وعاودت التفكير والعمل على تذليل هذه العقبة وأخذت الساعات تمضى سراعًا.

ذهبت إلى قصر الزعفران وأخذت أطوف بجنباته ووقفت فى حديقته أفكر محاولا العثور على حل لهذه العقبة. ومضت فى ذهنى فكرة عدت فى أعقابها إلى مكتبى واتصلت بأحد المقاولين ودعوته ليرانى.

السقالات فى الزعفران

حضر المقاول على عجل.. وقلت له أنه مطالب بإعداد سلسلة ضخمة من السقالات حول قصر الزعفران حتى يبدو القصر وكأن به عمارة ضخمة لتجديده وإصلاحه .. وحاول المقاول أن يفهم شيئًا.. حاول أن يفهم ماهية الإصلاحات المطلوبة منه للقصر ولكنه خرج من مكتبى ولم يفهم إلا أن يقيم هذه السقالات هذه الليلة بالذات وينتهى من إقامتها قبل بزوغ صباح اليوم التالى.. وخرج يصدر أوامره إلى عماله.. كل عماله لإقامة السقالات المطلوبة.. وفعلاً تمت إقامتها فى نفس الليلة وبدأ القصر غير لائق إطلاقًا لاستقبال الضيف الكبير ..

حداثة عهد بالحكم

فى صباح اليوم التالى اتصلت بالشنقيطى وأخطرته بالمشكلة التى تواجهنى معتذرًا له بحداثة عهدنا بأمور الحكم وعدم معرفتى لما يحدث فى القصر وقت أن اتفقت معه حول تفصيلات الزيارة.. صمت الشنقيطى طويلا حينما فوجئ بهذا الخبر ولم يخف عنى ألمه من هذه المفاجأة ولكنه قدر تماما موقفى ووعدنى بتذليل هذه العقبة وإزالة ما قد يطرأ من شكوك حول هذا الموضوع. وإنى على ثقة من أن الشنقيطى لم يتأخر لحظة عقب افتراقنا فى ذهابه إلى قصر الزعفران ليشاهد بعينه سقالات المقاول.. ولا شك أنه اطمأن إلى ما قلته له..

البحث عن قصر

ولكن.. أين القصر الآخر الذى سينزل به سيادته .. الساعات تمضى والطائرة تقترب بالضيف الكبير وأمامى أكثر من اسم لقصر وأمام كل منها مشكلة..

أكد لى أكثر من فرد ممن اتصلت بهم بأن قصر آل لطف الله بالزمالك أنسب القصور جميعها.. إنه قصر فخم فاخر يحمل كل الشروط المناسبة لحل الإشكال وقتل الإشاعة فهو أفخر من قصر الزعفران وأكبر منه فلن يتبادر إلى الأذهان أن هذا التغيير يرمى إلى النيل من مكانة الزعيم القادم.. ثم.. وهذا هو المهم.. لم يسبق لأية حكومة مصرية أن إستضافت ملكًا أو رئيسًا لجمهورية فى هذا القصر منذ إنشائه.. شعرت بسعادة لا تقدر لقرب إنهاء الإشكال وخيل إلى فى هذا الوقت أنى لم أعثر على قصر.. ولكنى عثرت على كنز.. كنز ثمين لا يقدر بمال..

أليس خروج الإنجليز من السودان بعد إزالة كل الخلافات بيننا وبين السودانيين يساوى أكثر من كنز ثمين.. بادرت واتصلت ببعض المندوبين وكلفتهم بتجهيز القصر خلال ساعات وإعداده حتى يليق بإستقبال الضيف الكبير..

آل لطف الله

وبعد ساعة عاد أحد المندوبين يحمل إلى خبرًا مزعجًا أقض مضجعى من جديد وزاد المشكلة تعقيدا فوق ما هى عليه.. أخبرنى بأن آل لطف الله يقيمون فى القصر(١٤١) وعندهم من الظروف الخاصة ما يمنعهم من إخلائه قبل وقت طويل وحاول المندوب إقناعهم بكافة السبل .

ولكنهم اعتذروا.. وأطلعوه على ظرفهم الخاص.. وقال لى المندوب ببساطة بعد أن قص على هذا الخبر يجب أن نبحث عن قصر آخر بأى شكل خلال الساعات القليلة الباقية..

لم يكن من الممكن أن نعدل عن قرارنا الخاص بقصر الزعفران حتى ولو تجاهلنا كل الإشاعات التى انطلقت .. السقالات الآن تحيط به من جميع الجهات ولم يعد فى حالة تسمح باستقبال الزائر ..

الرضا والموافقة

ركبت سيارتى وإتجهت إلى سراى لطف الله وقابلت أصحاب البيت وأقنعتهم بحرج موقفى .. وبعد أقل من ساعة.. كان القصر قد أخلى تماما برضائهم الكامل.. استبشرت بنجاح المفاوضات السودانية عندما نجحت فى مفاوضاتى حول قصر الضيافة ودارت الاستعدادات على قدم وساق لإعداد القصر وتجهيزه..

ووصل السيد عبد الرحمن المهدى إلى القاهرة (١٤٢) وحل ضيفًا بالقصر وعلمت بإطمئنان رجاله إلى حسن نية الحكومة وسلامة تقديرها وسرعة تصرفها بإعداد هذا القصر اللائق عندما مروا بقصر الزعفران ووجدوا السقالات الضخمة تحيط به ولا تسمح لأحد بالاقتراب منه.. وماتت الإشاعة ..! ماتت فى القاهرة وشيعت جنازتها فى الخرطوم .

بين سراى لطف الله وسميراميس

وبدأت مفاوضاتى ومعى زميلى حسين ذو الفقار مع السيد عبد الرحمن المهدى ورجاله فى أوقات الهدنة التى كنت أبعد فيها عن فندق سميراميس حيث ينزل زعماء الأحزاب الإتحادية الذين يتصارعون حول فكرة الإتحاد لا بين مصر والسودان ولكن بين صفوفهم وصفوف أحزابهم المتناثرة .

غلاة الأعداء

وفى مستشفى خاص بقصر النيل كان يرقد زعيم سودانى آخر هو السيد إبراهيم بدرى سكرتير عام الحزب الجمهورى الإشتراكى(١٤٣) وهو الحزب الاستقلالى الآخر فى السودان فى ذلك الوقت.. وكان الزعيم المريض قد قبل بعد جهد وإلحاح زيارة مصر على رأس وفد من حزبه.. جاء ليكمل حلقة المفاوضات بين مصر والسودان فى سبيل تشكيل جبهة متحدة بين البلدين لمواجهة الاستعمار البريطانى.. تردد إبراهيم بدرى طويلا فى قبول الدعوة وتشكك فى مرماها وكان من غلاة الناقمين على مصر واليائسين من التعاون معها.. كان قد فقد كل أمل ورجاء فى مصر عقب قبول الحكومة المصرية الإنذار البريطانى عام ٢٤ الذى

وجهته إليها إنجلترا عقب مقتل السردار فسحبت جيشها من السودان تاركة الجنود السودانيين الثائرين ضد الاحتلال البريطانى مع جيش مصر فى السودان ليلاقوا أتعس مصير وليجابهوا بريطانيا وحدهم بمعزل عن كل نصير أو حليف.. أثر موقف مصر هذا منذ ذلك الوقت فى كثير من السودانيين أمثال الأخ إبراهيم بدرى وتحول منذ هذا التاريخ بعض غلاة الاتحاديين والمؤمنين بوحدة وادى النيل إلى أعداء لمصر والمصريين.

كان إبراهيم بدرى يعانى من مرض القلب ووصل إلى مصر بالقطار بعد اتصالات عديدة وهو يائس من احتمال وصوله إلى أى إتفاق معها وكانت علاقة حزبه أسوأ ما تكون فى ذلك الوقت برجال حزب الأمة رغم مناداة الحزبين بالاستقلال كما كانت علاقة هذا الحزب سيئة أيضا مع كافه الأحزاب الإتحادية(١٤٤) ..

بشائر

امتدت حلقات إتصالاتى ومفاوضاتى بينى وبين زعماء السودان إلى هذا المستشفى.. مستشفى قصر النيل أيضًا .

بين غرف سميراميس والمستشفى وسراى آل لطف الله ورئاسة مجلس الوزراء ومجلس قيادة الثورة دارت إتصالات ومفاوضات قاسية مريرة.. وكنت أشعر أنى فى بحر خضم تتلاطم أمواجه وقد اظلم ليله ولا أمل فى الوصول إلى أى بر.. ولكن بعد أيام قلائل بدت بشائر النجاة وطلائع الفجر ونجحت المفاوضات بيننا وبين رجال حزب الأمة ووقعنا أول إتفاقية بين مصر وفريق من أهل السودان. وهم رجال طائفة الأنصار الذين لم يتفقوا مع مصر لحظة واحدة من قبل وتصارعوا معها وتصارعت مصر معهم منذ الثورة المهدية (١٤٥) إلى أن وقع هذا الإتفاق معهم فى يوم ٢٨ / ١٠ / ٥٢ وكان جوهر الإتفاقية هو المطالبة بخروج الإنجليز من السودان وتفصيلات إخراجهم وتقرير المصير بعد جلائهم العسكرى والمدنى عن أرض السودان(١٤٦).

أعلنت الإتفاقية بيننا وبين حزب الأمة.. الحزب الذى يرعاه السيد عبدالرحمن المهدى ولم يتم هذا الإعلان إلا بعد أن وقعت مع رجاله اتفاقية

أخرى لم تعلن وقتها وسميت فيما بيننا وبينهم باتفاقية الجنتلمان [١٤٧] ، وكانت هذه الإتفاقية الأخيرة تقضى بإيقاف كل عون من جانب مصر إلى أى فريق من أهل السودان [١٤٨].

سأعود بك إلى قصة الحزب الجمهورى الإشتراكى وقصة الإتحاديين المتنابذين المتنافرين.. فإلى الصباح الباكر إن شاء الله .

الهوامش

(١٣٨) قصر الزعفران، بنى أثناء حكم الخديو إسماعيل. سمى القصر بهذا الاسم لأن المنطقة المحيطة به كانت مشهورة بمزارع الزعفران. القصر. شهد القصر "توقيع معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا العظمى، ويقال أن الملك فاروق ولد فى هذا القصر. وأخيرًا فى ١٩٥٢، أصبح المقر الإدارى لجامعة عين شمس.

ويجمع قصر الزعفوان من الداخل بين طرازين هما الطراز القوطى وطراز الباروك، وهما من أهم الطرز المعمارية التى كانت تستعمل فى كثير من قصور القرن التاسع عشر. ويتقدم المدخل الرئيسى للقصر إحدى الواجهات، وهو يأخذ شكل البانكة بعقود نصف دائرية تعلوه شرفة كبيرة. ويمكن للزائر الصعود إلى المدخل إما مترجلاً عن طريق السلالم الرخامية التى تتوسطه، أو داخل عربة، حيث توجد على جانبى المدخل ممرات منحدرة خصصت لصعود العربات عليها، وهى ممرات تعود بالزائر إلى أجواء القرن التاسع عشر، حيث موكب الخديو بالعربات التى كانت تجرها الخيول، تصعد على الممرات بينما الأمراء أمام باب القصر فى شرف الإستقبال. ويتكون قصر الزعفران من ثلاثة طوابق رئيسية إلى جانب طابق تحت الأرض. ويقول خبراء آثار أن الطابق الأول كان مخصصًا للإستقبال، حيث يضم الرئيسية إلى اليسار من باب الدخول، وإلى جوارها قاعتا إستقبال أخريان، فيما تقع حجرة المائدة إلى اليمين.

(١٣٩) الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود (١٨٧٣ ـ ٩ نوفمبر ١٩٥٣)، مؤسس المملكة العربية السعودية الحديثة (الدولة السعودية الثالثة). ولد فى عام ١٨٧٣ وقبل ١٨٧٤ فى الرياض لأسرة آل سعود الحاكمة فى نجد، ولما بلغ العاشرة من عمره انتقل مع عائلته إلى منفاها فى الكويت بعد انتصار آل رشيد أمراء حائل على آل سعود، وقضى طفولته فيها إلى أن استرد الرياض سنة ١٩٠١، وفى العامين الذين تليا سقوط الرياض، إستمر ابن سعود فى السيطرة على باقى نجد مما استدعى أبن الرشيد التماس العون من الدولة العثمانية فقامت بإرسال قوة لدحره، واستطاعت القوة التركية إلحاق الهزيمة بابن سعود إلا أنه تمكن من إعادة تشغيل قواته بعد رحيل القوات التركية بسبب مشاكل فى التموين فى جزيرة العرب.

وفى عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م دخلت بريطانيا فى معاهدة القطيف أو دارين مع ابن سعود والتى تقضى على حماية الأراضى التى يسيطر عليها ابن سعود مقابل دحر ابن سعود آل رشيد الموالية للدولة العثمانية فى ١٧ جمادى الأولى ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، أصدر الملك عبد العزيز قرارًا يعلن فيه

عن نظام توحيد المملكة، وتحديد يوم الخميس ٢١ جمادى الأولى يومًا لإعلان توحيدها تحت اسم "المملكة العربية السعودية" فتوحدت جميع أجزاء المملكة العربية السعودية بشكل رسمى يوم ٢١ / ٥ / ١٣٥١هـ / ٢٢ / ٩ / ١٩٣٢م. ثم اتجه بنظره تجاه عسير وعقد معاهدة الطائف بينه وبين اليمن لتحل المشاكل الحدودية بين اليمن والسعودية عام ١٣٥٣هـ ١٩٣٤.

ـ إسماعيل أحمد ياغى: تاريخ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر قارة آسيا. دار المريخ للنشر، الرياض، ١٩٩٢، ص ٧٥.

ـ عبد الرحيم عبد الرحيم: مرجع سابق، ص ٤٠٧.

(١٤٠) الملك عبد الله الأول بن الشريف الحسين بن على (١٨٨٢ ـ ٢٠ يوليو ١٩٥١)، مؤسس المملكة الأردنية الهاشمية بعد الثورة العربية الكبرى التى قادها والده ضد الأتراك. قدم إلى الشام لمحاربة الفرنسيين فى سوريا الذين طردوا أخوه فيصل ولكنه أوقف من قبل البريطانيين فى منطقة شرق الأردن، وعرض عليه وزير المستعمرات البريطانى ونستون تشرشل قيام دولة فى الأردن تحت حكمه فوافق . فوصل إلى معان عام ١٩٢٠ ومن ثم إلى عمّان عام ١٩٢١، وتمكن فى الفترة الواقعة ما بين ٢٨ و ٣٠ مارس ١٩٢١ من تأسيس إمارة شرق الأردن.

كامل محمود خلة: التطور السياسى لشرق الأردن. مارس ١٩٢١ ـ مارس ١٩٤٨. طرابلس ليبيا، ١٩٨٣. ص ٣٤ ومابعدها.

ـ عبد اللطيف محمد الصباغ: بريطانيا ومشكلات الحدود بين الأردن والسعودية، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٦٣ ومابعدها.

(١٤١) سراى آل لطف الله هى فندق الماريوت الآن.

(١٤٢) أستقبل المهدى فى مصر أروع استقبال، ورحبت به الصحافة المصرية كما لم ترحب بأى زعيم سودانى فى يوم من الأيام، ومما قالته الصحاف فى ذلك: إنه الزائر العظيم، وإنه حيث مصر كلها، ووصفوا حياته فى السودان بأنه يعيش عيشة بسيطة فى قصره الأنيق فى السودان، وإنه كان يقول دائمًا: فاروق هو العقبة الوحيدة فى سبيل التفاهم بين مصر وبينى، وإنه لا يمكن أن يكون هناك خلاف بين مصر والسودان بعد أن رحل فاروق.

محسن محمد: مرجع سابق، ص ٧٩.

(١٤٣) قام هذا الحزب نتيجة لخلاف بين حزب الأمة والسلطات البريطانية وذلك عندما وضع حزب الأمة على أجندة الجمعية التشريعية مذكرة تطالب بالحكم الذاتى عام ١٩٥٠م اثر لقاء وزير خارجية مصر ورئيس وزراء بريطانيا ابرنست بيفن لمناقشة (قضية السودان) وتسوية خلافاتهما بهذا الشأن. بمطالبه نواب حزب الأمة بالحكم الذاتى ساءت العلاقات بين الإدارة البريطانية والحزب، لتحجيم نفوذ الحزب الأمة شجعت الإدارة البريطانية قيام الحزب الجمهورى الاشتراكى وهو تجمع لكبار رجال الخدمة المدنية السودانيين وزعماء القبائل داخل الجمعية التشريعية. وقد شجع تمرد هاتين المجموعتين الشعور بهيمنة العصبة المهدوية. اختار الحزب الجمهورى الاشتراكى ابراهيم بدرى كأول رئيس. كما كان كل من زعماء القبائل يوسف العجب، ابراهيم موسى مادبو، وابوسن من ابرز أعضاء هذا الحزب، على أن عضوية هذا الحزب من زعماء القبائل كانت مضطربة به جدًا إذ أنها بالرغم من انتمائها الوطنى إلا أن سلطة الإدارة البريطانية

التى أنشأتها واضفت عليها شرعية القيادة على قبائلها كانت ذات باس ونفوذ قويين وقد ظهر الاضطراب فى مواقف كل من ناظر المسيرية بابو تمر وناظر الأجانق الأمين على عيسى وعبد الجبار حسين زاكى الدين ناظر البديرية. فى إنتخابات ١٩٥٣ لم يحقق الحزب الجمهورى الإشتراكى أى نجاح يذكر فالزعماء الثلاثة الذين نجحوا فى هذه الانتخابات إبراهيم موسى مادبو ويوسف العجب وابو سن كانت العصبة القبلية وراء نجاحهم هذا وليس الحزب. بعد هذه التجربة الفاشلة فى الانتخابات تراجع الحزب واندثر ورجع زعماء القبائل إلى انتماءاتهم القديمة.

- صحيفة الأيام اليومية السودانية، الخرطوم، ٢٩ / ٧ / ٢٠٠٨ . القوميات السودانية والانتماء القبلى للأحزاب.

(١٤٤) واضح أن علاقة بدرى بصلاح سالم كانت سيئة.

حول هذا الموضوع راجع. حسين ذوالفقار صبرى: مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(١٤٥) أشار المؤرخون مثل نعوم شقير إلى أسبابها التى تتلخص فى: الظلم والعنف، الضرائب الباهظة، منع تجارة الرقيق، المحاباة وانتشار عقيدة المهدى المنتظر. كما حدد عوامل نجاحها فى استخفاف الحكومة فى بادئ الأمر بحركة المهدى، والانشغال بثورة عرابى فى مصر، ضعف الحاميات العسكرية لحظة وقوع الثورة، ضعف التسليح والتحصين وتعود الجنود على الترف والراحة وتردد الحكومة إذ أنها لم تتخد سياسات نافذة لإخماد الثورة ويقول د. مكى شبيكة وهنا يجدر بى أن الاحظ ما كتبه المؤرخون فى الأسباب التى أدت إلى الثورة المهدية ويجمعون على أن الأسباب الرئيسية هى فداحة الضرائب وتفشى الرشوة والعنت والظلم والمناداة بإبطال الرق.. وقد تكون هذه االأسباب أو كلها مجتمعة السبب فى انضمام البعض إلى راية المهدى، وقد يكون المهدى استعان بالبارزين ممن كانوا فريسة لواحد أو أكثر من تلك الأسباب لكن الناحية التى يهملونها والتى فى نظر المحرك الأول للثورة هى المعتقد الدينى وشخصية الإمام المهدى إذن المحرك الأول للثورة المهدى كان المعتقد الدينى وشخصية المهدى أى المهدى أن يجدد زيارته لكردفان وكان يرى فيها خير مكان لنشاط ثورته وهناك أسر لرجال الدين بأمره بدأ المهدى بالجهر لدعودته بعد عدة أشهر وكان يأمر بالجهاد واتباع سنة المصطفى فكتب إلى كل الفقهاء وزعماء القبائل كما كتب للحكمدار فى الخرطوم ونصحه أن يبايع، أرسل الحكمدار أحد معاونيه للمهدى ليتبين الأمر لكن جهوده لم تفلح فى أن يوقف الرجل عما بداه، فهدده بقوة الحكومة لكنه لم يرضخ.

- عبد الوداد شلبى: مرجع سابق، ص ٥٤.

- عبد الرحيم عبد الرحمن: مرجع سابق، ص ٣٥١.

(١٤٦) استمرت المفاوضات أسبوعًا وانتهت يوم ٢٩ أكتوبر فى مقر مجلس الوزراء المصرى وأكدت مصر: إنها ترحب بممارسة أهالى السودان الحكم الذاتى التام، وتصريح بأنها تحتفظ للسودانيين بالسيادة على بلادهم إلى يوم تقرير مصيرهم بأنفسهم، وإذا قرروا مصيرهم فى حرية تامة، تحترم قرارهم فى كل صورة يختارونها عند تقرير المصير، واتفقت مصر وحزب الأمة على تعديل الدستور المقترح للحكم الذاتى فى السودان، طوال فترة الانتقال، وتعديل قانون الانتخابات، بحيث تكون مباشرة فى فى كل السودان ما عدا بعض مناطق فى الجنوب، وإنشاء لجنة لمراقبة الانتخابات، وأخرى للسودنة، وثالثة للخدمة العامة. محسن محمد: مرجع سابق، ص ٨٠.

(١٤٧) اتفاق جنتلمان: هو اتفاق بين شخصين أو أكثر يتنازل فيه الأطراف أو أحدهم عن بعض حقوقه دون وجود عقد مكتوب أو نص يربط بين الفرقاء وحيث يكون الشرف والإخلاص والصدق أساسًا فى تنفيذ هذا الاتفاق وتطبيق بنوده. واتفاق جنتل مان بين الدول هو اتفاق ثنائى ذو طابع أدبى يقوم على تعهدات غير رسمية تتم شفهيًا أو تتم بتبادل المراسلات بين الدولتين دون توقيع أى اعتماد رسمى مما لا يترتب عليه أى التزام قانونى.

(١٤٨) نص فيه ألا تنفق مصر مالاً فى السودان إلا للنواحى الثقافية والصحية، وأن يكون الصرف عن طريق الحكومة السودانية، وأن تتعهد مصر بالا تسمح بإنفاق أى أموال لمعاونة هيئات سياسية فى السودان، وذلك للابقاء على وحدة السودانيين، أى لا تعطى مصر الأحزاب الاتحادية أية معونة مالية ليصرفوا منها فى الانتخابات، وأن تمتنع الصحف فى البلدين عن نشر أى شئ يسئ إلى روح التعاون بين البلدين.

ـ محسن محمد: مرجع سابق، ص ٨١.

(١٣) لماذا عارض الجمهوريون الجلاء ؟

كيف برأ تكتل الإتحاديين

الثلاثة الذين قرروا مصير الحزب الوطنى الإتحادى

سافر حزب الأمة بعد اتفاقى معه إلى الخرطوم وبقى الاتحاديون وقادة الحزب الجمهورى الإشتراكى.. وكان سكرتير عام هذا الحزب الأخير إبراهيم بدرى يبدو واثقا ثقة لا حد لها ومؤمنًا بحدوث حرب أهلية بين الطائفتين الرئيسيتين فى السودان وهما الختمية والأنصار فى اليوم التالى لخروج الجيشين المصرى والبريطانى.. وكان يرى أن تتفق مصر معهم على إعلان الإستقلال فى السودان.. وألا يتأخر هذا الإعلان بحال من الأحوال عن عام٥٢. وأن تبقى الجيوش المصرية والبريطانية فى السودان لفترة تحدد بعد الاستقلال حتى تستقر الأمور وتهدأ الأوضاع.. ثم تخرج الجيوش الأجنبية..

بقاء الإدارة البريطانية

كما كان إبراهيم بدرى يخشى انهيار أداة الحكم فى السودان وتدهور الإدارة إذا ما تمت السودنة التى نقترحها ونشترط حدوثها فى فترة قصيرة قبل تقرير المصير.. كان يصر على أن تبقى الإدارة البريطانية لفترة لا تقل عن عشرة أعوام يتم خلالها تدريب وتهيئة العدد الكافى من السودانيين ليحل محل الأجانب.. وكان لسان حاله يقول لا يمكن أن أعرض أداة الحكم فى بلادى للانهيار من أجل التعصب الأعمى ضد حفنة من الموظفين البريطانيين ..

لا أمل فى اللقاء

كان يبدو واضحًا أن لا أمل مطلقًا فى أن نلتقى مع قائد هذا الحزب فى أى أمر من الأمور.. فلا هو يوافق على الجلاء ولا على السودنة إذا نظرنا إلى بقاء

الإنجليز مدنيين وعسكريين فى السودان سبب كل مصيبة وأس كل بلاء.. وأن أى استقلال يعلن فى ظلهم لا يساوى القصاصة التى يكتب عليها.. ولا أحب أن أشكك فى وطنية إبراهيم بدرى..! فقد كانت وجهة نظره المحافظة على كيان السودان أولا وقبل كل شئ وعدم تعريض هذا الكيان للإنهيار بأى حال من الأحوال..

قطعت المفاوضات بينى وبين رجال هذا الحزب الذين عجلوا بالعودة إلى الخرطوم دون أن نوقع ولو على بيان مشترك..!

عودة إلى الاتحاديين

أعود بك مرة أخرى إلى فندق سميراميس لأكمل لك قصة الإتحاد والإتحاديين.. ولعلك لا تتعب من كثرة عودتى إلى هذا الفندق خلال سردى لقصة السودان.. فقد ترددت على هذا الفندق آلاف وملايين المرات.. حتى بدا للكثيرين وقتها من الجالسين فى بهو الفندق أنى أعيش بصفة دائمة فى سميراميس !

لقد حدثتك من قبل عن زعماء الأحزاب الإتحادية وحول الوصول إلى أدنى تفاهم أو إئتلاف على أى شكل من الأشكال فيما بينهم (١٤٩). ولعلك تعجب من إصرارى على الوصول إلى هذا الإتفاق!! وحرصى على الحقيقة بأى ثمن..!

وربما تساءلت .. وما شأنك بخلافاتهم.. وما علاقة ذلك بقضية السودان وبمفاوضاتنا المقبلة مع الإنجليز..؟! ولماذا أقحمت نفسى خلال أسابيع فى مشاكلهم وقصصهم وتنافرهم وتنابذهم.. وهل كان الغرض من وراء هذا المجهود مجرد الوصول إلى إصلاح ذات البين بين أشقاء فرقت السياسة بينهم ؟! وأرادت لهم أن يجتمعوا بعد فرقة لخدمة إنسانية !!

لا أظن أنى كنت مخيرًا فى إنتهاج هذا الأسلوب.. وفى الإصرار على الوصول إلى هذه الغاية ألا وهى توحيد صفوف الإتحاديين فى جبهة واحدة.. كنت أشعر أننا لن نصل إلى نتيجة حاسمة مع بريطانيا.. إلا إذا تم الجمع بين كافة السودانيين حول غرض واحد وهدف واحد وتعدد الأحزاب الإتحادية.. وعمق الهوة بينها.. كان يعرقل بل يجعل من المستحيل الوصول الى إتفاق موحد بين السودانيين.

خلافات..!!

وخذ مثلا الإتفاق الذى تم بيننا وبين حزب الأمة حول إخراج الإنجليز من السودان قبل تقرير المصير.. فقد أخذ كل زعيم اتحادى يبدى وجهة نظر حول هذا الإتفاق تختلف اختلافًا بينًا عن وجهة نظر الزعيم الآخر..! فهذا يعتبر أن فكرة إجراء انتخابات لقيام برلمان يمهد لتقرير المصير فكرة خاطئة.. وذاك يحبذها..! وهذا يعترض على مبدأ وجود الحاكم العام البريطانى خلال مرحلة الإنتقال.. وآخر يعتبر أن المطالبة والإصرار على خروج الحاكم العام البريطانى قبل تقرير المصير ـ من المطالب الخيالية التى لا يمكن أن توافق عليها بريطانيا بأى حال من الأحوال وهكذا.. وهناك نقطة هامة.. فقد كان كل فريق يغالى فى مطالبه أمام الفريق الآخر خشية أن يتهم بالتفريط فى حقوق الوطن.. بل وبالخيانة.. وما أكثر وأسهل من ترديد هذا الإتهام وخاصة فى مجال الصراع الحزبى فى مثل بلادنا الشرقية هذه.

أقول أنى وزملائى قد وضحت لنا خطورة هذه المشكلة.. وازددنا إيمانًا يومًا بعد يوم بأن توحيد القيادة وجمع الصفوف بين الأحزاب الإتحادية ركن رئيسى يجب أن يتحقق إذا ما أردنا الوصول إلى هدفنا.. وأحب أن أبرز حقيقة للتاريخ وهى أنى لا أقصد من وراء كلامى هذا التجنى على هؤلاء الرجال الذين كافح معظمهم إن لم يكن كلهم الإستعمار البريطانى.. والإحتلال البريطانى ودخلوا السجون والمعتقلات وحوكم الكثيرون منهم أكثر من مرة أمام القضاة البريطانيين فى سبيل تحرير وطنهم ورفع شأن أمتهم بل وشأن وادى النيل بأسره.

لقد حضر رجال هذه الأحزاب مشكورين إلى مصر تلبية لدعوتها بقصد المفاوضة والوصول إلى إتفاق حول مستقبل السودان.. وكانت خطوات الإنجليز تسرع يومها وتتلاحق فى الخرطوم فى سبيل تحقيق سياستهم المرسومة..

تأييد ومقاطعة

حضر معظم القادة الإتحاديين ولم يكونوا قد إطلعوا على نصوص مشروع دستور الحكم الذاتى الذى أراد الحاكم العام تطبيقه ليتقرر المصير فى ظله ويعلن الإستقلال فى وجود الإنجليز.. لم يجتمعوا ويتدارسوا هذا الأمر الخطير!! وكانوا

يعللون موقفهم هذا بأنهم سيعملون على مقاطعة هذا المشروع وعدم الإشتراك فى أية انتخابات تجرى فى ظل هذا الدستور المقترح.. ! وكان بعضهم يكرر عبارة تقليدية كثيرًا ما سمعتها فى أكثر من مناسبة وهى أنهم يرفضون كل شئ يحدث فى ظل الإنجليز حتى ولو كان مبرأ من كل عيب.. كانوا يريدون تكرار أسلوبهم فى معارضة المجلس الإستشارى عام ١٩٤٤ الذى أقامه الإنجليز .. كما قاطعوا الجمعية التشريعية التى أقيمت عام ١٩٤٨.. تلك الجمعية التى كانت لا تزال قائمة وقت وجودهم فى القاهرة.. ولم تكن تمثل سوى طائفة الأنصار وحزب الأمة الذى يرعاه السيد عبد الرحمن المهدى وبعض الجنوبيين.. أما الطائفة الأخرى.. طائفة الختمية بقيادة السيد على الميرغنى وهى التى تؤلف القاعدة الشعبية لكل الأحزاب الإتحادية فلم تمثل فى هذه الجمعية لمقاطعتها انتخاباتها.. ولذلك كان منطق بعض زعماء الإتحاديين لا كله.. هو ضرورة السير على الأسلوب السابق ومقاطعة الإنتخابات المقترحة لبرلمان الحكم الذاتى.. ولكنهم تجاهلوا عوامل مهمة.. وأؤكد لك أن الصراع العنيف بين هذه الأحزاب كان عاملاً من العوامل التى دفعتهم لانتهاج مثل هذا الموقف السلبى.. وكان البعض يخشى أن يقترح حلاً إيجابيًا خوفًا من اتهام فريق آخر له .

ضرر مقاطعة الانتخابات

ولكن القائلين بضرورة الوقوف سلبيًا ومقاطعة الإنتخابات القادمة تجاهلوا حقائق تقلب كل تقديراتهم.. فهذا الموقف الأخير والأحداث المقبلة على السودان تختلف كلية عن موقف إنتخابات الجمعية التشريعية السابقة.. فالإنتخابات المقبلة التى يزمع الحاكم العام إجراءها الا بموافقة بريطانيا.. كانت مقدمة لتقرير المصير وإعلان الإستقلال خلال شهور كما أعلن إيدن فى مجلس العموم فى مايو عام ١٩٥٢.. فالمقاطعة فى هذه المرة لن تكون لها نتيجة سوى انفراد الأحزاب الإستقلالية بالحكم وإعلان دولة السودان المستقل بعد أشهر معدودات دون أن يخرج الإنجليز.. وتقوم انجلترا وحلفاؤها بالإعتراف فورا بهذا الإستقلال الأعرج.. ويصبح حقيقة واقعة أرادت مصر أو لم ترد.. أراد الإتحاديون المقاطعون أو لم يريدوا..

وكم من دولة مستقلة فى العالم لا تتمتع بذرة واحدة من معانى وأسس كلمة الإستقلال.. ورغم ذلك فهى دولة مستقلة من الوجهة النظرية وإن ظللتها دولة عظمى.

تكرار لما حدث فى مصر

ماذا سيفعل الإتحاديون ؟ وماذا ستفعل مصر إذا ما أعلن الإستقلال الزائف وانضم السودان المستقل إستقلالا مشوها الى الأمم المتحدة..؟ إن النتيجة الوحيدة لذلك هى ببساطة .. تكرار لما حدث فى مصر بعد إستقلال عام ٢٢ وتعرضها لإنقسامات مريرة فتت فى عضد الأمة وهدت من كيانها وباعدت بينها وبين أهدافها من الحرية والإستقلال الحقيقى طوال ربع قرن من الزمان. وعوامل الفرقة فى مصر أقل بكثير من عوامل الفرقة التى تكمن فى السودان.. فشعب مصر شعب موحد منذ آلاف السنين بخلاف شعب السودان الذى عمل المستعمر على تفكيك أوصاله وإقامة حواجز رهيبة من الكراهية بين طوائفه وأحزابه وبين شماله وجنوبه .

الختمية والانتخابات

لقد فطنت قيادة طائفة الختمية الى حقيقة المعركة المقبلة.. هذه الطائفة التى شدت فى الماضى من أزر الأحزاب الإتحادية فى كل المعارك التى خاضوها.. قاطعت الإنتخابات السابقة.. امتنعت عن دخول المؤسسات الدستورية التى أقامها الحكام الإنجليز. ولكن كل المصادر أجمعت فى هذا الوقت الذى كنا نتفاوض فيه مع الإتحاديين فى القاهرة. على أن طائفة الختمية تصر على الدخول فى الإنتخابات المقبلة.. تلك الإنتخابات التى ستمهد لتقرير المصير.. لم تشأ هذه الطائفة أن تترك الميدان لتتفرد فيه الطائفة الأخرى كما فعلت فى الإنتخابات الماضية. وكان هذا الموقف الذى أخذت تفاصيله تباعا الى قادة الأحزاب الإتحادية فى القاهرة.. بمثابة نقطة التحول فى الموقف كله..!

لقد أخذ يتضح لهم أن مقاطعتهم للإنتخابات لن تحول دون دخول قاعدتهم الشعبية فى معركة الإنتخابات هذه بعزم وإصرار لتتمكن من المشاركة فى الحكم فى هذه المرحلة الحاسمة التى تمر بها البلاد..!

إن هـذه الحـقـيـقـة كانت الحجـر الأساسى فى بنـاء كيـان مـوحـد للأحـزاب الإتحادية المتنافرة.

تكتل وتجمع

ونقـطة أخرى لا يمكن إغفالـهـا، وهـى أن طـائفة الختـمـيـة حينـمـا أيقنت أن سيرها فى هذه المرحلة الحاسمة وراء جملة أحزاب متنافرة.. متحاربة.. تحط من قدر بعضها البعض مما كان سيسبب إنشقاقا فى كيان الطائفة بالتبعية.. وربما ضياعا لنفوذها كقوة رئيسية فى الميدان أما الطائفة الأخرى المتحدة.. طائفة الأنصار المتراصة خلف قيادة حزب واحد هو حزب الأمة. ولذلك كان الحل الوحيد أمام طائفة الختمية أن تبدأ فى التجمع والتكتل بعيدًا عن صفوف الأحزاب الإتحادية.. وأخذ يتضح لكل متتبع للسياسة السودانية فى ذلك الوقت أن هذه الكتلة الضخمة ستدخل لا محالة فى المعركة الإنتخابية خلف جهاز الحزب الجمهورى الإشتراكى وهو الحزب الإستقلالى الآخر.. ذلك الحزب الذى قام عام ٥١.. وكان عماده بعض رجال الختمية الذين لا يقبلون فكرة الإتحاد مع مصر ..! وفى نفس الوقت يناهضون طائفة الأنصار وحزب الأمة.

إذن لم تعد طائفة الأحزاب الإتحادية هى الأجهزة الوحيدة أمام طائفة الختمية كما كان فى الماضى.. فهناك جهاز جديد برز على أكتاف قادة من الختمية ينادى بالإستقلال.

خوف وبلبلة

أخذ قادة الأحزاب الإتحادية فى سميراميس يشعرون يومًا بعد يوم بهذا الخطر الشديد الذى يهدد قاعدتهم الشعبية نتيجة لتنافرهم من جهة وموقفهم السلبى من جهة أخرى..

وخطوات الإنجليز القاطعة الحاسمة توشك أن تصبح حقائق ضخمة لن يكون فى قبل أحد أن يردها أو يمحوها بعد وقوعها.

استفدت كثيرًا من هذه الفرصة.. فرصة البلبلة التى عمت صفوف الأحزاب الاتحادية نتيجة للمواقف التى شرحتها.. وضاعفت من جهودى.

وفى إحدى الأمسيات.. اجتمعت معهم جميعًا وأوضحت لهم بشكل قاطع أن مصر لن تستطيع أن تتعاون مع كل حزب على حدة.. إنها لا تملى عليهم شروطها ولا تفرض عليهم أوامرها.. ولكن توجد فقط إستحالة مادية فى أن تتعاون مصر مع ثمانية أحزاب إتحادية تختلف فى كل شئ ..! وحول كل شئ ..! وأوضحت لهم أن التاريخ لن يرحمهم إذا ما أعلن استقلال السودان بعد شهور وبقى فيه الإنجليز ونفوذهم.

معجزة (١٥٠).

عقدت معهم هدنة استمرت أربعا وعشرين ساعة استطعت أن أسترد خلالها شتات عقلى وأفكارى.. وعدت اليهم بعد هذه الهدنة ولم يكن لدى ذرة من الأمل فى إمكان التوصل الى حل هذه المعضلة التى تعتبر مفتاحا للموقف بأسره.. ولكنى قابلتهم.. وبعد ساعات قليلة حدثت المعجزة ..! أقول المعجزة لأنها فعلا لا يمكن أن تسمى بغير ذلك.. لقد اتفقت الأحزاب الإتحادية على شئ آخر غير انقسامها.. اتفقت على تشكيل لجنة ثلاثية من ميرغنى حمزة من الجبهة الوطنية وخضر حمد من حزب الإتحاد والدرديرى أحمد إسماعيل من حزب وحدة وادى النيل.. على أن تقوم هذه اللجنة الثلاثية باختيار مائة اسم من بين صفوف كل الأحزاب الإتحادية لتكوين هيئة عامة للحزب الواحد الجديد.. كما تقوم هذه اللجنة الثلاثية باختيار عشرين إسمًا من بين صفوف المائة لتكون بمثابة لجنة تنفيذية للحزب.. كما تبت اللجنة فى أمر رياسة الحزب وسكرتاريته وأمانة صندوقه..

افترقنا جميعًا فى هذه الليلة وكلنا متفائل بانتهاء عهد الفرقة والخصومات.. ولم نكن ندرى يومها ما يخبئه لنا اليوم التالى من خلافات جديدة ومفاجآت قاسية (١٥١) ...

فإلى الغد...

الهوامش

(١٤٩) أهم الأحزاب الاتحادية التى كانت تنادى باتحاد مصر والسودان هى:

حزب الأشقاء الذى يرأسه إسماعيل الأزهرى عام ١٩٤٣ ويريد اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى، وهو يوافق على حكم ذاتى محدود للسودان، ويترك لمصر الشئون المالية والخارجية الدفاع، وفى عام ١٩٥١م اقسم هذا الحزب على نفسه وخرج منه حزب آخر شيوعى تسمى بنفس الاسم برئاسة محمد نور الدين، وكان الحزب ينادى بوحدة وادى النيل، والخلاف بين الأزهرى ونور الدين خلاف شخصى بين الرجلين.

حزب الاتحاديين: نشأ فى أكتوبر ١٩٤٤م برئاسة حماد توفيق وكان يرى ويرى الاتحاد مع مصر بنظام "الدومنيون" وأن من حق السودان الانفصال عن مصر فى أى وقت تريد، وفى المرحلة الابتدائية يرى الحزب اشراف مصر على الشئون الخارجية والمالية والدفاع.

حزب الجبهة الوطنية أغلب أعضائه من "الختمية" وهو يرى الإتحاد مع مصر على أساس نظام " الدومنيون" ويتمسك بالحكم الذاتى للسودان، وهذا هو الحزب الوحيد بين الأحزاب الاتحادية الذى لا توجد فيه أغلبية للموظفين، ونشأة الحزب وأساس سياسته المخاوف والغيرة من السيد عبد الرحمن المهدى وحزب الأمة.

حزب الأحرار الاتحاديين برئاسة الطيب محمد خير ويرى أن تكون علاقته بمصر على أساس كونفدرالى ولا يوافق على أن تكون السودان تحت التاج المصرى.

حزب وحدة وادى النيل أنشئ عام ١٩٤٦م يرأسه الدردير أحمد إسماعيل، ويرى الاندماج الكامل مع مصر. محسن محمد: مرجع سابق ص ٣٤.

(١٥٠) محسن محمد: مرجع سابق ص ٨٤.

(١٥١) اقتصر الاتفاق على قادة الحزب دون تحديد برنامج أو دستور له، ولم تحدد مبادئه أو أهدافه أو أسس الاتحاد مع مصر ومداه وطبيعته وتكوينه، وكان هذا هو الخطأ الكبير الذى دفعت مصر والسودان ثمنه الغالى فيما بعد، ومع ذلك وصفت صحف السودان قيام الحرب الوطنى... بأنه معجزة.

محسن محمد: مرجع سابق ص ٨٥.

(١٤) الخلاف حول اسم المولود.

المجمع اللغوى ومشكلة السودان.

إعلان قيام الحزب الوطنى الإتحادى.

قيام الجبهة المصرية السودانية .

أول مشروع إنجليزى تجاه السودان يتم إيقافه.

عدت إلى منزلى فى منتصف ليلة٣١ أكتوبر عام ٥٢ وقد شعرت أن عبئا ثقيلاً قد زال عن كاهلى.. وأن عهدًا جديدًا قد أشرق بزوال أضخم عقبة وقفت فى طريقنا.. وهى الفرقة القاسية بين الإتحاديين السودانيين.

لقد كلمتك بالأمس عن إتفاقهم حول تشكيل لجنة ثلاثية من بينهم لتقرر أسس وتشكيل حزبهم الموحد الجديد الذى ستنصهر فيه كل أحزابهم القديمة وبذلك تتوحد القيادة ..وتتكتل الجهود..

قسم

نسيت أن أسجل.. أن كافة القادة الإتحاديين عقب إتفاقهم حول مبدأ هذه اللجنة.. قد اجتمعوا فى قاعة واحدة فى الفندق وأقسموا فردًا فردًا على كتاب الله على أن يقبل كل منهم أى قرار تتوصل إليه هذه اللجنة الثلاثية دون أدنى اعتراض أو مناقشة.

أخذت اللجنة تجتمع وحدها لتضع هيكل الحزب خلال أيام ثلاثة، واستمرت إتصالاتى خلالها مع بقية الزعماء حول الخطوة التالية بعد تشكيل الحزب وهى رسم سياسة موحدة نواجه بها الجانب البريطانى بعد أيام.

خلاف حول إسم الوليد

وفجأة ودون سابق إنذار.. احتدمت مناقشة فى أحد الأركان فى الفندق. مناقشة قاسية عنيفة كادت تودى بالإتفاق الذى توصل الجميع اليه منذ يوم واحد .. لم يكن هذا الخلاف الجديد إلا حول تسمية الحزب الجديد !!.. لقد كاد يتحطم كل شئ وكدنا نعود من حيث بدأنا.. كاد الوليد يموت وهو فى بطن أمه وقبل أن يولد بلحظات.. واضطر الأمر إلى عقد أكثر من كونسلتو لإنقاذ المولود. كاد الكثيرون يفقدون عقولهم.. وآمنت أن العمل فى هذه القضية هو أقصر الطرق وأسلمها لدخول مستشفى الأمراض العقلية.

لقد عاد كل فريق يصر على أن يشمل الإسم الجديد للحزب على كلمة تشير إلى إسم حزبه القديم.. فهذا يريد ويصر على إدخال كلمة الأشقاء أو كلمة شقيق على الأقل أو أحد مشتقاتها فى إسم الحزب الوليد.. وهذا يصر على ضرورة الإشارة إلى كلمة "الإتحاد" رمز حزبه.. وثالث يصر على أن تشمل التسمية كلمة وطنى أو وطنية أو أحد مشتقاتها.. عادت النعرة القديمة.. نعرة التعصب إلى الأحزاب القديمة.. وكان كل فريق يتهيأ لتشكيل حزبه القديم فى نطاق الحزب الموحد المنتظر.. نسى الجميع إتفاقهم حول ترك كل أمر يتعلق بالحزب الجديد إلى اللجنة الثلاثية.. وأثار البعض عدم سلطة هذه اللجنة لتقرير الإسم للحزب وإنما تقوم فقط بتشكيل الحزب واختيار الأسماء.. أما التسمية فلم تذكر فى صلب الإتفاق..

استعانة بالمجمع اللغوى

وبعد نقاش حاد طويل تفرق فيه الشمل إلى الغرف العديدة المتجاورة فى الفندق وأخذت أخرج من غرفة لأدخل أخرى وأنا أرجو الله أن يلهمنى كافة مشتقات الألفاظ المطلوبة حتى يمكن تجميعها لإرضاء الجميع. وفكرت فى أن أطلب عقد جلسة عاجلة للمجمع اللغوى ليساهم معى فى حل هذا الإشكال الخطير الذى يهدد بنسف كل أمل وتحطيم كل كفاح.. وأقترح البعض عدم تسمية الحزب الجديد بأى إسم وأن يطلق عليه فقط "الحزب الجديد" ولكن حتى هذا الإقتراح لم يلاق قبولاً من الجميع.

وبعد ساعات طويلة شاقة ألهم الله الجميع السداد والتوفيق وتم الإتفاق حول ترك هذاالأمر أيضًا، أى أمر التسمية إلى اللجنة الثلاثية !

وأخذت أعد الدقائق والثوانى التى سبقت إعلان قرار اللجنة داعيًا الله ألا يثير زعيم منهم موضوعًا جديدًا آخر قد لا نقوى على مواجهته .

وبعد يومين أعلنتنا اللجنة الثلاثية أنها توصلت فيما بينها إلى إتفاق كامل حول تشكيل الحزب وأسماء أعضائه.. ودعت اللجنة إلى الإجتماع لإذاعة القرارات.

وفعلاً اجتمع شمل الجميع وكانت لحظة رهيبة لا يمكن أن تنسى.. وإنى أقولها اليوم وأسجلها للتاريخ وهو أن توحيد هذه الأحزاب فى حزب واحد قد وضع لبنة قوية فى سبيل الوصول إلى الإتفاقية وتحقيق الغرض الرئيسى من ورائها وهو إخراج الإنجليز من السودان.

مراكز الحزب

ساد صمت عميق فى أرجاء الغرفة التى اجتمعنا فيها لنستمع إلى قرارات اللجنة الثلاثية وشق خضر حمد هذا السكون معلنًا هيكل الحزب الموحد الجديد.. أعلن خضر تعيين إسماعيل الأزهرى رئيسا، ونور الدين نائبًا للرئيس، وخضر حمد نفسه سكرتيرًا عامًا، والطيب محمد خير سكرتيرًا عامًا مساعدًا، وخلف الله خالد أمينا للصندوق، وعبد الوهاب زين العابدين أمينًا مساعدًا للصندوق.

ثم تليت أسماء اللجنة التنفيذية العشرينية، فاللجنة المئوية وهى الهيئة العامة، وإستبعدت اللجنة إسمى يحيى الفضلى ساعد إسماعيل الأزهرى الأيمن، وخضر عمر ساعد نور الدين الأيمن فلم يعين أحد منهما فى اللجنة التنفيذية للحزب تفاديا للصراع المستحكم بين الجناحين الذى كثيرًا ما تبلور حولهما.

تحقيق فكرة الاتحاد

لقد اشتمل دستور الحزب الجديد على تأكيد لهدف الحزب السياسى ألا وهو تحقيق فكرة الإتحاد بين مصر والسودان.. وطريقة انتخاب رئاسة الحزب ومكتبه

بعد ستة شهور من قيامه حتى تهدأ النفوس وترسخ قواعد الحزب الجديد ويزول ما فى القلوب.

الحمد لله...

قابل بعض الحاضرين هذه القرارات بفرحة بالغة وخاصة الرئيس إسماعيل الأزهرى الذى رفع يديه إلى السماء وأخذ يردد "الحمد لله.. الحمد لله" جملة مرات .. كما قابل البعض ما أذاعته اللجنة بوجوم شديد ينم على صدمة بالغة ولكن لم يستطع أحد أن يعارض حرفا مما قيل وقرر.. فقد سبق أن أقسم الجميع على احترام أى قرارات تتوصل اليها اللجنة ومهما كانت هذه القرارات.

شاهد.. ودموع

نهض الجميع يوقعون على دستور الحزب الذى أطلقت عليه اللجنة اسم "الحزب الوطنى الإتحادى" ووقعته معهم كشاهد من الشهود.. وأقبل الجميع يهنئ بعضهم البعض ويتعانقون.. يبكى كثيرون بدموع غزيرة.. كانت دموع الفرج والفرح.. والأمل بالمستقبل بعد أن انفض ذلك الخلاف المستحكم الذى عم صفوفهم زمنًا طويلاً.

وأعلنت هذه القرارات فى وقت واحد فى كل من القاهرة والخرطوم. وأقام الحزب الوطنى الذى تعسرت ولادته زمنًا طويلا وكاد أهل الوليد وكافة الأطباء يفقدون الأمل فى بعثه للحياة وولادته..!

تفاؤل.. ومخاوف!!

تفاءل الكثيرون خيرًا بهذه الخطوة الباهرة التى حسمت صراعًا رهيبًا بين رجال آمنوا بمبدأ واحد.. وفكرة واحدة وإن اختلفوا طويلاً حول التفصيلات والزعامات.. ولكن العارفين بدقائق الأمور.. والمتتبعين لأحوال السودان ودقائقه السياسية لم يستطيعوا منذ اللحظة الأولى كتمان مخاوفهم وشكوكهم حول استمرار كيان هذا الحزب الجديد سليمًا لوقت طويل.

إيمان الإنجليز بالخلاف

قال البعض صراحة: أن هذا الإتفاق لن يدوم أكثر من شهر واحد.. وكان

البعض الآخر أكثر تفاؤلا فأعطى لهذا الإتفاق عامًا كاملا قبل أن ينهار.. وكانت وجهة نظرنا حول هذا الموضوع أن إستمرار هذا الحزب بكيانه الموحد ولو بشكل صورى ظاهرى ولو لشهر واحد سيكون نصرًا عظيمًا ضد الإنجليز الذين استعدوا لبدء المفاوضات معنا فى شهر نوفمبر عام٥٢ أى بعد حوالى شهر من قيام الحزب.. وكان الإنجليز يؤمنون بإنتصار وجهة نظرهم دائمًا لإستحالة الجمع بين أحزاب السودان وطوائفه. فيمكنهم دائمًا أن يشككوا فى حججنا إذا لم تنل إجماع الجميع فى السودان .

مذكرة إلى بريطانيا!

بدأت المفاوضات بتقديمنا مذكرة تمثل وجهة نظر مصر والسودان إلى الحكومة البريطانية وكان ذلك فى يوم ٢ نوفمبر سنة ٥٢ وكانت تدور حول مراحل خروج الإنجليز وتهيئة جو حر محايد يقرر فيه شعب السودان مصيره إما بالإستقلال التام أو بأى رباط يحدده مع مصر [١٥٢].

لقد توصلنا إلى تحقيق كل ما جاء من أسس فى هذه المذكرة وتم توقيع الإتفاقية مع الإنجليز فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣.. بعد مفاوضات إستمرت ثلاثة شهور ونصف شهر . وكانت المرة الأولى التى إستطاعت مصر فيها أن توقف مشروعا بريطانيا فى السودان منذ وفاق كرومر مع بطرس غالى عام ١٨٩٩.. وكان الفضل الوحيد فى ذلك وقوف مصر فى صف واحد مع كل أحزاب السودان هيئاته وطوائفه. رضخ الإنجليز لكل وجهات نظرنا بعد أن فشلوا مرارًا فى إحداث أية ثغرة فى جبهتنا المصرية - السودانية.

ورغم كل التشاؤم الذى كان يحيط بالجو الذى قام فيه الحزب الوطنى الإتحادى الجديد إلا أنى كنت دائمًا متفائلا من إستمرار التعاون والإتحاد بين صفوفه، إذ أن مصلحتهم تقضى بإستمرار الكيان الموحد للحزب وخاصة وهم مقبلون على خوض معركة انتخابية مريرة أمام الأحزاب الأخرى القوية المتماسكة. وإلى الغد إن شاء الله .

الهوامش

(١٥٢) راجع الدراسة.

(١٥) بريطانيا تؤكد ثورة الجنوب.

لماذا هدد الإنجليز بقطع المفاوضات؟

دور الإرساليات فى الجنوب

المحاضر الرسمية تدين بريطانيا

بدأت المفاوضات بيننا وبين الإنجليز فى ٢ نوفمبر عام ٥٢ اعترضتنا أكثر من أزمة هددت حياة هذه المفاوضات وكادت تقطع أكثر من مرة وتضم محاضرها إلى عشرات المحاضر للمفاوضات التى سبقت حول مستقبل السودان بين مصر وبريطانيا وكدت أؤمن أكثر من مرة بإستحالة حل هذه القضية التى طالما شبهوها بالصخرة التى تحطم عليها كل تفاهم أو تفاوض بين المصريين والإنجليز.

وفى كل مرة كانت تتعثر فيها المفاوضات كنت آخذ هدنة لبضعة أيام أطير خلالها إلى الخرطوم فأعقد مئات الإجتماعات صباح مساء بين صفوف الأحزاب السودانية المختلفة وأجنحتها العديدة المتنافرة والطوائف المتعددة .

الجنوب والسودنة

لن أخوض الآن فى تفصيلات هذه المفاوضات بيننا وبين الإنجليز، فإن شرحها وسرد دقائقها وظروفها يحتاج إلى كتب ومجلدات . ولكنى أحب أن أبرز نقطتين هامتين:

- جنوب السودان الذى إنفصل عن الشمال زهاء نصف قرن وأحداثه ومشاكله(١٥٣).
- معضلة السودنة أى إحلال السودانيين مكان البريطانيين فى السودان فى كافة الوظائف العامة.

ظلت هاتان النقطتان تهددان مصير هذه المفاوضات، إلى أن حسمتا عقب نجاحنا فى توقيع إتفاق مشترك بين مصر وكافة الأحزاب السودانية حول هذه المشاكل فى ١٠ يناير عام ٥٣ (١٥٤) .

وأحب أن ألقى بعض الظل على هاتين المشكلتين اللتين أثرتا تأثيرا خطيرا على مجريات الحوادث فى وادى النيل كله .

التهديد بقطع المفاوضات

لقد تمسك الإنجليز إلى حد التهديد بقطع المفاوضات وفرض مشروع دستورهم على السودان إذا لم تقبل استمرار الموظفين البريطانيين فى السودان إلى مدد طويلة لا تقل عن عشر سنوات أى أن المصير يتقرر فى السودان ويبقى الإنجليز يحكمون السودان. وكانوا يرددون دائمًا أنهم مسئولون أمام شعب السودان وأمام التاريخ وهذا ما يدعوهم إلى التمسك ببقاء موظفيهم حتى لا تنهار كفاءة الإدارة التى أقاموها فى الخرطوم. كما تمسكوا بضرورة بقاء سلطات خاصة فى يد الحاكم العام خلال مرحلة الانتقال لكى يحمى بها الجنوب والجنوبيين من عرب الشمال.

الوصاية على القاصر

وملخص القول أنهم يخشون على شعب السودان ككل وعلى مستقبله ورفاهيته من المصريين. وفى نفس الوقت يخشون على مصالح ومستقبل قبائل الجنوب من شعب شمال السودان.

وكان الإنجليز يعتبرون أن تمسكهم بهذه النقط يهيئ لهم البقاء فى السودان بعد تقرير مصيره وإعلان استقلاله فيخيفون السودان من مصر ويخيفون الجنوب من الشمال.. وبذلك تظل البلاد مقطعة الوصال وخاضعة تمامًا لنفوذهم المتمركز فى الداخل وحول حدود السودان من مستعمراتهم الأفريقية الملاصقة له.

احتكاك خطير

لقد تحققت مخاوف الوطنيين فى وادى النيل وقام احتكاك خطير بين الشمال والجنوب بل قامت ثورة دامية قبل تركى لمنصبى بأسبوعين. وبعد أيام سأروى لك

تفصيلات وظروف هذه الثورة التى أودت بحياة المئات والألوف من أبناء الجنوب والشمال فى أدغال وغابات المديريات الجنوبية الموحشة.

ولكن أحب أن أنقل لك بعض الفقرات التى جاءت على ألسنة المفاوضين البريطانيين فى الجلسات المتعاقبة التى دارت خلالها مفاوضات السودان عام ٥٢ وانتهت بتوقيع الإتفاقية وأعتقد أن الفقرات المسجلة فى المحاضر الرسمية هى مفتاح الموقف لتلك الحوادث المحزنة التى سأروى لك قصتها فيما بعد والتى حدثت بعد ثلاث سنوات كاملة من تاريخ المفاوضات .

كانت مصر طوال هذه المفاوضات تدافع عن وحدة السودان، وكان الجانب البريطانى يجاهد ويناضل فى سبيل إقامة كيان قائم بذاته للجنوب منفصل عن الشمال وكان يضع العراقيل والعقبات فى طريق أية خطة تهدف إلى جمع شمل البلاد وإزالة الفرقة بينهم.

تغلب الشماليين

لقد قال سير رالف ستفنسون(١٥٥) رئيس الوفد البريطانى بالحرف الواحد فى الجلسة الثانية للمفاوضات التى عقدت فى صباح ٢٤ نوفمبر عام ٥٢ بمقر رئاسة مجلس الوزراء وكانت هذه الكلمات هى التى إفتتح بها هذه الجلسة.. قال بالحرف الواحد: (... ولو أن للجنوب وزيرين من بين خمسة عشر وزيرًا فليس هذا بالكثير ومن السهل أن يتغلب عليهما الشماليون.. وذكريات الماضى توحى بأن الجنوبيين يخامرهم الشعور بتحسن حالهم لو أسندت إلى الحاكم العام مسئولية خاصة قبلهم) وقال فى نفس الجلسة أيضًا: (يجب أن توضع ضمانات للجنوب خشية استغلاله) أى أن السير رالف ستيفنسون يخشى على جنوب السودان من استغلال شمال السودان له..!

عطف بريطانيا على الجنوب

أما الحاكم العام البريطانى فهو أقرب إلى الجنوبيين من أهل الشمال ويمتلئ قلبه رأفة وحنانًا على مصالحهم ومستقبلهم. لن أتكلم عن أحوال الجنوب الذى حكمه الإنجليز خمسين عامًا ويكفى أن تنظر إلى بعض الصور لتعرف كل شئ عن أحوال الجنوب الذى يريد الإنجليز لهم الرعاية والحماية.

ثم أوضح مستر باروز عضو وفد المفاوضات البريطانى كلام رئيسه قائلاً: (إن علينا - أى بريطانيا - أكبر مسئولية تجاه الجنوب وواجبنا حمايته بقدر المستطاع من أن يكون ضحية للشماليين) .

حرق البلاد!!

ثم أكمل حديثه بعد لحظات قائلاً: (لو أن الجنوبيين استشعروا أن القانون الجديد فيه مساس بهم فإنهم سوف يلجأون إلى وسائل بدائية لا إلى وسائل دستورية لكى يرفعوا عنهم ما حاق بهم) واستمر يقول: (لقد أخبرنى سير جيمس روبرتسون أن زعماء الجنوب يهددون باعتزامهم حرق البلاد إذا أهملت مصالحهم)!

السفير البريطانى ومستر باروز عضو الوفد الرسمى وجيمس روبرتسون السكرتير الإدارى للسودان ينبئون وفد مصر رسميًا بأن الجنوب سيثور وأن البلاد ستحرق، وأن الإضطرابات ستقع لا محالة إذا لم يكن للحاكم العام البريطانى وحده سلطة حكمهم حكمًا مباشرًا بعيدًا عن تدخل حكومة السودان فى الخرطوم وبعيدًا عن برلمان السودان الذى سيمثل فيه الجنوبيون!! ثم يؤكد السفير البريطانى فى الجلسة التالية اعتقاده باستمرار مخاوف الجنوبيين إذا لم يحكمهم الحاكم العام ويقول بالحرف الواحد: (... إذ لا شك أن فى تاريخهم الماضى - أى تاريخ الجنوبيين - ما يبرر إثارة هذه المخاوف عندهم وهى مخاوف صحيحة وقائمة فعلا...) ويكمل مستر باروز كلام سفيره ويؤكده قائلاً: (إذا لم يطمئن أهل الجنوب إلى هذه الضمانات فلا عجب إذا ما نادوا بالانفصال عن الشمال).

وأنا لا ألقى كلامى هذا من قبيل الدعاية ضد بريطانيا ولا أتهم وفدها فى المفاوضات بأخطر الأحاديث التى قالوها فى الجلسات غير الرسمية وفى اجتماعات اللجان الفرعية للمفاوضات التى لم تصدر عنها محاضر رسمية ولكنى أنقل بالحرف الواحد ما أكتبه من واقع المحاضر الرسمية التى نحتفظ بها فى سجلات الدولة الرسمية فى القاهرة ويحتفظون هم بها فى لندن ولم يصلنا

حتى اليوم - رغم مرور أربع سنوات على نشر هذه الوثائق والمحاضر - أقول لم يصلنا اعتراض واحد على حرف واحد مما سجلناه فى محاضر هذه المفاوضات.
بريطانيا تؤكد أن الجنوب سيطالب بالإنفصال وسيحرق البلاد وسيثور ضد الشماليين إذا لم يحكمهم الحاكم العام البريطانى وحده..!

تحقيق التمرد

وبعد ثلاثة أعوام من تاريخ هذا الكلام ولما اقترب موعد خروج الحاكم العام - تنفيذا للإتفاقية - من السودان حدث التمرد فى الجنوب وهبت الثورة واشتعلت الحرائق وقام المتمردون من الجنوب يحرقون ويقتلون كل من صادفهم من الشماليين..

وكان من الطبيعى أن تتجه الإتهامات حول حوادث الجنوب هذه صوب لندن وأن تصدر الصحف والجرائد فى الخرطوم تشير إلى أصابع الإنجليز التى تحيط بالجنوب وتبرز ما دبره الإنجليز خلال نصف قرن من الزمان لإثارة حفيظة الجنوبيين وتهيئتهم للوقوف ضد الشماليين [١٥٦] ..

كان من الطبيعى أن تنصب كل الخطب السياسية للقادة والزعماء فى الخرطوم وقت هذه الثورة وبعدها على رأس إنجلترا وأذنابها المنبثين فى كل مكان فى جنوب السودان وحوله.

الإرساليات والمؤامرات [١٥٧]

كان من الطبيعى أن تتجه كل الشكوك والظنون صوب إرساليات التبشير الأجنبية التى ظل البريطانيون يشرفون على الكثير منها فى شكل قسس ورهبان بعد أن خرّج حكامهم وإداريوهم تنفيذًا للسودنة..

هؤلاء القسس الذين لا يعرفون حرفًا واحدًا من الأديان السماوية وتعاليمها ومثلها ولكنهم يجيدون حبك المؤامرات وتنفيذ الدسائس التى تفرضها سياسة الإمبراطورية المتداعية وكلهم ممن سبق لهم الخدمة كموظفين إداريين فى حكومة السودان التى كانت تتبع مباشرة قبل الإتفاقية وزارة المستعمرات البريطانية.. إنى

أمسك بين يدى صحف السودان وأنا أكتب لك هذه المذكرات وكلها تتكلم عن الخطوات الحاسمة التى قررتها حكومة السودان منذ أيام نحو إرساليات التبشير فى الجنوب فقد عزمت على ضمها ووضعها تحت إشراف وزارة المعارف السودانية.. إن هذه الصحف خرجت بهذه الأنباء قبل قراءتك لهذه الحلقة من المذكرات بأسبوع على الأكثر .

نقلت لك بالحرف الواحد ما قاله الإنجليز فى المفاوضات منذ أربع سنوات عن الجنوب ونقلت لك ما قررته الحكومة السودانية منذ أيام إزاء إرساليات الجنوب وخطرها على وحدة البلاد.

ولكن هل تدرى ماذا حدث وقت قيام ثورة الجنوب قبل استقالتى بأسبوعين؟!

إتهام القاهرة!!

لم تتهم الصحف السودانية إنجلترا.. لم تتهم إرساليات التبشير وقسس الإنجليز وهم الحكام السابقون.. ولم تنطق الإذاعة السودانية وقتها باتهام واحد ضد لندن.. ولكن كل الإتهامات اتجهت صوب القاهرة.. كل الشتائم والسباب إنهال على رأس وزارة الدولة لشئون السودان فى ميدان الجمهورية وعلى رأس وزيرها .. وزير الدولة لشئون السودان.. صدرت الصحف فى السودان.. معظم الصحف تحمل ألوانًا وأشكالاً من الهجوم على فى كل سطر من سطورها وفى كل مقالة وكل خبر..

هل تعرف من قام بالقسط الأكبر من هذه الحملة ..؟ ومن الذى كتب المقالات وأصدر البيانات وكال الإتهامات وصب اللعنات..؟

إنك قد لا تصدقنى إذا ما ذكرت لك من هم فى خطابى لك بعد غد.

الهوامش

(١٥٣) سبق الحديث عن هذا الموضوع.

(١٥٤) حسين ذوالفقار صبرى: مرجع سابق، ص ٢٩٢.

(١٥٥) ستيفنسون، رالف Ralph Skrine Stevenson، بدأ حياته الدبلوماسية سكرتيرًا ثالثًا، حضر إلى مصر ١٩٢٩ وتعلم اللغة العربية ثم نُقل وزيرًا مفوضًا بأسبانيا، فى ١٩٤١ عُين وزيرًا مفوضًا فى أوراجوى، وفى ١٩٤٢ نُقل إلى بلجراد.

(١٥٦) بنت بريطانيا سياستها فى الجنوب السودانى على ركيزتين.

ـ تقليل الوجود الشمالى فى الجنوب ـ إضعاف الثقافة العربية والعمل على منع انتشار الإسلام هناك، بعد قيام الحكم الثنائى (المصرى ـ البريطانى) فى السودان عام ١٨٩٩ قامت سياسة حكومة الخرطوم التى كان يسيطر عليها الجانب الإنجليزى، تجاه جنوب السودان على ركيزتين.

١ ـ إضعاف الوجود الشمالى فى الجنوب تحت ذريعة أن هذا الوجود يمكن أن يتسبب فى اضطرابات، إذ أن أبناء المديريات الجنوبية لا ينظرون إلى الشمالى إلا من خلال الذكريات القديمة حين كان يعمد بعض أبناء الشمال إلى استرقاق الجنوبيين، مما دعا الأخيرين إلى توصيف الأولين "بالجلابة".

٢ ـ إضعاف الثقافة العربية، سواء بإحلال الإنجليزية محل العربية كلغة عامة أو بتشجيع انتشار اللهجات المحلية وتحويلها إلى لغات مكتوبة. ومنع انتشار الإسلام هو الأمر الذى تكلفت به الإرساليات التنصيرية التى أطلق لها حرية العمل الدينى فى الجنوب على عكس الشمال، حيث قيدت هذه الحرية بميادين التعليم والخدمات الصحية.

راجع ذلك بتوسع فى: محمد عمر البشير: مرجع سابق ص ٥٤ ومابعدها.

(١٥٧) حاولت الارساليات التنصرية إثارة النعرات بين الشمال والجنوب وإثارة الذكريات الأليمة مثل أن الشماليين كانوا يعملون فى تجارة الرقيق واسترقاق الجنوبيون. وقامت الإرساليات بتقسيم الجنوب إلى مناطق نفوذ على أساس أن توجد إرسالية واحدة ونظام واحد للتعليم فى كل منطقة بالجنوب، محمد عمر البشير : مرجع سابق ص٧٦ ومابعدها.

(١٦) الخرطوم تعارض رحلتى

التوقيعات التى أنقذت وحدة السودان

بين المحبة الزائدة والكراهية الطاغية

لقد حدثتك عن نوايا الإنجليز تجاه جنوب السودان تلك النوايا التى برزت بشكل واضح على ألسنة مفاوضيهم فى جلسات المفاوضات.. تكلموا عن رغبة الجنوب فى الثورة وفى الانفصال لأنه على حد تعبيرهم لا يثق فى الشمال والشماليين..

وبعد ثلاث سنوات من هذه المفاوضات وقبل استقالتى بأسبوعين حدثت ثورة الجنوب الدامية وحدثتك من يومين عن الحملات القاسية التى وجهت إلىّ من الخرطوم بدلاً من أن تتجه إلى لندن التى دبرت الفصل بين الشمال والجنوب وتآمرت على وحدة البلاد من خمسين عامًا .

وقلت لك أنك ربما لن تصدقنى إذا ما ذكرت لك من هم الذين قادوا ضدى هذه الحملة العنيفة فى الصحافة السودانية والإذاعة السودانية..

إن بعض زعماء الحزب الوطنى الإتحادى فى الحكومة وخاصة الملتفين حول الرئيس إسماعيل الأزهرى والموجهين لسياسة الحكومة هم الذين قادوا هذه الحملات ضدى..

تآمر مع الجنوبيين

صلاح سالم هو الذى حرض الجنوب على الشمال وهو الذى تآمر مع الجنوبيين ودفعهم على حرق الجنوب وفشل كل من قابلهم من الشماليين وهو الذى أغراهم بالمناداة بفصل الجنوب عن الشمال.

كيان منفصل !!

صلاح سالم الذى قطع المفاوضات مع السير رالف ستيفنسون فى القاهرة سنة ٥٢ عندما أصر الجانب البريطانى على ضرورة إقامة كيان منفصل للجنوب عن شمال السودان وقدموا وثائقهم ومستنداتهم التى تثبت رغبة زعماء القبائل الجنوبية فى الانفصال واعتراضهم على الاندماج مع بقية البلاد.. قطعت المفاوضات وطرت يومها إلى الخرطوم لأجد حلا لهذه المشكلة ومخرجًا لمستنداتهم وحجة أواجه بها هذا المنطق وتلك الحجج الانفصالية.

أول مصرى [١٥٨] تعرف على الجنوبيين

وواصلت رحلتى هذه من الخرطوم إلى المديريات الجنوبية لأقابل زعماءها وقبائلها وعشائرها لأقنعهم بضرورة التفاهم مع الشمال والشماليين وضرورة توحيد السودان وجمع شمل الأمة.. ولأطلعهم على دسائس المستعمرين ونواياهم وكنت أول مصرى منذ خرج الجيش المصرى من السودان عام ١٩٢٤ أقابل وأتفاهم وأتعرف على هؤلاء الجنوبيين.

تخوف ساسة السودان من الحكام والإرساليات

وقبل أن أواصل رحلتى هذه إلى الجنوب واجهنى أكثر من سياسى فى الخرطوم وأكثرمن زعيم شمالى بتخوفه من نتيجة رحلتى هذه إلى الجنوب بل واجهونى بعدم موافقتهم كلية على هذه الرحلة خوفًا من أن أواجه حقائق وأوضاعا قد تثبت حجة الإنجليز وتؤكد سياسة الفصل بين شطرى السودان خاصة وأن الحكام والإداريون كانوا وقتها كلهم من الإنجليز ويسيطرون على كل شبر فيه.. يعاونهم خمسمائة إرسالية تبشير أجنبية هى الوحيدة التى تشرف على تلقين النشء هناك العلم والدين وهدفها الوحيد تنفيذ سياسة الحاكم العام ومعاونيه.

اعترضوا على الرحلة

أقول أن العديد من القادة والسياسيين فى الخرطوم إعترضوا على رحلتى وقد فقدوا كل أمل فى قضية الجنوب والجنوبيين.. كان منهم من ينتمى للحزب الوطنى الإتحادى.. ومنهم من ينتمى إلى حزب الأمة والحزب الجمهورى

الإشتراكى وكان منطقهم أن الحالة سيئة جدًا فى الجنوب وأن الإنجليز قد نجحوا فعلا فى إثارة الجنوبيين ضدهم . واعتمد هؤلاء المعارضون لرحلتى.. فى شكوكهم ومخاوفهم على ما حدث لوفد الصحافة السودانية الذى زار الجنوب لأول مرة قبل أيام من رحلتى هذه فقوبل فى منطقة الزاندى فى المديرية الإستوائية (١٥٩) بالطوب والحجارة وبإقامة المتاريس فى طريق قافلتهم لمنعها بالقوة من دخول منطقة القبيلة لمجرد الزيارة والتفاهم..!

التفكير فى الاستعانة بالقاهرة لمنعى من السفر

وفى منزل أحد زعماء الإتحاديين فى العاصمة المثلثة اجتمعت لجنة ضخمة من رجالات الحزب الوطنى الإتحادى إستقر رأيها بعد مناقشتى طويلاً على الاعتراض على فكرة مواصلتى السفر للجنوب حتى أن البعض قد فكر فى الإلتجاء إلى حكومة القاهرة لتمنعنى من تنفيذ فكرتى التى صممت على تنفيذها وإلا أصبح موقفنا ميئوسًا منه أمام المفاوض البريطانى الذى تحدانا فى أن نقبل زيارة الجنوب حتى نتحقق بأنفسنا من صدق ما يقولون ..

٣٠٠٠ كيلو فى الأدغال

وزرت الجنوب ووفقنى الله بعد مئات من الاجتماعات عقدت بعضها فى الأكواخ وبعضها فى قلب الغابات الموحشة وعلى مقربة من قصور الحكام البريطانيين.. واصطحبت يومها خمسة مترجمين وعشرات من المعاونين وقطعت أكثر من ثلاثة آلاف كيلو متر فى قلب الأدغال..

أقول أن الله وفقنى يومها توفيقا لم أكن أحلم بعشره وأقنعت معظم الزعماء البارزين وقادة القبائل بفكرة التعاون مع الشماليين وتوحيد البلاد ومواجهة الجانب البريطانى بمستندات مضادة لمستنداتهم ووثائقهم .

مستندات ضد مستندات

وما أن عدت للقاهرة بهذه المستندات إلا وواجهنى سير رالف ستيفنسون بأن هذه المستندات وقعها زعماء لا يعرف معظمهم القراءة ولا الكتابة وأنها أخذت منهم بطريق الإغراء.

فما كان منا إلا أن واجهناهم بنفس حجتهم فما يمكن أن يقولوه عن هذه المستندات يمكننا أن نقوله عن مستنداتهم المضادة .. ورضخ الإنجليز وسلموا بوحدة البلاد..

إتهام بالتفرقة

وفى أغسطس عام٥٥ كان صلاح سالم هو الذى يفرق بين الشقيقين ويوغر صدر الجنوب ضد الشمال ويشتت شمل البلاد ويثير الفتنة فى الجنوب ويشعل لهيب الحرب الأهلية.

ولا شك أن أحداثا مهمة وجسيمة قد حدثت بين الوقت الذى شرحته لك وحدث فيه تشكيل الحزب الوطنى الإتحادى فى القاهرة فى عام ٥٢ والوقت الذى وقف فيه زعماء هذا الحزب ـ وكان ذلك فى أوائل عام ٥٥ ـ وقفوا يوجهون سهامهم وهجماتهم ولعناتهم نحو الرجل الذى وقع كشاهد على وثيقة إتحادهم وجمع كلمتهم ووقع على وثيقة توحيد أحزابهم وعلة وثيقة توحيد بلادهم. لقد عشت بينهم أكثر مما عشت بين أهلى طوال سنوات ثلاث وأكثر مما عشت بين زملائى من المصريين وأمضيت الشهور الطويلة بينهم وكأنى أحدهم أوفق بين هذا وذاك وأصلح بين هذا الجناح وتلك الجبهة وكل منهم قد جعلنى موضع أسراره والأمين على الدفين فى نفسه وعلى نواياه وآماله المستقبلة...

ولكن مهلا.. لقد سكتت كل هذه الإتهامات وانتهى سيل اللعنات .

دموع .. وقُبل بعد خروجى من الحكم

ووقف تيار السباب فور خروجى من الحكم.. ومرت أيام وأسابيع قلائل على استقالتى وزرت الخرطوم يوم استقلاله.. قابلنى فى مطار الخرطوم زعماء الحزب الوطنى الإتحادى وقادته وأخذوا هم أنفسهم يقبلوننى ويعانقوننى والدموع تنحدر على أكثر من وجه وحملت يومها على الأعناق من الطائرة حتى العربة التى أقلتنى إلى قصر الضيافة كضيف رسمى للرئيس إسماعيل الأزهرى ولم أكن يومها وزيرًا ولا عضوا فى مجلس الثورة.. وأخذت الصحف تسيل أنهارها بالثناء

والمديح وبقصائد الشعر وأخذت عشرات الولائم والحفلات تقام تكريمًا لى واحتفاء بعودتى منذ الصباح الباكر إلى ما بعد منتصف الليل ..

حب طاغ.. وعداء صارخ!

ماذا حدث.. وما هى قصة كل هذه التقلبات.. محبة طاغية.. وعداء طاغ.. ثم محبة لا مزيد عليها.. موحد للبلاد ثم مفرق وممزق لها ثم صديق لها.. كلها شمالها وجنوبها وشرقها وغربها..

لا شك أن لكل عقل تعليله وتحليله وقد يوافق البعض على التحليل الذى سأقدمه لهذه المواقف ولا شك أن آخرين لن يوافقوننى على ما سأقدمُه من استنتاجات وتقديرات..

خلافات دفينة..

إنى أرجع كل هذه التقلبات فى كل أطوار السياسة السودانية إلى شئ واحد لا ثانى له.. الخلافات العميقة بين الأحزاب وفى داخل الأحزاب وخاصة داخل الحزب الوطنى الإتحادى الذى كلمتك عن ظروف تشكيله وتكوينه فى القاهرة من جملة أحزاب متنافرة متنابذة متعادية .

حدثتك طويلاً عن الصراع الشديد الذى خبأ لظروف أوضحتها لك وقت تشكيل الحزب ولكننى قلت لك أن كل عليم بأحوال السياسة فى السودان لم يتفاءل مطلقًا بإمكان استمرار هذا الحزب موحدًا لأكثر من شهر أو بضعة شهور وأن الانقسامات لا بد وأن تعود إلى صفوفه والحزازات لا بد وأن ترجع أشد عنفًا من سابقتها.. وهذا هو ما حدث بالفعل وقاد إلى كل التقلبات التى حدثت.. التقلبات فى الأهداف وفى العواطف.. وفى الأساليب.. وفى كل شئ ظل الحزب الوطنى الإتحادى منذ تشكيله عام ٥٢ إلى وقت قيام أول إنتخابات فى آخر عام ٥٣ شبه متماسك وكل جناح من أجنحته يتكتل ويتحفز للانقضاض على بقية الأجنحة أو يتأهب للانشقاق..

وتمت الإنتخابات فى ظروف قاسية مريرة بين الحزب الوطنى الإتحادى وبقية الأحزاب الاستقلالية وكانت الإنتخابات الأولى فى تاريخ السودان التى إشتركت

فيها كل الطوائف والأحزاب والهيئات وكان الإنجليز لا يزالون يحكمون السودان ويضعون أيديهم على كل مرافقه..

وسأواصل غدًا الكتابة لك عن قصة الإتحاديين التى ارتبطت بقصتى إرتباطًا وثيقًا وهذا هو سبب تأجيل شرح موضوع الإستقالة حتى أنتهى من شرح قصة إخوانى فى الجنوب خلال أيام..

الهوامش

(١٥٨) "رحلة صلاح سالم إلى الجنوب أصاب النفوذ الإنجليزى هناك بضربة فى الصميم "حسين ذو الفقار صبرى، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

(١٥٩) د/ جميل عبيد: المديرية الاستوائية، دار الكاتب العربى، القاهرة، ١٩٦٨م.

(١٧) كيف ضلل الإتحاديون الإنجليز

المفاجأة المذهلة للحاكم العام

معركة الإنتخابات فى السودان

خاض الحزب الوطنى الإنتخابات مع بقية الأحزاب الإستقلالية وكان الإنجليز لا يزالون يحكمون السودان.. كان روبرت هاو حاكمًا عامًا وروبرتسون سكرتيرًا إداريًا وهو بمثابة وزير الداخلية وله سلطات أوسع من سلطات أى رئيس وزراء فى العالم والأحكام العرفية(١٦٠) قائمة منذ ابتداء الحكم الثنائى.. والجنرال سكونز كان يقود جيش السودان ومعظم قواد الوحدات كانوا من الإنجليز وكان الجنرال سكونز هذا عضوًا فى المجلس التنفيذى الذى يحكم البلاد.. وكان قواد البوليس من الإنجليز وكل المديرين من الإنجليز وكذا معاونوهم..

الجنوب

أما الحكام الإنجليز فى الجنوب فكانوا يحكمون القبائل حكما مطلقًا إذ جمعوا بين أيديهم كل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية. لم تكن السودنة قد بدأت لأن الإتفاقية مع الإنجليز تنص على بدئها عقب قيام أول برلمان سودانى وتنتهى قبل إجراء تقرير المصير فى مدة أقصاها أعوام ثلاثة.

لجنة دولية

أشرفت على هذه الإنتخابات الأولى فى حياة السودان لجنة دولية طبقًا للإتفاقية يرأسها "سوكومارسن" الهندى ومثلت فى هذه اللجنة كل من مصر وبريطانيا وأمريكا وثلاثة من السودانيين.

الإنجليز فى السودان

لم يكن هناك من يعتقد - قبيل إجراء هذه الإنتخابات - بإمكان فوز الإتحاديين فيها لإشراف الإنجليز الكامل على كل شئ فى البلاد وكان حزب الأمة يشاركهم فى الحكم فى ذلك الوقت وكان الإنجليز الحاكمون للسودان يعرفون السودان وأحواله وقبائله ولغاته وعاداته بحكم خبرتهم الطويلة فى هذه البلاد أكثر من أهل البلاد أنفسهم الذين لا يعرف معظمهم أحوال بقية أنحاء البلاد البعيدة منهم لاتساع رقعة البلاد وسوء المواصلات وقد قلت لك من قبل أن مساحة السودان تقارب مساحة الصين الشعبية.

جاءت لجنة الانتخابات الدولية قبيل الإنتخابات واستقرت فى الخرطوم واعتمدت فى كل معلوماتها على الإدارة البريطانية فى السودان.

استحالة فوز الاتحاديين

ولقد وضح لك - إن كنت قد تتبعت مذكراتى - أن الإنجليز خلال نصف قرن لم يخفوا لحظة واحدة إصرارهم على ضرورة الفصل الكامل بين مصر والسودان حتى يخلو لهم الجو تمامًا فى الجنوب ويغلقوا تمامًا الباب الموصل إلى مستعمراتهم الأفريقية..

ومن هنا نشأ إيمان الجميع فى كل أنحاء العالم وثقتهم الكاملة باستحالة فوز الإتحاديين فى هذه المعركة..

ولم يجازف فرد واحد بقبول مبدأ الرهان ولو بمليم واحد على احتمال فوز حزب الأزهرى المشكل من الأحزاب الإتحادية العديدة المتنافرة..

ومما زاد من تأكد الجميع من هذه النتيجة ذلك الصراع الرهيب الذى بدأ ينشب علنا بين صفوف الحزب وأجنحته المختلفة عندما بدأ فى وضع قائمة مرشحيه فى الإنتخابات ..

حرب داخل الحزب

أخذ كل جناح فى الحزب يعمل كحزب داخل الحزب لفرض قائمة مرشحين

حتى تقدم للترشيح فى معظم الدوائر الإنتخابية أربعة وخمسة وستة وسبعة مرشحين إتحاديين فى الدائرة إلى درجة أفقدت كل مؤيد للحزب أمله فى إمكان الفوز.

أخذ المراقبون لسير المعركة يقدرون لهذا الحزب الإتحادى عشرة مقاعد على الأكثر من مجموع المقاعد البالغ عددها ٩٧ دائرة. وقوى أمل حزب الأمة المتماسك ذى القيادة الواحدة فى فوز ساحق وكان الحزب يشترك وقتها كما قلت فى حكم البلاد.

دور الختمية (١٦١)

قامت قيادة طائفة الختمية ـ التى تشكل قاعدة الحزب الوطنى الإتحادى الشعبية. بمجهود ضخم لحسم الخلافات بين أجنحة الحزب حول قائمة الترشيح ونجحت فعلا فى تذليل الكثير من هذه الخلافات ولكنها عجزت عن حل الصراع فى أكثر من عشر دوائر تقدم فيها فعلا للإنتخابات أكثر من مرشح إتحادى.. وكانت النتيجة أن فقد الحزب هذه الدوائر كلية رغم أن مجموع الأصوات الإتحادية فى كل دائرة من هذه الدوائر كانت أكثر من مجموع الأصوات الإستقلالية التى فازت ،لأن قانون الإنتخابات فى السودان لا يشترط لفوز المرشح حصوله على الأغلبية المطلقة لمجموع أصوات الدائرة، فقط ينجح المرشح إذا نال الأصوات بالنسبة لبقية المرشحين.

ومن هنا تعرف أن الخلافات بين أجنحة هذا الحزب الإتحادى كادت فعلاً تودى بحياته ومستقبله فى هذه الإنتخابات لو لم تحسم هذه الخلافات فى معظم الدوائر فى اللحظة الأخيرة وعلى يدى السيد الميرغنى زعيم الختمية.

وهناك نقطة مهمة أحب أن أسجلها للتاريخ ولها إرتباط وثيق بقصتى شخصياً مع فريق من السودانيين ولذلك لن أتردد فى إيضاحها.. فقط أرجو الا يؤخذ كلامى حول هذه النقطة على أنه طعن فى وطنية حزب من الأحزاب.. وسأكتفى بالكلام حول ما جاء فى المستندات الرسمية للجنة الإنتخابات الدولية ..

شكاوى ضد الإدارة البريطانية

لقد قدم المواطنون فى السودان مئات من الشكاوى خلال المعركة الإنتخابية إلى اللجنة الدولية يحتج فيها أصحابها على تدخل الإدارة البريطانية فى سير المعركة لصالح المرشحين الإستقلاليين...

إدانة هذه الإدارة

لم تقدم شكوى واحدة تقول بإنحياز البريطانيين لمرشح إتحادى واحد، وقد ثبت للجنة الإنتخابات بالدليل القاطع صحة بعض هذه الشكاوى التى قدمت ضد الإدارة البريطانية رغم أن اللجنة كانت تركن فى كل شئ خاص بالتحقيق إلى موظفين خاضعين لتوجيهات وأوامر الإنجليز فى وقت لم يكن يتوقع أشد المتفائلين فى السودان أن الإنجليز سيخرجون فعلا بتوقيعهم على الإتفاقية فى القاهرة.

ثبت للجنة تحيز مدير مديرية كسلا(١٦٢) البريطانى ومدير كردفان(١٦٣) ومدير المديرية الإستوائية(١٦٤) وبعض المفتشين البريطانيين.. وقد صدرت خطابات لوم من اللجنة الدولية إلى بعض الإداريين الإنجليز تثبت بشكل لا يدع مجالا للشك تحيز الإدارة وتدخلها السافر ضد مرشحى الحزب الوطنى الإتحادى..

مرشح ومدير بريطانى

لقد بلغ الأمر بمدير إحدى المديريات أن يطوف فى أنحاء المديرية بعربته وإلى جانب المرشح الإستقلالى، طاف بكل القبائل يهددهم ويتوعد زعماءهم إذا لم يقفوا إلى جانب المرشح الإستقلالى.

لم يحصل على أصوات أهله..

أما فى الجنوب فقد حدثت مآس عديدة من جراء تدخل الإدارة البريطانية حتى أن كل المرشحين الذين دخلوا الإنتخابات كإتحاديين فى دوائر الجنوب البالغ عددها ٢٢ دائرة سقطوا بالكامل فى الإنتخابات.. كما أن أحد كبار الزعماء

الجنوبيين ممن لا يرقى إليهم أى شك فى إمكان نجاحه نجاحًا كاسحًا وهو السيد سريسيو أيرو عضو مجلس السيادة الآن ـ رشح نفسه كإتحادى فى دائرة توريت ـ ولم يستطع الحصول على أصوات أهله وأقاربه..

خدعة

كان الإتحاديون فى الخرطوم يفطنون إلى حقيقة ما سيحدث فى إنتخابات الجنوب قبل إجرائها بوقت طويل ويخشون من ضياع كل الدوائر هناك التى تمثل ربع مجموع الدوائر كلها ولذلك إتفق الإتحاديون سرًا مع ١٢ مرشحًا جنوبيًا كانوا يؤمنون بمبادئهم الإتحادية على أن يتقدموا للإنتخابات كمستقلين ويخفوا صفتهم الإتحادية.. وفى الوقت نفسه وقع هؤلاء المرشحون على وثائق إنضمامهم سرًا للحزب الإتحادى على أن يعلنوا مبادئهم الإتحادية فور نجاحهم فى المعركة.. ونجحوا كلهم بهذه الوسيلة فى الإنتخابات دون أن تتعرض لهم الإدارة البريطانية هناك بأى شر..

فرحة..

وليلة إعلان نتيجة إنتخابات دوائر الجنوب أعلنت اللجنة الدولية عدم فوز أى مرشح إتحادى هناك.. وجاء هذا الإعلان قبل إجراء إنتخابات الشمال بيوم واحد فهز الفرح الحاكم العام روبرت هاو.. ولم يطق أن ينام قبل أن يتشفى فى مصر وفى مندوب مصر عبد الفتاح حسن.. فاستدعاه فى نفس الليلة إلى قصره وصافحه وكل خلجة من خلجات وجهه ترقص بشرًا وسعادة من طلائع الإنتخابات التى تبين مدى إندحار الفكرة الإتحادية فى ثلاث مديريات كاملة.. ألم يسقط كل المرشحين الإتحاديين ؟!..

قال روبرت هاو ليلتها إلى عبد الفتاح : ألم أقل لكم أيها المصريون أنه لا يوجد نصير فى هذه البلاد لفكرة الإتحاد معكم؟ لم تصدقونا طويلا ونحن نطلعكم على الحقائق فى هذه البلاد وكنتم تظنون أننا نغرر بكم ... ما رأيك فى النتيجة التى أعلنتها لجنتكم الليلة حول نتيجة الإنتخابات فى كل دوائر الجنوب؟

ثم لطمة..

وكان عبد الفتاح حسن قد علم قبل وصوله لسراى الحاكم العام بدقائق البيان الذى أذاعه الحزب الوطنى الإتحادى فور إعلان نتيجة الإنتخابات هذه والذى جاء فيه نبأ فوز الحزب بإثنى عشر مقعدًا فى الجنوب، أى أكثر من نصف الدوائر هناك وهؤلاء الذين كانوا قد أخفوا إتحاديتهم وتقدموا كمستقلين حتى يتفادوا ضغط الإدارة. كما أذاع الحزب نصوص التلغرافات التى وصلته من هؤلاء الفائزين يعلنون فيها إنضمامهم إلى صفوف الحزب الوطنى الإتحادى وإيمانهم بمبادئه..

دى كلام فارغ

كان عبد الفتاح حسن قد علم بكل ذلك قبل وصوله للسراى.. فأجاب الحاكم العام على سؤاله بما يلى: إن كلام معاليك جائز.. ولكنى سمعت عرضًا قبل وصولى إلى معاليكم بدقائق بيانًا صادرًا عن الحزب الوطنى الإتحادى يعلن فيه غير ما تقوله معاليكم..

فبدت بعض الدهشة على وجه معاليه ورد باللغة العربية: دى كلام فارغ.. وسكت قليلاً وربما داعبه بعض الشك. عاد يسأل: ماذا قالوا؟ فأجاب عبد الفتاح: سمعت أن الحزب يقول فى بيانه أن ١٢ نائبًا جنوبيًا قد أعلنوا انضمامهم إلى صفوف الإتحاد.. فصعق معاليه وتجهم فجأة وقال: لا شك أنك تمزح.. إنك عضو فى اللجنة الدولية.. ألم تسمع وتقرأ النتيجة الرسمية للجنة التى نشرت وأذيعت فى الإذاعة؟.. فابتسم عبد الفتاح بخبث وقال: يجوز أن الحزب غير جاد فى إعلانه هذا.. وربما أراد أن يؤثر على الناخبين فى الدوائر الشمالية التى ستجرى فيها الإنتخابات غدًا..!!

صافح الحاكم العام عبد الفتاح وانصرف لداخل القصر مسرعًا وانصرف عبد الفتاح. وإلى الغد.

الهوامش

(١٦٠) الحكم العرفى، هى الأنظمة التى تحكم الدولة إذا ما استلم العسكريون الحكم وأوقفوا العمل بالقوانين المدنية أو أخضعوها لسيطرتهم، وهو نظام استثنائى تلجأ إليه الدول فى حالة الأزمات الطارئة وإختلال الأمن وتقرر فيه حالة الطوارئ ومنع التجول حتى يزول الخطر عن البلاد وتمنح فيه السلطة التنفيذية سلطات واسعة حتى يعود الأمن والاستقرار للبلد وغالبًا ما يقرر حاكم الدولة هذه الأحكام العرفية. عبد الوهاب الكيالى: مرجع سابق، جـ١ ص ٧٨.

(١٦١) رأى الميرغنى أن التردد لا يفيد، والحلول الوسطى لا تجدى، وأسلوب الاستعارة لا يدفع فى الانتخابات، فقرر أن يتضامن مع الحزب الوطنى الاتحادى، وفى الوقت نفسه رأى الحزب أن يستعين بنفوذ الختمية، وأن يدعم سيادتهم على الحزب، فقد التقت المصالح تمامًا بين الحزب وطائفة الختمية، وكانت وجهة نظر الميرغنى غير المعلنة، أن يتخلص من الإنجليز أولاً، لأن هذه المهمة الصعبة، ويواجه مصر بعد ذلك وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك، وهكذا قرر الحزب الإتحادى فى ١٠ يولية توسيع جمعيته العمومية ليصبح عدد الأعضاء ٣٠٠ بدلاً من مائة، ويكون للختمية أغلبية فى الجمعية بنسبة ٧٥٪، وزاد عدد اللجنة المركزية للحزب إلى ٣٠ عضوًا، كان للختمية منهم ١٦ عضوًا.

محسن محمد: مرجع سابق، ص ١٨٥.

(١٦٢) كسلا ولاية سودانية تتميز بطبيعتها الخلابة وحدائقها الغناء التى تجعل منها أهم منطقة سياحية لجذب السياح يوجد بها جبال التاكا نهر القاش ونهر عطبره وجبل مكرام وأهم القبائل التى تقطن ولاية كسلا: الهدندوه والشكرية والبنى عامر وبعض الشماليين وبعض قبائل غرب أفريقيا تعتبر مدينة كسلا من أكثر المدن السودانية التى تأثرت بالصراعات الإقليمية مما أدى إلى نزوح عدد كبير من سكان الدول المجاورة إليها واستوطانهم بها مما أدى إلى تغير التركيبة الديموغرافية للمنطقة، المساحة ٦٧١٠ كلم مربع. ٥٠٨، وعدد السكان ١٥٨٤١٢ نسمة.

(١٦٣) تنقسم كردفان حاليا إلى ولايتين.

جنوب كردفان: هى ولاية سودانية تحد الولاية من الشمال ولاية شمال كردفان وولاية الوحدة من جهة الجنوب ولاية أعالى النيل ومن الشمال الشرقى ولاية النيل الأبيض.

المساحة : ٧٩٤٧٠ كلم مربع.

السكان: ١٠٦٦١١٧ نسمة.

أهم المدن: الرشاد، الدلنج، أبو جبيهه، تلودى وكاقلى حاضرة الولاية شمال كردفان.

هى إحدى ولايات السودان الوسطى.

الحرفة الرئيسية: الزراعة المتنوعة والرعى.

المساحة: تتجاوز الـ ٧٠٠ كيلو متر.

السكان: مسلمين من قبائل متنوعة مثل الجوامعة والجمع والبقارة والحمر والشنابلة أما ولاية غرب كردفان فتم إلغاء هذه الولاية بناء على اتفاقية السلام الموقعة فى ٩ / ١ / ٢٠٠٥ المعروفة بإتفاقية نيفاشفا. وتم ضم جزء من الولاية إلى ولاية شمال كردفان والجزء الآخر إلى جنوب كردفان.

(١٦٤) سبق التعريف بها.

(١٨) ميثاق الجنتلمان

قصة الأساليب الفاسدة

النائب الذى دخل مستشفى الأمراض العقلية يوم نجاحه..!

كلمتك بالأمس عما دار فى انتخابات جنوب السودان والحيلة التى تخلص بها الحزب الوطنى الإتحادى من إرهاب الإدارة الإنجليزية وضغطها على مرشحيه فى هذه الدوائر.. وما أن علم الحاكم العام ببيان الحزب الوطنى الإتحادى الذى حدثتك عنه بالأمس والذى أعلن فيه الحزب انضمام إثنى عشر نائبًا جنوبيًا إلى الحزب فور إعلان نتيجة الإنتخابات فى الدوائر الجنوبية.. وما أن علم الحاكم العام بهذه الحقيقة إلا وعقد فى نفس الليلة مؤتمرًا جمع كل مستشاريه ولم يغمض جفن أحد فى قصر الحاكم طوال هذه الليلة..!

اجتماع فى جوبا

وفى صباح اليوم التالى.. وفى ساعة مبكرة.. استقل مستر "لوس" مستشار الحاكم السياسى الطائرة إلى جنوب السودان وعقد اجتماعًا فور وصوله إلى مدينة جوبا ضم مديرى المديريات الجنوبية الذين وافوه على عجل بالطائرة وكلهم من الإنجليز.. واستمر مستر لوس طويلا يناقش المديرين فى الموقف الذى أعلنه الحزب الإتحادى وأزاح فيه الستار عن إتحادية أكثر من نصف مرشحى الدوائر الجنوبية الفائزين..

تهديد .. وإغراء !

ترك مستر لوس المديرين بعد أن أخذ منهم تعليمات الحاكم التى سينفذها فى مديريته.. وقام مستر لوس نفسه بعد ذلك بجولة فى جميع أنحاء الجنوب

استمرت أكثر من أسبوعين قابل فيها كل المرشحين الفائزين الذين انضموا للحزب الإتحادى.. هددهم بشتى أنواع العقاب والعذاب.. وضغط ما شاء له الضغط.. وأغرى بكل ما ملك من شتى وسائل الإغراء..

وساعده فى محاولته هذه جيش الحكام البريطانيين الذين انفردوا بحكم هذه المناطق أكثر من ٥٠ عامًا.. فلم تستطع القوة أو الإغراء أن تزلزل أقدام أحد من هؤلاء الإثنى عشر نائبًا..

قبض واتهام بالجنون!

فلما أعيت مستر لوس كل الحيل.. أمر بالقبض على أحدهم وهو سيمون ماكواج وأودعوه قسرا فى أحد المستشفيات وأعلن مدير المديرية أن هذا المرشح الفائز الذى أعلن عن إتحاديته مخبول.. وفاقد القوة العقلية. لم يستطع أحد أن يناقشهم الحساب..

اضطهاد..

وكل ما نجح فيه مستر لوس فى رحلته الخاطفة هذه هو إنقاصه لعدد الدوائر التى فاز فيها الإتحاديون من إثنتى عشرة إلى إحدى عشرة دائرة.. ومن الأمثلة لجرم الإدارة البريطانية وجرأتها النادرة فى تغيير مجرى هذه الإنتخابات وخاصة فى دوائر الجنوب.. واضطهادهم لكل مرشح إتحادى.. أن أحد مرشحى قبيلة الدينكا(١٦٥) الشهيرة وهو زعيم من زعمائها.. إن لم يكن أكبرهم مقامًا.. وهو القائم مقام عبد الله آدم وكان ضابطًا سابقًا فى الجيش المصرى وخاض معركة الإنتخابات معلنا عن إتحاديته فى دائرة رمبيك فى بحر الغزال (١٦٦) .

قصة الأساليب الفاسدة

لم يرض هذا الرجل أن يخفى مبداه السياسى لثقته المطلقة بالفوز فى قبيلته ووسط أتباعه الذين يدينون له بالطاعة والولاء المطلق.. ولما أحس مدير المديرية البريطانى بأن نجاح عبد الله آدم لا يمكن تجنبه بحال من الأحوال لفقت له الإدارة البريطانية قبيل الإنتخابات بأيام تهمة استخدامه للأساليب الفاسدة فى الإنتخابات وقيامه بإغراء الناخبين والتأثير عليهم..

وكان عماد هذه القضية الملفقة أن الإدارة قد ضبطت فى منزله بضع صفائح مملوءة بشراب "المريسة" وهو شراب وطنى فى الجنوب اعتاد كل جنوبى تناوله وتقديمه للضيوف والكثير من أهل الجنوب يكاد يعيش كل يومه على هذا الشراب دون أن يتناول أى غذاء آخر.. وهو مصنوع من الذرة بعد تخميرها ويشبه إلى حد بعيد شراب "البوظة" المعروف فى مصر.. إن هذه الصفائح التى قامت وقعدت الإدارة البريطانية عندما ضبطتها فى منزل عبد الله آدم تساوى الصفيحة منها ١٥ قرشا ولا أكثر.. ولا يخلو منزل واحد فى كل أنحاء الجنوب من مثل هذا الشراب.. وكانت دعواهم أن الكمية المضبوطة أكثر من استهلاكه الشخصى.. ومعنى هذا أنه يرشو أفراد القبيلة بتقديمه لهذا الشراب..!

اعتقال عبد الله آدم

اعتقل الإنجليز عبد الله آدم بهذه التهمة وقدموه للمحاكمة يوم إجراء الإنتخابات بالذات.. واجتمعت لجنة برئاسة المفتش البريطانى على بعد أمتار قلائل من صناديق الإنتخابات..!

صوتان لعميد قبيلة!!

وكان الناخبون حينما يتقدمون إلى الصناديق ليدلوا فيها بأصواتهم كان المفتش يعلنهم بأعلى صوته قائلا لهم أن مرشحكم عبد الله آدم سيدخل السجن.. وهاهو يحاكم أمامكم فلا فائدة مطلقًا من اختياركم له، وخير لكم أن تبحثوا عن مرشح آخر يفيدكم وتفيدونه..

وهكذا نال هذا الزعيم الكبير نتيجة إصراره على إعلانه إتحاديته على صوتين إثنين ..

أمثلة حققتها اللجنة الدولية

لن تكفينى مئات الصفحات لأسجل فيها مدى تدخل الإدارة البريطانية السافر ضد كافة المرشحين الإتحاديين فى طول البلاد وعرضها.. واكتفيت بسرد بعض الأمثلة التى حققتها للجنة الدولية واقتنعت فيها بتحيز الإدارة.. علمًا بأن أغلبية أعضاء هذه اللجنة الدولية كانت فى جانب الفريق الإستقلالى.. فالعضو

الإنجليزى والأمريكى والعضوان الإستقلاليان من السودانيين.. هؤلاء الأربعة كانوا يصوتون دائما لصالح الإستقلاليين وهم يمثلون اللجنة السباعية.. ورغم ذلك فقد اضطرت اللجنة لإقرار تدخل الإدارة البريطانية فى بعض الحالات وفى البعض الآخر عجزت عن الإثبات رغم اقتناعها بصحة الشكاوى لأنه لم يكن للجنة جهاز محايد تمامًا يشرف لها على الإنتخابات فى هذه البلاد المترامية الأطراف.. وكل أجهزة اللجنة كانت خاضعة تماما لإدارة الإنجليز بحكم الوظائف الرئيسية التى يشغلونها..

لقد انتهى الآن كل شئ وتقرر مصير السودان وأعلن الإستقلال وكنت أول المهنئين للسودانيين بهذا الإستقلال الكامل الذى نالوه فى أول يناير الماضى..

إن مصر لم تكن تخشى سوى إستقلال مزيف يتم فى ظل الإنجليز وتستمر سيطرتهم على البلاد بعد إعلان الإستقلال..

أعود وأكرر أن كل شئ قد تم وحسم الآن وأرجو ألا يشعر حزب الأمة بأى ألم أو حساسية حينما أقرر الآن للتاريخ موقف الإدارة البريطانية فى تجنيها على الحزب الوطنى الإتحادى وتحديها لمرشحيه فى هذه الإنتخابات.

مساندة الاتحاديين

إنى أعترف بصراحة أن هذا الموقف الواضح السافر للحكام الإنجليز هو الذى دفعنى لأن أقف بجوار هذا الحزب المعتدى عليه بجوارحى وحواسى وأعصابى.. وموقفى هذا هو الذى حز فى نفوس قادة حزب الأمة وقطعت على أثره علاقات المودة والمحبة بينى وبين قادة هذا الحزب.. واعتبر حزب الأمة هذا الموقف منى خروجًا على اتفاق الجنتلمان الذى عقدته مع قادتهم فى القاهرة فى سبتمبر عام ٥٢ فى سراى آل لطف الله بالزمالك.. وفى حضور زعيمهم الكبير السيد عبدالرحمن المهدى .. لقد نص اتفاق الجنتلمان هذا على أن تقف مصر موقف الحياد الدقيق من الأحزاب السودانية فى صراعها فى الإنتخابات وحول الحكم وعند تقرير المصير.. لقد وقعت هذا الإتفاق ونحن جميعًا نؤمن بضرورة تنفيذه .. والإتفاقيات مع الإنجليز كانت كلها تدور حول تهيئة جو حر محايد يباشر فى ظله السودانيون تقرير مصير بلادهم ..

ولكن أوضحت لك موقف الإدارة الإنجليزية والحكام البريطانيين فى أول انتخابات حدثت فى السودان عقب توقيع الإتفاق.. لقد أوضحت لك تحيزهم ضد الحزب الإتحادى.. واضطهادهم لمرشحيه فى جميع أنحاء البلاد وإثبات هذا التدخل بواسطة اللجنة الدولية المحايدة.. فهل كنت أملك أن أقف فى غير هذا الموقف الذى وقفته وأنا أشهد كفاح بريطانيا السافر لتدمير صفوف الإتحاديين..؟ وهل كان الإتحاديون يقبلون وقوف مصر على الحياد وهى إحدى الدولتين المسئولتين عن السودان فى الوقت الذى تقوم فيه الدولة الأخرى بإعلان الحرب عليهم واضطهادهم فى أخطر معركة واجهت البلاد؟

حنق حزب الأمة

لا شك أنى لو اضطررت إلى الإلتزام طبقا لميثاق الجنتلمان مع حزب الأمة لم يكن التاريخ يرحمنى.. فقد طالما عارضت مصر تقرير المصير فى السودان فى وجود الإنجليز ولم تقبل مبدأ تقرير المصير إلا بشرط زوال نفوذهم وخروجهم قبل تقرير المصير.. والتزمنا مع انجلترا فى اتفاق دولى لنقف بعيدين عن المعركة ونترك السودانيين دون ضغط أو إكراه.. فهل التزمته بريطانيا بالوثيقة التى وقعتها..؟

لقد تألم حزب الأمة ألما مريرا لتوجيهى جهاز دعايتى لمناصرة الحزب الإتحادى فى محنته للوقوف أمام كافة الأجهزة البريطانية فى لندن وفى الخرطوم التى تناصر الفريق الآخر(١٦٧).. أقول أن حزب الأمة قد حنق على حنقا لا مزيد عليه، وإنى أعترف بصراحة أيضا أنى لو كنت فى موقف هؤلاء الزعماء لغضبت وثرت وتألمت..

كما أنى على ثقة لو كان أى زعيم من زعماء حزب الأمة فى مكانى وأنا أمثل مصر التى قبلت مبدأ الإستفتاء بشرط توافر الحياد.. لوقف هذا الزعيم نفس الموقف الذى وقفته وإلا لما كنا منطقيين مع أنفسنا عندما قبلنا توقيع الإتفاقية مع الإنجليز .

ونقطة أخرى أحب أن أوضحها وهى أن مصر لم تكن تملك أية قوة فى السودان.. لم يكن لها موظف واحد له شبه سلطة فى حكومة السودان.. وكانت

انجلترا تملك منصب الحاكم العام وتملك كل شئ فى البلاد جنوباً وشمالاً.. وتتصرف عن طريق هؤلاء حسبما تريد وتشتهى.. وكانت كل سلطات التشريع والتنفيذ والقضاء فى يد الإنجليز كما سبق أن أوضحت.. سار حزب الأمة إلى نهاية الشوط فى الهجوم على بكل ما يملك من وسائل لمساندتى للحزب الإتحادى الذى تعرض لأقصى أنواع الضغط .

والى الغد إن شاء الله .

الهوامش

(١٦٥) من ضمن القبائل النيلية وهى أكبر المجموعات القبلية تعتبر قبيلة الدينكا نيليون وهم من أكبر القبائل بالسودان وذهب البعض إلى إنها تعتبر ثانى أكبر قبيلة بأفريقيا بعد قبيلة الماساى فى كينيا ويمثلون نسبة ١١٪ من مجموع سكان السودان و٥٠٪ من سكان جنوب السودان / جميل عبيد: مرجع سابق، ص ٢١.

(١٦٦) من أشهر قبائل الدنكا فى الغرب الآجار ومن مراكز تجمعهم رومبيك.. د/ جميل عبيد: مرجع سابق، ص ٢١.

(١٦٧) قضت نتيجة الانتخابات على نفوذ حزب الأمة فى الثلاث سنوات الانتقالية فى تاريخ السودان بعد الهزيمة المرة. وارجع الحزب ذلك للرشاوى المالية التى بذلها صلاح سالم فى السودان والتى أضرت بالسياسة المصرية فى السودان، أدلى صلاح سالم بحديث لمجلة آخر ساعة اعترف فيه بأنه عاون السودانيين ولكنه قال إن ما فعله ليس رشوة ولا مجاملة، بل إن السودان فاته الكثير، ويجب أن يعوض عما مضى، ولكن حسين صبرى ذكر أن صلاح سالم كان يوزع الرشاوى والأموال ببذخ فى السودان مما أضر بالسياسة المصرية فى السودان، وهو نفس ما أكده البغدادى فى مذكراته حيث ذكر أنه فى إجتماع مجلس القيادة يوم ٢٥ أغسطس ١٩٥٥م استدعى المجلس صالح حرب وزير الحربية الأسبق والأستاد خليل إبراهيم مدير الرى للشهادة وقد قاما بشرح الموقف موضحين أن قيام مصر برشوة كثير من السودانيين والمشتغلين هناك كان له أثر سيئ على أغلبية أفراد الشعب السودانى، حتى أصبح الشك يتناول كل شخص يتعاون مع مصر، لاعتقادهم أن وراء ذلك التعاون منه رشوة.

حسين صبرى ذو الفقار: مرجع سابق، ص.

عبد اللطيف البغداى: مرجع سابق، ص.

(١٩) يوم الإمبراطورية الأسود

داك داى ودارك داى

كادت الأغلبية تنقلب إلى أقلية

بدء الفتنة فى الجنوب

حدثتك بالأمس عن ثورة حزب الأمة ضدى لمساندتى للحزب الوطنى الإتحادى لأخفف من الضغط المرير الذى تعرض له من جانب الإنجليز. وأخذت صحف هذا الحزب تكيل لى الشتائم والسباب وتتهمنى بكل اتهام يمكن أن يخطر على بال.. فى كل صفحاتها ومقالاتها وأخبارها[١٦٨]، وإنى أذكر يومًا كنت فيه بالخرطوم فى هذه الفترة وقابلت زميلاً صحفيًا من الإستقلاليين.. وكانت فى يدى صحيفة من صحف حزب الأمة التى لم يخل سطر واحد فيها من هجوم علىّ فالتفت إلىّ الزميل الصحفى وقلت: عندى ملاحظة واحدة على تحرير جريدتكم ، فقد اكتشفت فى هذا العدد الأخير جزءًا من الجريدة خلا من الهجوم على ألا وهو المكان الذى نشرتم فيه إعلانا لشركة مصر للتأمين[١٦٩]..! فما رأيك لو نشرتم هذا الإعلان فى العدد القادم بالصيغة الآتية: (أمنوا على أرواحكم وبضائعكم فى الشركة الكبرى للتأمين وإلى الجحيم يا صلاح سالم..؟!) حتى أكون صادقًا إذا ما قلت أن سطرا واحدا فى الجريدة لم يخل من هجوم علىّ.

قلت لك بالأمس أنى أقدر تمامًا الدوافع التى دفعت حزب الأمة وصحافته لكى تقف منى مثل هذا الموقف.. ولكنى أعتقد كما قلت أنهم يقدرون موقفى فى هذه المعركة والظروف التى ألجأتنى لاتخاذ هذا الموقف.. وإنى أوجه كلمة هادئة إلى أصدقائى رجال حزب الأمة الذين أكن لهم كل حب وتقدير واحترام وجمعتنى بمعظمهم أوثق الصلات الشخصية وأقوى الصداقات ..

حملة بريطانيا على الإتحاديين

الآن وقد انتهى كل شئ وحصلوا على كل شئ طالبوا به أحب أن أتساءل وأقول: لماذا هاج وماج مجلس العموم ومجلس اللوردات البريطانى غداة إعلان نتائج الإنتخابات بفوز الإتحاديين؟ لماذا تمرد الكثيرون من رجال حزب المحافظين - الحزب الحاكم فى لندن - على حكومتهم وأعلنوا عصيانهم لسياسة ايدن وزير الخارجية فى ذلك الوقت وسلوين لويد وزير الدولة ؟ لماذا قام زعماء اللوردات أعداء كل حرية وكل أحرار مثل كليرن ووترهاوس وأخذوا يندبون الإمبراطورية ويلطمون خدودهم فى هذا اليوم معلنين ألمهم واستياءهم لهذه النتيجة المحزنة المخزية لبريطانيا لأن الإتحاديين هم الذين فازوا فى الإنتخابات.. وإنى أستخدم الألفاظ التى جاءت على ألسنة هؤلاء الزعماء البريطانيين فى هذه الجلسة الصاخبة.. أستخدمها بنصوصها وبحروفها..

لماذا خرجت كل الصحف البريطانية فى هذا اليوم تحمل معنى واحدًا؟.. معنى الإندحار والهزيمة وتوجيه أشد اللوم للحكومة البريطانية على موقفها الذى قاد إلى هذه الهزيمة النكراء للإمبراطورية والذى دمر آمالها فى بقعة مهمة منها..!

إنى لا أختلق هذا الكلام ولا أدعيه.. وأرجعوا معى إلى كل هذه الصحف البريطانية التى صدرت فى هذا الوقت.. وكذا صحف العالم كله التى صدرت تحمل فى أولى صفحاتها أنباء فوز الإتحاديين.. وتقرن هذا الفوز بما أسمته أشد هزيمة ساحقة أصابت بريطانيا فى القارة الأفريقية بأسرها منذ وطئت قدمها أرض هذه القارة.

يوم أسود

لماذا طالب بعض نواب لوردات الإنجليز فى هذه الجلسة التاريخية بعدم الإعتراف بهذه النتيجة؟ وشط بعضهم وتمادى فطالب بتمزيق الإتفاقية المعقودة مع مصر حول مستقبل السودان وإلغائها.. وقال كليرن على ملأ من الجميع بالحرف الواحد: "إنه ليوم أسود مشئوم فى تاريخ بريطانيا".

وعقب يومها أكثر من معلق سياسى على هذه النتيجة ووصفها بأنها هزت كيان إيدن خليفة تشرشل وزعزعت مركز حزب المحافظين بأسره.

روى لى الكثيرون ممن استمعوا إلى إذاعة لندن وهى تذيع نتيجة الإنتخابات فى السودان أن المذيع البريطانى الذى أذاع أسماء الناخبين فى الإنتخابات ولونهم السياسى كان يبدو على لهجته الضيق والألم من النتيجة وكان صوته يتهدج، وكان آخر اسم من أسماء النواب الفائزين هو النائب داك داى، وإذا بالمذيع يخطئ فيقرأ الإسم دارك داى ومعناه بالإنجليزية اليوم الأسود وفطن المذيع إلى خطئه فصححه بعد قليل.

وهكذا عبر المذيع عن حقيقة شعور بريطانيا فى هذا اليوم الذى اعتبره الجميع يوما أسود لبريطانيا.

يريدون السيطرة

يا أصدقائى أعضاء حزب الأمة هل لى أن أتساءل عن موقف بريطانيا هذا فور إعلان نتيجة هذه الإنتخابات.. وعن سببه.. وهلا يعتبر هذا الموقف العجيب خير شاهد ودليل لإثبات نوايا الإنجليز وضغط الحاكمين فى السودان فى ذلك الوقت لمنع فوز حزب الإتحاديين؟ إنى لا أتهكم لأن الإنجليز حاربوا الإتحاديين وموقفهم واضح لا لبس فيه.. فإن كل أملهم تبلور حول الانفراد بالسيطرة على السودان حتى ولو اضطروا إلى إعلان استقلاله.

لا أظن أن أحداً منكم ينكر بينه وبين نفسه موقف الإنجليز هذا ونواياهم هذه.. فهل بعد كل هذا تنكرون على الموقف الذى اتخذته لأخفف من تدخل الإنجليز؟ وأعود وأقول أنى مقدر تماماً موقفكم منى ولا أعاتبكم بكلمة واحدة ولو كنت مكانكم لوقفت نفس موقفكم..!

نعود إلى قصة انتصار الإتحاديين والحزب الوطنى الإتحادى الذين حصلوا على ٥٦ مقعداً من مجموع المقاعد فى مجلس النواب البالغ عددها ٩٧ (١٧٠).

عاصفة تهدد حزب الأغلبية

وما أن أعلنت هذه النتيجة وعم البشر والسرور صفوف قاعدتهم الشعبية.. حتى كانت أعتى الخلافات وأقسى الأزمات تطل برأسها بين صفوف قادة الحزب وأجنحته العديدة التى إئتلفت ظاهريا منذ شهور قلائل.. وباتت هذه الخلافات تهدد من جديد كيان هذا الحزب الذى لم يزد عمره عن عام واحد وأوشكت أن تقلب انتصاره الساحق إلى هزيمة نكراء.. وكادت الأغلبية تفلت من أيدى الحزب المنتصر ولم تشكل وزارته الأولى بعد..

خلاف على الوزارات...

من من زعماء الحزب سيكون وزيرًا للمالية ؟ ومن سيكون وزيرًا للداخلية؟ ومن منهم سيشرف على الجيش؟ ومن هم وزراء الرى والأشغال والحكومات المحلية؟ ومن .. ومن .. ومن..؟! أسئلة واستفسارات أخذ يرددها الجميع فى كل مكان وبدأت تتضح معالم أجنحة الحزب القديمة من جديد داخل الحزب الموحد.. أى جناح سوف يفوز بأكبر نصيب من المقاعد الوزارية فى أول وزارة وطنية فى تاريخ السودان؟ وهل سيدخل الوزارة يحيى الفضلى؟ وإن دخل فكيف سيتعاون مع عدوه نور الدين؟ .. هذا قليل من كثير رددته جنبات الحزب الوطنى الإتحادى الذى بدأ ينفرط عقده إلى أكثر من حلقة أخذت كل منها جانبًا فى جلسات متصلة ليل نهار فى مكان منزو عن عيون الآخرين! لرسم الخطط والإتفاق على مقاومة نفوذ الآخرين .

حتى رئاسة الوزارة..!

حتى رئاسة الوزارة أخذت قاعدة الحزب تهمس فى كل مكان حول اختلاف قادة الحزب عليها. فمن معضد الأزهرى بصفته رئيسا للحزب، ومن معضد لميرغنى حمزة على أنه كفاءة من الكفاءات يجب الانتفاع بها فى مثل هذا المنصب خاصة وهو موضع ثقة قيادة طائفة الختمية التى تساند الحزب.

مرت أيام عصيبة كادت تعصف بكل شئ وكادت تدمر بنيان الحزب الذى ولد بصعوبة وانتصر فى ظروف أشد صعوبة واكثر قسوة. وقوى الأمل فى هذه الأيام

عند حزب الأمة لذى نال فى هذه الإنتخابات ٢٣ مقعدًا.. قوى أمله فى أن يكون هو صاحب الأغلبية إذا ما تفكك الحزب الوطنى الإتحادى إلى أحزاب متعددة متفرقة .. وتهيأ محمد أحمد محجوب زعيم المعارضة لاحتمال توليه منصب رئيس الوزراء..

معجزة السماء

ولكن فى الساعة الرابعة والعشرين أى فى اللحظة الأخيرة إتفق الجميع بأعجوبة وبمعجزة من السماء ـ وما أكثر المعجزات التى حدثت فى تاريخ هذه القضية ـ اتفق الجميع على تشكيل أول وزارة للحزب الوطنى الإتحادى برئاسة إسماعيل الأزهرى.. واختفت إلى حين الحزازات والخلافات بين أجنحة الحزب لتعود وتطل من جديد على صفحات جرائد الحزب نفسه وفى صفوف نوابه ووزرائه بعد تشكيل الوزارة بأيام قلائل..

كان العالم كله ينظر إلى هذه الوزارة.. وزارة الأزهرى الأولى على أنها وزارة الأغلبية وتمثل حزب الأغلبية ولكنى كنت أنظر إليها على أنها وزارة ائتلافية بين أحزاب متعادية متخاصمة أجبرتها الظروف وحدها على أن تجتمع فى وزارة واحدة.. وكان يشاركنى فى هذا الرأى كل من تتبع أحوال السودان وشئونه.. فلم يكن منظرها ليختلف كثيرًا عن منظر وزارات الإئتلاف التى ذاقت فى ظلها الويلات.. لإنتقال الصراع الحزبى إلى داخل غرفة إجتماع مجلس الوزراء فيعجز المجلس عن حسم أى أمر خطير أو النهوض بأية سياسة .

كان هذا هو حال وزارة الأزهرى الأولى..

مخاوف مصر

زرت السودان عقب تشكيل هذه الوزارة لأقوم بواجب التهنئة لها وتقابلت مع زعماء الحزب ووزرائه عشرات من المرات وتحدثت إليهم طويلاً عن استعداد مصر لتقديم كل معاونة إلى حكومة السودان الأولى لتعينها فى مواجهة المشاكل القاسية التى تنتظرها والتى خلفها الاستعمار البريطانى..

أبرزت لهم فى هذه الزيارة بكل إخلاص خوف مصر من الأوضاع فى الجنوب ومن طول بقاء الإداريين الإنجليز فى هذه المناطق حيث يدبرون الفتن ويصنعون الدسائس ويشرفون على المؤامرات بقصد إحراج الحكم الوطنى الجديد وكانت قد بدت أولى الهمسات الخطيرة تنبعث من الجنوب تردد أخطر الإتجاهات على كيان البلاد..

فإلى الغد.

الهوامش

(١٦٨) قضت نتيجة الانتخابات على نفوذ حزب الأمة فى الثلاث سنوات الانتقالية فى تاريخ السودان بعد الهزيمة المرة.

(١٦٩) قام طلعت حرب بتأسيس بنك مصر والذى ساهم فى إنشاء العديد من الشركات التى تحمل اسم مصر مثل شركة مصر للغزل والنسيج ومصر للطيران ومصر للتأمين.

(١٧٠) فاز الحزب الاتحادى بواحد وخمسين مقعداً من مجموع مجلس النواب وعددها ٩٧ فقد استولى الحزب على كل مقاعد مجلس النواب فى الخرطوم والدوائر الشمالية، وحزب الأمة على ٢٢ مقعداً، والمستقلون على ١٢ عضواً، والحزب الجنوبى الذى دعا إليه الإنجليز ٩ مقاعد، والحزب الجمهورى الاشتراكى ٣ مقاعد، والجبهة المعادية للاستعمار والشيوعيون مقعد واحد. وفى مجلس الشيوخ نال الحزب الاتحادى ٢٢ مقعداً من ٣٠ وحزب الأمة ٣ مقاعد والمستقلون مقعدين، والقانون ينص على أن يعين الحاكم العام بموافقة لجنته عشرين عضواً فى مجلس الشيوخ، فتقرر بعد مناقشة مع الحزب الاتحادى أن يعين من كل حزب عدد من الأعضاء يتناسب مع مقاعدة التى فاز بها، وبذلك عين من الاتحاد ١٠ فأصبح له ٣٢ عضواً، وعين من حزب الأمة ٤ ومن الجنوبيين ٣ والمستقلين ٢ والجمهورى الاشتراكى عضواً واحد.

ـ محسن محمد: مرجع سابق، ص ١٩٠.

(٢٠) الأزهرى بين نارين

طبيب لكل ثلاثة ملايين آدمى

بين مصر وجيش السودان

حدثتك عن تشكيل الحكومة الوطنية الأولى فى السودان فى مستهل عام ٥٤ واجتماعى فى الخرطوم بأعضاء هذه الوزارة فور تأليفها.. وحديثى معهم حول مشكلة الجنوب خاصة وكافة مصادر الأخبار قد اجتمعت على أن شيئًا غير عادى أخذ يدور فى أرجاء كافة المديريات الجنوبية ..

فمعظم المثقفين الجنوبيين وكلهم من خريجى إرساليات التبشير الأجنبية المنبثة فى أرجاء الجنوب أخذوا يقودون حملة منتظمة بين صفوف القبائل لمحاولة إثارتهم ضد الحكم الوطنى وأخذوا يطالبون ضرورة إحلال الجنوبيين فى الإدارة مكان الموظفين البريطانيين الذين سيستغنى عنهم طبقًا لبرنامج السودنة الذى جاء فى الإتفاقية.. وأخذت أصواتهم ترتفع بوجوب حرمان الشماليين من أى وظيفة تخلو فى مناطق الجنوب .

الاتجاه نحو الجنوب

وأخذت أذهان الجنوبيين تتجه نحو حكومة الخرطوم وتنتظر منها البدء بخطوات إيجابية لرفع مستواهم بعد أن فهموا أن الإنجليز هم المسئولون عن أحوالهم التعسة وعن فقرهم وجهلهم وعريهم وبدائيتهم.. والآن وقد رحلت حكومة الإنجليز وجاءت حكومة السودان الوطنية الأولى فيجب أن تتغير أحوالهم بشكل ملموس.

خزانة خاوية

كنت أعلم بقوة الظروف التى تجـتازهـا حكومـة الخـرطوم الـوطنـيـة التى تسلمت الحكم من الإنجليز وتسلمت خزانته خـاوية وأمامهـا إلتـزامـات ضخمة نتيجة تطبيق إتفاقية السودان التى تـوجـب إخراج جيـوش المـوظفـين الإنجليز وتعـويضـهم تعـويضًا كـاملاً.. وكـان هـؤلاء المـوظـفون يتقـاضـون مـرتبـات خيالية ..

عدم إيمان!!

وكنت أعلم أن إمكانيات الخرطوم لن تسمح بعمل شئ محسوس فى المديريات الجنوبية الشاسعة الأرجاء والتى اهملت وأغلقت نصف قرن إغلاقًا كاملاً عن العالم كله.. وهنا يكمن الخطر الهائل الذى يهدد وحدة السودان.. فالشكوك التى نجح الإنجليز وإرساليات التبشير فى غرسها فى نفوس الجنوبيين لا زالت آثارها باقية فإذا ما مضى الوقت فى ظل الحكم الوطنى وبقيت أحوالهم على ما كانت عليه دون تقدم ملموس عادت إليهم الشكوك والهواجس وقل إيمانهم فى حكم الوطنيين فى الخرطوم وأصبحوا أكثر استعدادًا لتقبل سموم الإرساليات وعملاء الإنجليز المحيطين بالبلاد فى المستعمرات البريطانية.. وزد على ذلك أن الحكام البريطانيين لم يكونوا قد خرجوا بعد من الجنوب تطبيقًا لقرار السودنة وأخذ الكل يشعر أن شيئًا لا بد وأن سيحدث فى الجنوب إن لم تبذل أقصى عناية وأعظم الجهود لحل هذه المشكلة القاسية..

تذكير بأقوال المستعمرين

تحدثت مع الوزراء السودانيين فى أكثر من اجتماع فى الخرطوم عن هذه المعلومات الخطيرة التى توشك أن تودى بكل المكاسب التى حصل عليها السودان بتوقيع الإتفاقية بين الإنجليز ومصر.. ذكرتهم بكلمات روبرتسون السكرتير الإدارى السابق.. وبتقارير المستعمرين البريطانيين التى تدور حول ضرورة فصل الجنوب ليكون بمثابة سد منيع بغاباته وأحراشه أمام مستعمراتهم الأفريقية ليحميها من عرب وادى النيل.

وتحدثت معهم حول ضرورة عمل أى شئ للجنوب يقربه من الشمال.. وعن وجوب امتداد يد الإصلاح سريعًا إلى كل جزء من أجزائه حتى يستشعر الجنوبيون الفارق بين حكم الإنجليز والحكم الوطنى..

كنت أتكلم مع الوزراء فى منازلهم فى كل يوم أمضيته فى الخرطوم وكنت أستشعر الخطر وأحسه ماثلا أمامى فى كل لحظة..

روحى وعقلى فى الخرطوم

وكانت قضية السودان قد أصبحت جزءًا لا يتجزأ من كيانى.. وكنت أنام فأحلم بظروف هذه القضية وأصحو لأفكر فيها وفى تطوراتها.. حتى فى إجتماعات مجلس الوزراء فى القاهرة.. كثيرًا ما عجزت عن كبح جماح أفكارى وتخيلاتى.. فتظل تسبح فى جو الخرطوم ومشاكل الخرطوم ولا تستطيع متابعة مناقشات المجلس حول مشاكل الإصلاح الزراعى أو قضية منح ورثة المرحوم الشيخ فلان معاشًا إستثنائيًا قدره ثلاثة جنيهات بدلاً من جنيهين وستين قرشًا..

كنت أقابل الأستاذ يوسف وهبى مثلا فى مكتبى.. ليحدثنى عن الفرقة القومية أو المصرية لا أدرى.. فلا أستطيع أن أمنع أفكارى من اللحاق بنغمات الرقص والطبول والمزامير والدلوكة فى السودان وأصوات النقارة الجنوبية أى رقصهم وتمثيلهم.

وكنت باختصار أعيش جسدًا فى مصر وروحًا وأعصابًا وعقلا فى الخرطوم..

معاونة لحل المشكلة

أعود إلى إخوانى الوزراء فى الخرطوم وإلى اجتماعاتى وحديثى معهم حول الجنوب.. وأقول أنى قدمت لهم عرضًا من جانب مصر لمعاونتهم فى هذه المشكلة.. وأرجو أن يفهم الجميع أنى لا أريد أن أمن على السودان فمصر حينما تعين السودان وتساعد السودانيين فإنما هى تعين نفسها وتساعد أهلها ولكنى أذكر هذه الحقائق هنا لأسجل كل شئ للتاريخ ولكى أوضح الدور الذى قامت به مصر قبل الإتفاقية وبعدها فى الذود عن وحدة الأراضى السودانية وفى جمع

شمل السودانيين فى وطن الإتهامات العديدة التى وجهت إلى مصر وإلىّ بالذات وقت ثورة الجنوب التى حدثت قبيل إستقالتى بأيام.. وكانت كل هذه الإتهامات دور حول سعينا إلى تمزيق وحدة السودان والعمل على تشتيت شمل البلاد..

مصر تساهم فى ترقية الجنوب

وكان العرض المصرى الذى قدمته لحكومة الخرطوم فى أبريل عام ٥٤ عبارة عن مساهمة مصر فى ترقية أحوال الجنوب بدفع مبلغ ٧٥٠ ألف جنيه فى أول يولية عام ٥٤ يستخدم فى إقامة تسعة مجمعات ضخمة فى مديريات الجنوب الثلاث تستوعب حوالى خمسة آلاف جنوبى لتمنحهم العلم والغذاء والكساء والسكن، كما تمنح هذه المؤسسات أهالى المناطق المجاورة لها العلاج الطبى والدواء بالمجان، كما أوضحت للرئيس إسماعيل الأزهرى إستعداد مصر لدفع هذا المبلغ كل عام، على أن توضع هذه المؤسسات تحت الإشراف الكامل لحكومة السودان مع مواصلة مصر تسديد نفقاتها السنوية وتقديم ما تطلبه الخرطوم من فنيين لهذه المؤسسات .

كنت أشعر أن هذا العمل وخاصة إذا ما اقترن بعمل مماثل من حكومة الخرطوم لا يمكن وأن يسمى تضحية فى سبيل علاج وتذليل أقسى المشاكل وأخطرها والتى تهدد كيان السودان وتؤثر على مصر بالتبعية، إذ أن الجنوب يقع فى طريق منابع النيل الإستوائية ولمصر أكثر من مشروع ضخم فى هذه الأرجاء لمصلحة الوادى كله وتقدمه..

طبيب واحد يعالج ٣ ملايين

يكفى أن ينظر الجنوبيون إلى هذه المؤسسات التى تقام لهم كل عام ليؤمنوا بالحكم الوطنى فقد حرموا من كل شئ. فهل تعلم أن طبيبًا واحدًا فقط كان يزاول مهنة الطب طوال حكم الإنجليز فى وسط الجنوبيين البالغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة..

هذه هى مدنية الإنجليز وإنسانية بريطانيا العظمى وآدمية حكامهم الذين تشدقوا طويلاً بأفضالهم على العالم وعلى البشرية..!

تسليح جيش السودان

تكلمت مع الوزراء السودانيين فى نفس الوقت فى موضوع آخر لا يقل خطرًا وشأنًا عن موضوع الجنوب ألا وهو جيش السودان الذى تركه الإنجليز وعدده لا يزيد عن أربعة آلاف جندى ينقصهم كل شئ تقريبا من العتاد والسلاح الحديث.. ترك الإنجليز هذه القوة لتحمى مليونًا من الأميال المربعة..

أوضحت للوزراء فى الخرطوم خطورة هذه المشكلة على كل من مصر والسودان وأبديت استعداد مصر لتزويد جيش السودان بدفعات متلاحقة من الأسلحة التى نملكها ولم نكن بعد قد حصلنا على سلاح من تشيكوسلوفاكيا ولا من غيرها وحددت لهم مقدار الدفعة الأولى التى تكفى لتسليح ألف جندى من أحدث سلاح نملكه. كما عرضت إستعداد المعاهد والكلية العسكرية المصرية لقبول أى عدد من ضباط وجنود السودان للتعليم والتدريب على نفقة الحكومة المصرية كما رغبت مصر فى معاونة السودان فى إنشاء نواة لسلاح الطيران السودانى بتقديم طائرات تدريب وتخريج أفواج من الطيارين السودانيين من كلية الطيران الحربى المصرى.

هذه صورة خاطفة لعلاقتى مع الوزارة السودانية الأولى وأعضائها من زعماء الحزب الوطنى الإتحادى الذى تمت ولادته فى القاهرة وحدثتك طويلاً عن ظروف هذه الولادة..

عدت إلى مصر فى أبريل عام ٥٤ وما من يوم يمر دون أن أجيب باسم مصر على كل ما يطلب منى من إخوانى فى الخرطوم دون أدنى تردد.. وتوطدت الصداقة العميقة بينى وبين كل فرد من أعضاء هذا الحزب كبيرًا كان أو صغيرًا..

موقف حزب الأمة

واستمر الحال هكذا بضعة شهور ظل فيها حزب الأمة على موقفه منى منذ الإنتخابات وظروفها التى قادت إلى إبعاده عن الحكم.. ظل يكيل لى ولمصر صباح مساء القذائف والإتهامات لإخلالى بميثاق الجنتلمان ونصرتى فريقا على فريق

فى الإنتخابات وخرقى للجو الحر المحايد الذى لم يخرقه قط روبرت هاو الحاكم العام ورجال روبرت هاو الذين نشطوا للعمل ضد مصر وضد فكرة الإتحاد بشكل هستيرى وقد وصفت لك من يومين ما قاموا به خلال الإنتخابات مما استوجب توجيه اللوم من لجنة الإنتخابات الدولية.

زيارة مصر

جاء شهر يوليو عام ٥٤ وزار مصر فى حفلات التحرير لمناسبة مرور عامين على الثورة حوالى ألف مواطن من أهل السودان.. شماله وجنوبه.. شرقه وغربه.. وصلوا إلى القاهرة وكان معظمهم لم يروا مصر مرة واحدة من قبل طوال حياتهم.. جاءوا بعد أن حالت بريطانيا بينهم وبين التعرف على إخوانهم وأشقائهم فى الشمال.. وحدث نفس الشئ بالنسبة للمصريين الذين حرموا طويلا من التعرف على السودان وعلى اخوانهم السودانيين.. منذ وقع بطرس غالى وفاق الفصل المشئوم بين القطرين عام ١٨٩٩..

جاءت وفود من جبال النوبة وغرب السودان.. ومن زنوج الغابات فى جنوب السودان.. ومن قبائل الهدندوة فى الشرق.. ومن رجال العصامة المثلثة وسياسييها على اختلاف ميولهم ومبادئهم السياسية جاءوا ليروا ثورة مصر ووجه مصر على حقيقته بعد أن تفنن الإنجليز طويلاً فى إعطاء السودانيين صورة مغايرة تمامًا لحقيقتنا..

وجاء على رأس الوفود الرئيس إسماعيل الأزهرى.. جاء لأول مرة إلى مصر وهو رئيس وزراء بعد أن زارها مئات المرات من قبل كزعيم إتحادى بعيد عن الحكم والحكام وكرئيس لحزب الأشقاء المناضلين والمكافحين فى سبيل توحيد الوادى.. جاء الأزهرى رئيس مجلس وزراء السودان وصحب معه عددًا من وزرائه.. وكانت علاقتى معهم حتى هذا الوقت على أحسن ما تكون، ولم تحدث شائبة واحدة فى جو هذه العلاقة المتينة والصداقة الراسخة التى ظلت تزداد يوما بعد يوم منذ التقينا للمرة الأولى فى سميراميس وقت تشكيل الحزب الاتحادى.

فرحة لقاء الأخوين

قامت القاهرة وقعدت تستقبل أفواج السودانيين بثغر باسم وتضمهم بين ذراعيها وتعانقهم وتقبلهم وترحب بهم أصدق ترحيب.. بعد أن غابوا عنها طويلاً.. وأحسن الاستقلاليون يومها قبل الإتحاديين بصدق شعور إخوانهم فى مصر نحوهم وأكد لى الكثيرون هذه الحقيقة وهم يبكون ويندمون على الفجوة التى أقامها المستعمر والتى حالت بينهم وبين إخوانهم زمنًا طويلاً..

بدء التغير

وفى جلسة طويلة فى مكتبى بوزارة الإرشاد استمرت حتى مطلع الفجر عقب انتهاء برنامج الاحتفالات، اجتمعت خلالها مع الرئيس إسماعيل الأزهرى وزميله النائب حسن عوض الله، ودار فى هذا الاجتماع أخطر حديث حول أمر العلاقات بين البلدين..

حدثنى الأزهرى طويلا عن الهجمات المريرة التى أخذت تنهال على وزارته وحزبه الإتحادى من رجال المعارضة الاستقلاليين عامة وحزب الأمة خاصة ..

حدثنى عن هجمات صحف المعارضة ضدهم واتهامهم لهم ببيع بلادهم لمصر والمصريين وتمهيدهم لاستعمار من نوع جديد.. إستعمار مصرى بعد أن أخذ الاستعمار البريطانى ينقشع ويجلو عن السودان إلى غير رجعة..

كان الأزهرى يتكلم وقلبه يكاد ينفطر من الألم.. وكان الأزهرى صادقًا تمامًا فى تصويره للموقف فى الخرطوم والحرج الذى أخذ يعانيه نتيجة للخلافات العميقة المريرة بين صفوف حزبه.. تلك الخلافات التى حدثتك عنها طويلا قبل وبعد تشكيل الحزب.

وإلى الغد حيث أكمل لك ما دار فى هذه الجلسة الخطيرة .

(٢١) أول انشقاق فى الوزارة السودانية

مشروع إتحاد جمهوريتى وادى النيل

مجلس الثورة يقر المشروع

لقاء مع القوتلى[١٧١] وحديث حول الاتحاد

حدثتك بالأمس عن اجتماعى بالرئيس إسماعيل الأزهرى فى مكتبى بوزارة الإرشاد خلال احتفالات عيد الثورة فى يولية عام ٥٤ ذلك الإجتماع الذى استمر حتى مطلع الفجر وحضره معنا النائب السودانى حسن عوض الله وهو من أقرب المقربين حتى اليوم للرئيس أزهرى ومن عمد حزبه الوطنى الإتحادى الرئيسية..

حدثنى الأزهرى عن الخلافات العميقة فى وزارته الإتحادية، وأشار بنوع خاص إلى موقف رجال الجبهة الوطنية الذين اندمجوا مع بقية الأحزاب الإتحادية فى الحزب الوطنى الإتحادى، لقد قال لى أزهرى بشكل واضح لا لبس فيه ولا غموض أن ميرغنى حمزة وخلف الله خالد لا يريدان اتحاداً مع مصر تحت أية صورة من الصور وأنهما فاتحاه فى أكثر من مناسبة برغبتهما الأكيدة فى تحقيق إستقلال كامل لا يرتبط مع مصر بأى رباط ..

استغلال التصدع

إذن لقد بدأ الانهيار فى صفوف الحزب الإتحادى وقد أخذت الخلافات بين أجنحته تنعكس على مبادئ الحزب التى وقع الجميع عليها فى وثيقة رسمية. واستغلت المعارضة هذا الموقف فأخذت تطالب الحزب الوطنى الإتحادى الحاكم بأن يعلن فورا رأيه فى الإتحاد الذى ينادى به.. أى شكل للإتحاد يقصدونه؟ وماهو هيكله وتفصيلاته؟

أخطر ثغرة!

إن المعارضة وقد لمست أخطر ثغرة فى صفوف الحزب والوزارة نفذت بقوة من هذه الثغرة وأخذت تضرب بعنف وشدة للقضاء على كيان الحزب وإخراجه من الحكم قبل تقرير المصير.

وأخذ الرأى العام فى السودان يؤيد حملة المعارضة وطلبها من الإتحاديين أن يحددوا نوع الإتحاد الذى يقصدونه.. وهذا أمر طبيعى فلا شك أن البلاد تريد أن تعرف وتناقش هذا الأمر الخطير الذى يرتبط بمستقبلها ارتباطًا وثيقًا..

نقطة مهمة أحب أن أبرزها وقد سبق أن ذكرتها لك فى بدء خطاباتى وهى أن كلمة الاستقلال التى لوثت فى الماضى وقت أن كان السودان يحكمه الإنجليز ويؤيدون استقلاله تلك الكلمة ـ أى الاستقلال ـ قد بدأت تزول عنها الشوائب بنفس السرعة التى أخذ الإنجليز يجلون بها عن السودان..

استعرض الرئيس إسماعيل الأزهرى وزميله النائب حسن عوض الله فى هذا الاجتماع كل هذه العوامل بدقائقها وتفصيلاتها ..

إيمان الأزهرى بالاتحاد

ولم ينس الرئيس أزهرى أن يؤكد لى إيمانه العميق وكل رجاله الملتفين حوله بالإتحاد الكامل مع مصر.. كما أوضح لى خطأ فكرة قيام الحزب الموحد الذى جمع شتات كل الأحزاب الإتحادية، إذ أن بعض العناصر التى لا تؤمن إيمانا كاملا بالإتحاد قد دخلت صفوف الحزب الإتحادى وعلى رأسهم رجال الجبهة الذين يسببون له أشد المتاعب الآن برفضهم فكرة الإتحاد.. بعد أن خاض الحزب معركة الإنتخابات ووصل الحكم على أساس مبدأ الإتحاد.. وهذا الفريق المنشق على مبدأ الحزب يتقلد وزارات الزراعة والرى والأشغال والدفاع. ظللت أستمع للرئيس أزهرى وهو يشرح الموقف أكثر من ثلاث ساعات دون أن أنطق بحرف واحد.. وفى ختام حديثه سألته عما يطلبه منى فى هذه الظروف..

الحل السعيد!

وهنا طلب منى أن أكلف بعض رجال القانون المصرى من المتخصصين فى الدساتير وصياغتها لكى يعدوا له بعض الأبحاث عن أنواع الإتحادات التى يمكن أن يقوم أحدها بين البلدين لمعاونة رجال حزبه فى بحثهم للإهتداء إلى الحل السعيد الموفق الذى يمكن أن تجتمع حوله كلمتهم.

وعدته بتجهيز ما طلبه خلال أيام قليلة وإعطائه لزميله النائب حسن عوض الله الذى وعد بالانتظار فى القاهرة حتى يتسلمه..

وفى اليوم التالى بدأت أجتمع ببعض رجال القانون ممن يعملون معى فى الوزارة وأعاننى نائب الوزير عبد الفتاح حسن ببعض الأبحاث التى ناقشها مع بعض الفقهاء القانونيين كما اتصلت ببعض المهتمين بهذه القضية من المصريين وأذكر منهم الأستاذ مصطفى مرعى(١٧٢) الذى أمضيت معه ليلة أتحفنى خلالها بأفكاره السليمة ومنطقه البليغ وعلمه الغزير..

قرأت عشرات الأبحاث

تجمعت أمامى عشرات الأبحاث حول أنواع الإتحادات التى قامت بين الشعوب فى أجزاء مختلفة فى العالم .. قرأت نظام الإتحاد السوفيتى.. وإتحاد الولايات المتحدة الأمريكية.. وإتحاد النمسا والمجر.. واتحاد إندونيسيا.. وإتحاد يوغوسلافيا.. ونظام الكومنولث(١٧٣) .. إلى غير ذلك من الأنظمة الإتحادية..

اتحاد لا يقبله الاتحاديون!

خرجت بنتيجة مهمة من قراءاتى.. وهى أن بحثًا واحدًا من كل هذه الأبحاث لا يمكن أن يقبله الحزب الوطنى الإتحادى كأساس للعلاقات بين البلدين إزاء الخلافات العميقة بين أجنحته وقيام أحد هذه الأجنحة بالدعوة فجأة للإستقلال دون الإتحاد.. وكذلك بالنسبة لشدة هجمات المعارضة التى تحاول أن تصور الإتحاد على أن فيه إفناء لشخصية السودان وطغيانًا من جانب مصر القوية على السودان الضعيف فى كل أمر من الأمور..

لا بد من وضع مشروع يقوم على مبدأ التكافؤ المطلق بين البلدين فى كل حلقة من حلقات الإتحاد المقترح حتى لا يستشعر السودانيون بحساسية قد تهدم وتدمر كل شئ.. كما يجب أن يحفظ المشروع كيان السودان واستقلاله فى كل الأمور التى تهمه وحده ولا صلة لها بمصر.. وبمعنى أصح يجب أن نبحث عن نوع من الإستقلال الإتحادى بين البلدين..

اهتديت إلى أسس لمشروع إتحاد يمكن أن يقف فى وجه كل حملة توجه ضده.. ولا شك أن أى مشروع من هذا القبيل يجب أن يكون مقبولاً فى نفس الوقت من مصر إذ أن الإتحاد سيكون برضاء الطرفين رضاء كاملاً.. ولا يعتبر حتى فى هذا الأمر من قبيل التدخل فى شئون السودان كما كانت تتهمنى المعارضة السودانية دائمًا..

.. عرضت المشروع على مجلس قياة الثورة

عرضت هذا المشروع المقترح على مجلس قيادة الثورة الذى طلبت إجتماعه خصيصا لمناقشته وإقراره فى جلسة خاصة تمت فى منزل الرئيس جمال عبد الناصر فى الأسبوع الأول من أغسطس عام ٥٤ وحضر هذا الإجتماع كل أعضاء مجلس قيادة الثورة..

وبعد نقاش طويل استمر حتى الساعة الرابعة صباحًا وافق المجلس بالإجماع على المشروع الذى قدمته لهم وخولنى المجلس حق التفاهم مع الإتحاديين فى السودان حول أسس هذا المشروع..

فى صباح اليوم التالى، اجتمعت مع الأستاذ حسن عوض الله نائب أم درمان وزميل الأزهرى والذى أصبح بعد شهور من هذا الوقت وزيرًا للزراعة فى السودان.. اجتمعت به وتناقشت معه حول هذا المشروع المقترح. ووعد بنقل تفصيلاته إلى الرئيس الأزهرى فور وصوله إلى الخرطوم .

نص المشروع

وإليك نص هذا المشروع الذى أنشره الآن لأول مرة..

أولا: يقوم إتحاد وادى النيل .

ثانيًا: يشتمل هذا الإتحاد على جمهورية مصر العربية وجمهورية السودان.

ثالثًا: يكون للجمهورية السودانية تمامًا كمصر رئيس للجمهورية ومجلس وزراء وبرلمان سودانى وجيش سودانى مستقل. وتحتفظ كل جمهورية بجيشها فى حدودها وقت السلم. أما وقت الحرب فهذه الأمور تتبع لظروف القتال وميدانه، فقد تأتى الجيوش السودانية إلى الأراضى المصرية أو يحدث العكس.

للاتحاد رئيس أعلى

رابعًا: وللإتحاد رئيس أعلى يكون خلال الدورة الأولى سودانيًا ينتخبه البرلمان السودانى، وفى الدورة التالية مصريًا ينتخبه البرلمان المصرى وهكذا.. مرة مصريا وأخرى سودانيًا. ويكون لهذا الرئيس الأعلى للإتحاد سلطات رمزية ينص عليها فى كل من الدستورين المصرى والسودانى.. كما ينص عليها فى دستور الإتحاد أو الدستور المشترك.

خامسًا: يوضع هذا الدستور المشترك بالإتفاق بين الجمهوريتين.. هذا الدستور الذى ينظم السياسة العليا للجمهوريتين فى الأمور المشتركة بينهما كالسياسة الخارجية وسياسة الدفاع وتنسيقه وأى أمور أخرى يتفق عليها كالمياه والسياسة الإقتصادية.. إلخ .

مجلس الاتحاد الأعلى

سادسًا: يشرف على تنسيق وتقرير أسس المصالح المشتركة بين الجمهوريتين والتى جاءت فى الدستور المشترك.. مجلس أعلى.. يسمى مجلس الإتحاد الأعلى يشكل على مستوى وزراء.. يختار نصفهم من السودانيين.. ونصفهم من المصريين، ويرأس هذا المجلس الإتحادى مصرى إذا كان رأس الإتحاد الأعلى سودانيًا وبالعكس..

برلمان اتحادى

سابعًا: يشرف على أعمال هذا المجلس ألإتحادى الأعلى ويحاسبه ويوجهه ويناقشه ويعزل أعضاءه فى حالة سحب الثقة.. برلمان ثالث صغير يسمى برلمان الإتحاد وهو غير البرلمانين المصرى والسودانى.. نصف هذا البرلمان الإتحادى من المصريين والنصف الآخر من السودانيين.

وقد راعيت عند وضع هذا المشروع الذى يقيم رباطا دستوريا بين البلدين، راعيت فيه الإستقلال الكامل والسيادة الكاملة لكل من البلدين مع تنسيق المصالح العليا المشتركة على قدم المساواة حتى تسير الجمهوريتان فى طريق واحد.. ويطمئن السودان على المشاركة والإشراف على مصالحه وشئونه بنفس القدر الذى تطمئن فيه مصر على مصالحها وشئونها.

كما نص المشروع المقترح على أن لكل من الجمهوريتين فى الإتحاد حق فصم هذا الرباط الدستورى بعد وقت يمكن تحديده بعد تجربته إذا ما رأت إضرار هذا الرباط بمصالحها ومستقبلها.. ولكن يجب أن يتم هذا الفصل عن طريق إستفتاء شعبى..

هذا هو الإتحاد الذى أقرته مصر الثورة.. وقدمته إلى الحزب الوطنى الإتحادى وهى تعلم أن هذا المشروع سيسلبها أمورًا عديدة تتصرف هى الآن فيها بمحض إختيارها.. فمثلا سياستنا الخارجية الآن ترسم فى القاهرة وتنفذ دون الرجوع إلى أحد فى حالة الإتحاد ،لا تستطيع مصر أن تبرم أمرًا من أمورها الخارجية دون أن يقره مجلس الإتحاد الذى يشترك فيه السودانيون مع المصريين على قدم المساواة تمامًا.. وهكذا ..

التاج المصرى

وأحب أن أسجل هنا الفارق بين هذا المشروع والمشاريع الإتحادية التى قامت على أساسها الأحزاب السودانية فى الماضى والتى قبلت تاج مصر مدى الحياة وتوحيد السياسة الخارجية والدفاع والنقد.. وبعضها أقر توحيد الجيوش..

احترام الشعوب

فى حين أن المشروع الجديد يجعل أمر السيادة على جمهوريتى النيل مرة فى يد السودان وأخرى فى يد مصر، وهذه هى الفلسفة التى انتهجتها الثورة والتى قامت على أساس إحترام إرادة الشعوب والمساواة المطلقة بينها فى كافة الأمور دون نظر إلى حجم الدولة أو قوتها أو إمكانياتها.. إلخ .

اتحاد آخر

وبهذه المناسبة أحب أن أشير إلى إتحاد من نوع آخر، إتحاد لم ترسمه مصر، ولكن رسمه ووضعه زعيم عربى عزيز، كافح طويلاً وعمل طويلا فى سبيل قيام إتحاد بين كافة دول العرب وأجزاء شعب العرب العريق، ولا زال حتى الآن يكافح ويناضل فى سبيل تحقيق هذه الأمنية العزيزة لخير البلاد العربية جمعاء.

إنه زعيم لم يتعرض للحساسية التى طغت على نفوس الكثيرين من أشقائنا فى الجنوب ، إنه الزعيم شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية الشقيقة..

كان يومها يقيم فى ثغر الأسكندرية، وكنت أتشرف بلقائه بين وقت وآخر لأنهل من خبرته ومن وطنيته ومن إيمانه، وكان ذلك فى نفس الوقت أى فى منتصف عام ٥٤ إجتمعت مع فخامته على مائدته فى منزله العامر..

ماذا قلت له وماذا قال لى فخامته.. هذا ما سأوضحه لك فى الغد إن شاء الله..

الهوامش

(١٧١) شكرى بن محمود بن عبد الغنى القوتلى (٢١ أكتوبر ١٨٩١ ـ ٣٠ يونيو ١٩٦٧) زعيم عربى ورئيس سورى مرتين، من ١٩٤٣ ـ ١٩٤٩، ومن ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨، حكم عليه بالإعدام ٢ مرات نجا منها كلها. يُعد واحدًا من أبرز دعاة الوحدة العربية فى العصر الحديث، كان عضوًا من المنتدى الأدبى، وهو أحد المنادين بالتحرر فى العالم العربى، وقادة حركة المقاومة ضد الاستعمار الأجنبى فى العالم العربى وهو أول رئيس عربى تنازل عن الحكم طواعيه، وبملء إرادته لرئيس آخر وذلك عام ١٩٥٨، وتنازل آنذاك للزعيم العربى جمال عبد الناصر وذلك من أجل وحدة سوريا مع مصر والتى كان أحد أبطالها وتعد من أهم إنجازاته كرئيس اتفق القوتلى مع رئيس الجمهورية المصرية جمال عبد الناصر على توحيد القطرين سوريا ومصر، وتسميتها الجمهورية العربية المتحدة وتنازل لجمال عبد الناصر باختياره عن الرئاسة. سمى "المواطن العربى الأول" فى زمن الوحدة التى أعلنت فى فبراير ١٩٥٨، لكنها أنتهت إلى الإنفصال فى سبتمبر عام ١٩٦١، عبد الوهاب الكيالى: مرجع سابق، جـ ٣ ص ٤٨٨.

(١٧٢) تخرج من كلية الحقوق عام ١٩٢٢ وكان ترتيبه الثالث، أقام نظام القضاء المستعجل وأخرج للمكتبة القانونية وهو لم يصل بعد إلى الثالثة والثلاثين من عمره كتابه الصافى فى المسئولية المدنية وصل مرعى عام ٤٦ إلى مستشار بمحكمة النقض ثم رئيسًا لهيئة قضايا الدولة وفيها كان يتولى المرافعة بنفسه فى القضايا ثم عين وزيرًا فى وزارة المرحوم إبراهيم عبد الهادى باشا وفى وزارة حسين سرى باشا، وهو صاحب استجواب الأسلحة الفاسدة.

(١٧٣) ظهر مصطلح الكومنولث (بالإنجليزية: Commonwealth) فى القرن الخامس عشر وهى كلمة أصلها بمعنى الثروة المشتركة (بالإنجليزيةCommon - wealth) أو الرخاء الجماعى (بالإنجليزية The Common - weal) من المعنى القديم لكلمة ثروة (بالإنجليزية: Wealth) التى تعنى السعادة أو الرخاء (بالإنجليزية Well - being). ويعنى المصطلح حرفيا الرخاء الجماعى. ولذلك فإن مصطلح الكمنولث يُطلق على دولة أو دولة يحكمها الشعب من أجل الشعب على عكس الدولة السلطوية التى تحكم من أجل طبقة معينة من الملاك. ولكن فى الوقت الحاضر فالمصطلح أكثر عمومية ويعنى تجمع سياسى (من أكثر من دولة).. قاموس أوكسفورد الإنجليزية.

&query - type - word?http:// dictionary.oed.com/ الطبعة ٢ ،1989. dictionary.oed.com)
cgi/entry/5005157.

&sort - type - alpha&max - to - show= 10&first= 1&queryword = commonwealth
hilite 50045157= & - search - id 1 = hrov iy VOEE - 153 = result - place

(٢٢) مشروع القوتلى الاتحادى

سلطات الأردن تمنع نجدة الفالوجا

رئيس مجلس الشيوخ السودانى يحمل رسالة خطيرة

الأزهرى وزملاؤه يقسمون على تبنى مشروع الاتحاد

حدثتك بالأمس عن مشروع الإتحاد الذى قدمته للرئيس إسماعيل الأزهرى بناء على طلبه.. ذلك المشروع الذى أقره مجلس قيادة الثورة ووافق على قبوله كأساس للعلاقات بين مصر والسودان إذا قبله الجانب السودانى.

حدثتك عن تفصيلات هذا المشروع الذى يحمل المساواة بكل معانيها فى كل فقرة من فقراته بين مصر والسودان.. وختمت حديثى معك بالأمس بمقابلتى مع الرئيس شكرى القوتلى وكان ذلك فى أغسطس عام ٥٤ فى منزله بالإسكندرية وكانت هذه المقابلة قبيل إنتقال فخامته إلى دمشق عندما إنتخب رئيسًا للجمهورية السورية بوقت قصير.

كوارث تهدد العالم العربى

أخذ الرئيس القوتلى يتحدث بمرارة عن الظروف والأحداث والفتن والمؤامرات التى تحيط بالعالم العربى من كل جانب وتهدده بكوارث قد تتضاءل بجوارها كارثة فلسطين.. حدثنى عن حرب فلسطين فى هذه الجلسة حديثًا مطولاً وكان فخامته وقت هذه الحرب رئيسًا للجمهورية فى دمشق. وشرح لى الإجراءات التى أمر باتخاذها لنجدة القوات المصرية المحاصرة فى الفالوجا، وعن الإمدادات السورية التى عبرت الحدود الأردنية لكى تصل إلى قطاع القوات المصرية

وتساهم فى عملية الإنقاذ.. وأخذ يوضح لى كيف أوقفت هذه الإمدادات فى الأردن ولم تسمح لها السلطات الأردنية فى ذلك الوقت بعبور الأراضى الأردنية إلى منطقة الخليل المواجهة للفالوجا ..

مسئولية العرب

كان فخامته يتكلم وقلبه يكاد ينفطر وأعصابه تهتز من فرط الألم.. الألم على الأوضاع التى وصلنا إليها.. والألم من المستقبل المظلم الذى ينتظرنا إذا ظلت أحوالنا كما كانت فى الماضى.. ولا زالت كلماته ترن فى أذنى وأنا أكتب هذه السطور.. وصورة فخامته وهو من أشد حالات الإنفعال وهو يحدثنى عن آلامه وآماله عن الماضى والحاضر والمستقبل.. ولا أنسى قوله لى "يا سيدى.. لقد تعودنا أن نلوم الإنجليز وغير الإنجليز كلما حلت بنا مصيبة أو أصابتنا هزيمة أو تعثرت خطانا .. وأنا لا أنكر مسئولية الإنجليز وغيرهم فى المحن التى حلت بنا، ولكن لا ننسى أننا العرب زعماء وشعوبا مسئولون أيضًا عن كل ذلك.. ماذا ننتظر من دول عربية هذه هى حالها من الفرقة والإنقسام.. والعدو رابض فى الداخل ويحيط بها من كل جانب.

الاتحاد الكامل.. وإلا الكوارث

ياسيدى أنا أنذر.. أنذر الأمة العربية بأوخم العواقب وبأشد الكوارث التى تتضاءل بجوارها كارثة فلسطين إذا لم يحققوا الإتحاد الكامل فيما بينهم.. يجب أن يتحقق الإتحاد بأى شكل وبأى ثمن..

مشروع اتحاد الأمة العربية

صمت فخامته قليلاً وأخذ يستجمع شتات فكره فى غمرة إنفعاله وحماسه.. وقام وغاب عن الغرفة التى كنا نجلس فيها.. وعاد بعد لحظات وفى يده ورقة صغيرة واسترسل فخامته قائلا: حاولت بالأمس أن أضع مشروعًا للإتحاد بين الدول العربية.. مجرد أفكار يمكن أن تكون أساسًا للتفاهم والبحث الجدى بين الحكومات العربية.. لا يعنينى أن يقال عن هذا المشروع أنه مشروع القوتلى..

خذوه وفكروا فيه وابحثوه.. كل ما يهمنى هو أن يتحقق هذا الحلم وهذا الأمل.. أيا كان الرجل الذى سينفذه.. ونحن جميعا مستعدون للسير خلفه إلى النهاية وسنعترف له إذا ما نجح فى تحقيقه بالزعامة علينا جميعاً.. خير لنا يا سيدى أن نكون فى ذيل أمة قوية متحدة من أن نكون على رأس دولة منهارة مفككة محطمة.

وعاد يقول: وإنى أشعر بأن العبء الأكبر فى هذا الواجب يقع على عاتق مصر.. فمصر هى التى تستطيع أن تتبنى المشروع وتدفعه، فأنتم نصف العرب، لا شك فى ذلك وكل أملى يتجسم فيكم..

تمسك القوتلى بالمشروع

إن شكرى القوتلى لم يقل هذا الكلام لأنه كان فى ذلك الوقت خارج الحكم، بل إن هذا الزعيم العربى - يؤمن بكل كلمة قالها وبكل حرف نطق به.. إنى أذكر تصريحاته منذ أسابيع فى دمشق قال : "إنى أؤيد فكرة الإتحاد بين الدول العربية، وإنى لعلى أتم استعداد لأن أكون أول من يتنازل عن منصبه إذا ما استدعى تنفيذ مشروع الإتحاد ذلك".

نص المشروع

لقد قام مشروع القوتلى الذى خطه فى ورقة صغيرة وحدثنى عنه يوم لقائنا فى الإسكندرية على الأسس التالية:

تبقى كل دولة عربية بأوضاعها الحالية، فالدولة الجمهورية تظل جمهورية، والدولة الملكية تظل ملكية، ويقوم مجلس إتحاد أعلى للدول المنظمة للإتحاد، ويمثل هذا المجلس الذى يتم تشكيله على مستوى وزراء، يمثل كل الدول المتحدة على قدم المساواة .

وواجبات هذا المجلس رسم خطط الدفاع والسياسة الخارجية والإقتصاد، وقراراته ملزمة، ويمكن إدماج السلك السياسى فى الخارج لكافة الدول المتحدة فى جهاز واحد، فلا داعى لأن يكون لنا فى لندن مثلا ممثل لسوريا وآخر للبنان وثالث لمصر ورابع للأردن وهكذا..

كما يقوم فى نفس الوقت برلمان إتحادى يشرف على أعمال هذا المجلس الإتحادى التنفيذى ويحاسبه ويناقشه، وتمثل الدول المنضمة للإتحاد فى هذا البرلمان بنسبة نائب واحد عن كل مليون نسمة، على ألا يزيد نصيب كل دولة فى البرلمان عن عشرة نواب ولا يقل عن ثلاثة..

وشرح فخامته هذه النقطة فقال: "إنه ليس من العدل فى شئ أن تمثل مصر فى هذا البرلمان وتعدادها٢٢ مليون نسمة، بنفس العدد الذى تمثل فيه دولة أخرى تعدادها مليون أو مليونان مثلاً. كما أن تحديدى لأقصى عدد وأقل عدد قصدت به تقريب الفروق بين الدول".

رأى السودان..

وبعد أن أكمل فخامته شرح هذا المشروع سألنى عن مدى قبول إخواننا السودانيين لمثل هذا المشروع الإتحادى.. فضحكت وأخذت أسرد لفخامته مدى العقد والحساسية التى إنتابت فريقًا كبيرًا من أهل السودان بعد أن وضع الإستعمار أكثر من إسفين وأكثر من عقدة بين البلدين طوال نصف قرن حتى يطيل بقاءه فى وادينا، وبالتالى يطول بقاء المستعمر لمعظم أرجاء القارة الأفريقية التى أصبحت موطنه الأخير بعدما إنقشع استعماره من معظم أرجاء العالم.. كما شرحت لفخامته مشروع مصر الذى قدمته للرئيس إسماعيل الأزهرى والذى وضع على أساس المساواة المطلقة فى كل شئ دون النظر إلى تعداد السكان أو أى عامل آخر.

وهنا قال الرئيس القوتلى :"إن كل الشعوب العربية تؤمن بالإتحاد، وإذا تمكنا من جمع شملنا وتألف هذا الإتحاد فسيطلب شعب السودان بمحض اختياره الدخول فى هذا الإتحاد مهما كانت العوامل التى حدثتنى عنها".

أعود إلى الحزب الوطنى الإتحادى فى السودان وأقول أن هذا الحزب بعد فوزه فى معركة الإنتخابات وتوليه زمام الحكم فى الخرطوم بدأت صفوفه تنهار، ولم يشأ الله سبحانه وتعالى أن تستمر المعجزة.. معجزة إئتلافهم وإتحادهم التى تمت فى سبتمبر ٥٢ فى فندق سميراميس فى القاهرة..

دخلت عوامل جديدة ساعدت على إحياء الشقاق العنيف القديم .. منها المناصب الوزارية والسلطات والإختصاصات ومشاكل الحكم .. ففقدوا الهدف الذى قامت وحدتهم من أجله والدستور الذى وقعوه يوم إعلان حزبهم . فما كان من المعارضة إلا أن إستغلت هذا الوضع وأخذت تدق بقوة ونفذت خلال الثغرات الكثيرة فى صفوفهم ..

اقتناص الفرصة

مضى شهر أغسطس وأعقبه سبتمبر والأحوال على هذا الوضع فى الخرطوم وما أن جاء شهر أكتوبر فى عام ١٩٥٤ إلا وأخذت الأمور تتطور بسرعة مذهلة والأحداث تتوالى وشعرت المعارضة أن الوقت قد حان لكى تقذف بالحزب الوطنى الإتحادى خارج الحكم لتتسلم التركة.. وأخذ موعد تقرير المصير يقترب بسرعة، خاصة وأن الإنجليز أسرعوا فى ترك وظائفهم والخروج من السودان قبل الموعد الذى حددته الإتفاقية .

لم يعد الإنجليز فى حاجة إلى إطالة بقائهم فى البلاد.. فالخلافات بين الأحزاب وداخل الأحزاب تؤدى نفس الدور المفروض عليهم أن يؤدوه لإمبراطوريتهم.

وفى أوائل هذا الشهر، أى أكتوبر ٥٤، أى بعد أقل من ثلاثة شهور منذ أرسلت للرئيس الأزهرى بمشروع الإتحاد الذى طلبه.. وصل إلى القاهرة فجأة رئيس مجلس الشيوخ السودانى فى ذلك الوقت وهو السيد أحمد محمد يس، وسيادته الآن عضو فى مجلس السيادة الذى يمثل رأس الدولة منذ إعلان الإستقلال.

رسالة شفوية

زارنى فور وصوله فى مكتبى بوزارة الإرشاد وعلمت من سيادته أنه وصل إلى القاهرة ليقوم أساسا بواجب السؤال عن صحة الزعيم السيد على الميرغنى والذى كان فى ذلك الوقت يحل ضيفا على مصر وينزل للإستشفاء فى مستشفى المواساة بالإسكندرية.. كما أبلغنى سيادته أنه يحمل رسالة شفوية لى من الرئيس

إسماعيل الأزهرى.. وكان السيد أحمد محمد يس من أقرب الرجال للرئيس أزهرى ومن أعضاء حزبه القديم وهو حزب الأشقاء ولكن منذ إنتخابه رئيسًا لمجلس الشيوخ أصبح لزاما عليه أن يبعد عن النشاط الحزبى وينتهج أسلوب الحياد بين الأحزاب ومبادئها وخلافاتها.

وهذه هى الرسالة التى نقلها لى سيادته عن الرئيس الأزهرى.

الاتحاد حتى الممات

"إن الرئيس الأزهرى قد إجتمع بأقطاب حزبه من الأشقاء - وهم العنصر الغالب فى الحزب الوطنى الإتحادى وفى مجلس الوزراء - عدة مرات فى إجتماعات خاصة فى منزل السيد مبارك زروق وزير المواصلات فى ذلك الوقت ووزيرخارجية السودان الآن، وأنهم قد استعرضوا ودرسوا مشروع الإتحاد الذى حمله لهم النائب حسن عوض الله والذى وافق عليه مجلس قيادة الثورة، والرئيس أزهرى يبلغك بأنهم قد قبلوا جملة وتفصيلاً هذا المشروع بعد أن بحثوه طويلاً وبترو.. وأنهم قد تبنوه عن صدق وإيمان، كما يبلغك بأنهم تعاهدوا جميعًا فيما بينهم وأقسموا على كتاب الله على أن يعملوا بكل ما يملكون من قوة وطاقة وأن يكافحوا ويذودوا عن هذا المروع حتى الممات..

الخوف من فقد الأغلبية

ويرى الرئيس أزهرى وإخوانه تأجيل عرض المشروع على هيئة الحزب العامة حتى لا ينتهز جناح الجبهة الوطنية الذى يمثله فى الوزارة الوزراء ميرغنى حمزة وخلف الله خالد وأحمد جيلى الفرصة ويعلنوا إنشقاقهم وخروجهم من صفوفه وربما يؤدى هذا إلى فقدان الحزب لأغلبيته البرلمانية التى إنكمشت إلى ثلاثة أو أربعة أصوات.. خاصة والمعارضة قد نشطت إلى حد خطير مستغلة أمر الخلاف بين أجنحة الحزب الإتحادى المختلفة..

الخطأ العظيم

واستمر السيد أحمد يس يشرح لى رسالة الرئيس أزهرى الخطيرة الشفوية

وأخذ يقول "إنه كان خطأ عظيما قبولنا رجال الجبهة هؤلاء فى صفوف الحزب الإتحادى عند تشكيله لأنهم لا يؤمنون بعمق بمبدأ الإتحاد.. أما جناح نور الدين فرغم المتاعب التى يسببها للأزهرى فإن أزهرى يطمئن إلى سلامة إتحادية نور الدين ورجاله.. واستمر يقول: "أنه أى أزهرى يقول لك أنه سيعمل جاهداً على تنظيم صفوف الحزب فى أقرب وقت مستطاع ليعرض على هيئته العامة هذا المشروع الذين آمنوا به جميعا وعاهدوا الله على العمل فى سبيل تحقيقه".

الذين أقروا المشروع

سألته عن الأقطاب الذين أقروا هذا المشروع فذكر لى الأسماء التالية: أزهرى، حسن عوض الله ،على عبد الرحمن وزير العدل فى ذلك الوقت، يحيى الفضلى وزير الشئون الإجتماعية، مبارك زروق وزير المواصلات، محمد أحمد المرضى وزير الحكومات المحلية. وهذه الأسماء تمثل حزب أزهرى فى داخل الحزب الوطنى الإتحادى ولهم الكلمة الأولى فى الوزارة والحزب لأغلبيتهم على بقية الأجنحة..

وختم السيد أحمد يس رسالة أزهرى قائلا: "إنى أخطرك بما قاله أزهرى لأوصله لك حرفيًا فى نهاية رسالته.. قال أزهرى بالحرف الواحد: لما الواحد ينوم "أى ينام" ويفكر فى شئ أكرم وأحسن من هذا المشروع لما يمكنه ذلك بحال من الأحوال.. أين هذا المشروع الذى يحمل المساواة مع مصر العظيمة حتى فى رأس الدولة من مشاريعنا القديمة وسلب الكثير من الأمور من يدنا ووضعها فى يد مصر!!

والى الغد.

(٢٣) الحزام الأفريقى وحلف بغداد

خطة الغرب لعزل مصر عن المنطقة

الوزراء الجنوبيون يستنجدون بى

إنذار الجنوبيون لحكومة الأزهرى

تفصيلات أخطر أزمة واجهت الحكم الوطنى فى الخرطوم

حدثتك عن موافقة الرئيس إسماعيل الأزهرى وزملائه على مشروع الإتحاد الذى وضعته مصر وقدمته له بناء على طلبه.. تلك الموافقة التى وصلتنى فى أكتوبر عام ٥٤ عن طريق رئيس مجلس الشيوخ السودانى الذى كلفه الأزهرى بأمر إبلاغها لى..

وفى نفس هذا الوقت كانت الأخطار التى تحيط بوزارة إسماعيل الأزهرى قد بلغت ذروتها.. فثلاثة من وزرائها قد أعلنوا الحرب على أزهرى وزملائه جهارًا نهارًا وأخذت الصحف تخرج كل يوم تفيض فى وصف هذا الشقاق وتحلله.. وأخذ الوزراء يطوفون فى الأقاليم ويهاجم بعضهم بعضًا فى الخطب السياسية والندوات الحزبية والمعارضة قد شمرت عن ساعدها ووضعت الوزارة فى مأزق حرج بمطالبتها بتوضيح نوع الإتحاد الذى تهدف إليه حتى يكون الشعب على بينة من أمره ..

ناقوس الخطر

وفجأة فى هذا الجو المشحون بالمشاكل والمصاعب دق الجنوبيون ناقوس الخطر وحدثت أول أزمة بين الشمال والجنوب.. تلك الأزمة التى بدأت فى داخل

اجتماعات مجلس الوزراء وأخذ أثرها ينعكس على طبقة المثقفين خريجى الإرساليات فى جميع أنحاء الجنوب..

قدم الوزراء الجنوبيون فى الوزارة وهم فى نفس الوقت أعضاء فى الحزب الوطنى الإتحادى قدموا طلبات محددة لمجلس الوزراء تدور حول تمكين الجنوبيين دون الشماليين من الوظائف الرئيسية فى أنحاء الجنوب: طالبوا بأن يكون مديرو المديريات الجنوبية من صفوف الجنوبيين وكذا وظائف الإدارة والبوليس والجيش.

انسحاب..

وقد سحب تقديم هذه الطلبات ضغط شديد على الحزب الإتحادى الذى كان لا يملك أغلبية فى مجلس النواب تزيد عن أربعة أصوات.. فقد إجتمع الوزراء الجنوبيون الثلاثة وهم بولين ألير، وداك داى، وسانتينو دنج، ببقية نواب الحزب الإتحادى الجنوبيين وهم ١١ نائبًا وإتفق جميعهم على الإنسحاب من الحزب الوطنى الإتحادى إذا لم يقبل مجلس الوزراء الطلبات التى تقدم بها وزراؤهم، ومعنى هذه الخطوة سقوط الحكومة وإعادة تشكيلها من صفوف المعارضة الإستقلالية .

خليفة الأزهرى

وفعلاً تهيأ حزب الأمة لتولى زمام المواقف وأخذ الناس يتحدثون فى شوارع الخرطوم وأم درمان فى أسماء الوزارة المقبلة، وأجمع الكل على أن عبد الله خليل سكرتير عام حزب الأمة سيكون خليفة إسماعيل الأزهرى بلا منازع فى رئاسة الوزارة..

موقف لا يحسد عليه

وأصبح موقف الأزهرى وحكومته المنشقة على بعضها لا يحسد عليه، فإن هى استجابت لرغبة نوابها ووزرائها الجنوبيين، عرضت قوانين الخدمة المدنية بل والإدارة كلها فى البلاد لإنهيار كامل لا يعلم مداه إلا الله.. إذ أن الجنوب ينقصه

الرجال المؤهلون لتولى مثل هذه المناصب الكبرى التى يطالبون بها نتيجة حرمانه من التعليم أجيالا عديدة.. وإن رفضت الوزارة هذه المطالب فقدت ١١ نائبًا وخرجت من الحكم فى أدق فترة فى تاريخ السودان الذى أخذ يتهيأ لتقرير المصير..

أما أن دستور السودان يحتم تمثيل الجنوب فى مجلس الوزراء بوزيرين جنوبيين على الأقل، فإن إستقال الوزراء الجنوبيون ورفض زملاؤهم النواب الدخول فى الوزارة تحتم على الوزارة أن تستقيل حتى ولو كانت تملك الأغلبية فى البرلمان..

الحزام الأفريقى

وفى زحمة هذه الحوادث، برز فى أفق السودان مشروع خطير، أطلق عليه واضعوه اسم "الحزام الأفريقى". فى نفس الوقت الذى أخذ "حلف بغداد" أو الحزام الشمالى يطل برأسه فى عاصمتى العراق وتركيا.. فنشط عملاء الغرب نشاطا لا حد له فى الخرطوم يبشرون بهذا المشروع الخطير، وعاونهم فى هذه العملية مكاتب الإتصال الأجنبية التى تمثل الدول التى تسير فى ركاب الغرب.. والخرطوم عاصمة غريبة الأطوار ولا يمكن أن يخفى فيها سر واحد.. يكفى أن تقف فى أحد الشوارع أو حتى فى غرفة فى أى منزل من المنازل لتتحدث عن أمر من الأمور لتجده بعد لحظات على لسان كل مواطن فى أرجاء العاصمة المثلثة.

وهذا المشروع عبارة عن حلف غربى يراد به ضم الحبشة والسودان وساحل الذهب وربما نيجيريا فى المستقبل إلى حظيرة الدول التى تشكل سلسلة أحلاف الغرب.

حزامان للضغط على مصر

حزام جنوب مصر مباشرة وحزام شمالى أريد به أن يضم الدول العربية كلها تحت قيادة نورى السعيد ومندريس[١٧٤].. ولا يعنى هذان الحزامان أو الحلقان إلا نتيجة واحدة.. إما أن تنعزل مصر كلية عن كل الدول والمحيط الذى تعيش فيه.. أو ترضخ للأحلاف وتسلم نهائيا بمطالب الغرب وأهدافه وسياسته..

نشطت سفاراتنا ومخابراتنا ونجحت فى جمع كل تفصيلات ودقائق هذا المشروع الأفريقى الجديد.

مخاوف..

أترك مؤقتًا هذا المشروع وظروفه وتطوراته لأعود بك إلى وزارة الأزهرى التى أخذت تترنح تحت الخبطات الرهيبة الموجهة ضدها من خارج صفوفها ومن داخلها. وقد أثار موضوع الخلاف بين الجنوبيين والحكومة مخاوفى لحد بعيد، إذ كان كل مشفق على مستقبل السودان ينتابه الذعر كلما أطل خلاف بين الشمال والجنوب وخاصة فى مثل هذه المرحلة.. إذ أن أى خلاف من هذا القبيل يمكن أن يقود بسهولة ويسر إلى تدمير البناء الذى تم تشييده وتدمير كل الخطوات التى أتخذت وكادت تخرج الإنجليز كلية من البلاد.

ماذا يحدث لو استخدم الحاكم العام سلطاته فى إعلان حالة الطوارئ أو حالة الإنهيار الدستورى لو ترتب على هذا النزاع مقاطعة نواب الجنوب كلهم للبرلمان.. لن تكون النتيجة سوى إيقاف تطبيق الدستور وإيقاف خطوات الإتفاقية التى تنظم إخراج الإنجليز وتسليم الحكم المطلق مرة أخرى إلى الحاكم العام ومستشاريه البريطانيين.

خطابان من الجنوب

وفى منتصف إحدى ليالى شهر أكتوبر هذا.. وصلنى خطابان بالبريد الجوى من وزيرين جنوبيين.. وقد أوضح الوزيران فى خطابيهما دقائق المشكلة بينهما وبين الحكومة كما أوضحا صيغة الإنذار النهائى الذى إتفقا مع زملائهما على تقديمه وحددا فيه يومين للرد على المطالب..

مخاوفهم من الشماليين

قد تندهش من إلتجاء وزراء جنوب السودان إلى فى مثل هذه الأمور الداخلية البحتة..

ولكن منطقهم كما جاء فى خطاباتهم الموجهة لى كان يدور حول تحميلى مسئولية الوضع الذى وصلوا إليه.. ذكرونى برحلتى الأولى فى الجنوب التى قمت بها فى ديسمبر عام ٥٢ قبل إمضاء الإتفاقية.. والتى أقنعتهم خلالها بضرورة العمل فى نطاق وحدة السودان بعد أن كانوا يؤمنون بقيام كيان ذاتى بتشجيع الإنجليز الحاكمين فى ذلك الوقت.. هؤلاء الذين ملأوا قلوبهم رعبًا من الشمال والشماليين وقالوا لهم أن الإنضواء تحت حكم الخرطوم لن تكون له نتيجة سوى استعبادهم وإذلالهم.. وعلى ذلك فأنا مسئول عن وضعهم وغبنهم هذا علما بأنهم ما قبلوا الإتفاقية إلا لوثوقهم فى كلامى الذى دار حول مساواتهم بالشماليين وفتح الباب للوصول إلى أعلى المراكز ..فأين هى هذه المراكز والمناصب التى وعدتهم بها؟

مسئوليتى..

كان هذا هو منطقهم.. وهكذا وجدت نفسى مسئولا أيضًا عن الخلافات الداخلية بين الوزراء وحول تفصيلات الكادر والعلاوات والمناصب والتنقلات.. إن أى أمر أو مشكلة مع الإنجليز قد أجد لها طريق العلاج، ولكن أنى لى هذا العلاج فى هذه المشكلة بين أهل بلد واحد.. ترددت طويلا حول الخطوة التى يمكن أن أقوم بها إزاء هذه المشكلة.. كنت أعرف مدى حساسية السودانيين ومدى الخلافات بينهم.. وهذا العامل كفيل بإقناعى بحفظ خطابى الوزيرين والصمت والانتظار.. ولكن كلما تخيلت تهديد الجنوبيين بمقاطعة الوزارة ثم البرلمان كلية وما يعقب ذلك من إنهيار دستورى يسلم كل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية إلى يد الحاكم العام.. كلما تصورت هذا الخاطر الذى يهدد بنسف كفاح وصراع مريرين.. أيقنت بضرورة عمل شئ.. أى شئ لحسم هذا الأمر الخطير..

تفكير طويل

خلوت إلى نفسى طويلا حتى قرب بزوغ الشمس وأنا أضرب أخماسًا فى أسداس وأفكر فى الذنب الذى اقترفته فى حياتى والذى يمكن أن يكون سببًا

لهذا الشقاء الذى حل بى.. ماذا جنيته طوال عمرى لأقف هذه المواقف وأحمل كل هذه التبعات؟ .

حزب الأمة يكيل لى لأنى ساندت الإتحاديين لأساعد فى رفع ظلم الإنجليز وتعنتهم واضطهادهم.. ويتهمنى هذا الحزب بأنى زيفت نتيجة الإنتخابات وأنا فى القاهرة وتسببت فى وصول رجال الأزهرى إلى الحكم وهم فى نظرهم قلة لا يؤبه بها ولا يمكن أن يكون الشعب بجوارهم لولا موقفى خلال الإنتخابات .. والجنوبيون يحملوننى مسئولية عدم بلوغهم الوظائف الكبرى التى وعدوا بها ويهددون بشطر البلاد إلى بلدين مما ينجم عنه بقاء الإنجليز لمرحلة أخرى فى وادى النيل.. وماذا أفعل من أجلهم.. لو كانت الوظائف التى يطالبون بها عندى فى مصر لهان الأمر وحسم فى لحظات.. ولكن ماذا أملك فى السودان.. وماذا أملك فى حكومة السودان؟.

ولكن كل شئ يجب أن يهون فى سبيل حرية السودان ووحدة السودان التى هى من صميم حرية بلادى ووطنى.

الطائرة التى تعبت منى

وما أن انقشع ظلام هذه الليلة وقاربت الساعة الخامسة صباحًا إلا واتصلت بالزميل صدقى محمود رئيس أركان حرب القوات الجوية، ورجوته أن يأمر لى بطائرة أستقلها بعد ساعات فى الخرطوم..

وفى تمام الساعة التاسعة كنت أستقل طائرة حربية.. ولعلها نفس الطائرة التى تعبت منها، وتعبت منى، ومن رحلاتى وتنقلاتى التى لا تنتهى..

وصلت بى الطائرة مطار الخرطوم فى المساء.. ذلك المطار الذى أصر الإنجليز طوال المفاوضات على جعله قاعدة جوية لهم ولكن الله نصر الحق وخلص مطار الخرطوم وكل الخرطوم بل كل السودان لأهله وبنيه .

رجاء الانتظار لاستقبالى

أقول أنى وصلت الخرطوم فى المساء.. وما أن هبطت من الطائرة إلا ووجدت النائب المحترم السيد حسن عوض الله زميل الرئيس إسماعيل الأزهرى والذى

حمل مشروع الإتحاد منى إلى زملائه فى الخرطوم ذلك المشروع الذى أبلغت منذ ايام بموافقتهم عليه وقسمهم على الكفاح فى سبيل تحقيقه..

رجانى الأخ حسن عوض الله أن أنتظر قليلا في المطار لأن الرئيس إسماعيل الأزهرى لم يعلم بوصولى إلا منذ لحظات وهو فى طريقه للمطار لإستقبالى وكذا فريق من زملائه الوزراء..

وبعد لحظات فى جو المطار القاتل وصل ركب الرئيس إسماعيل الأزهرى وبعض زملائه الوزراء الذين رحبوا بى أجمل ترحيب.

كما تجمع فى المطار ممثلو الصحافة السودانية الذين يعتبرون سفرياتى إلى السودان موسمًا لهم حيث تكثر الأخبار والإجتماعات السياسية والمؤتمرات..

وإلى الغد سأوافيك بتفصيلات هذه الرحلة المهمة .

الهوامش

(١٧٤) رئيس وزراء تركيا طوال عقد الخمسينيات، أدخل تركيا فى حلف شمال الأطلسى وجعلها رأس حربة الغرب فى مواجهة الاتحاد السوفياتى. أسهمت إصلاحات مندريس فى تطوير الحياة الاقتصادية فى تركيا حيث تقلصت البطالة وتحررت التجارة وعاش الناس فى فترة إستقرار سياسى إلى جانب تراجع حدة التوتر الذى كان سائدًا بين السكان والدولة بسبب الإجراءات المناهضة للإسلام ومظاهر التدين والعبادات فى صباح ٢٧ مايو عام ١٩٦٠ تحرك الجيش التركى ليقوم بأول إنقلاب عسكرى خلال العهد الجمهورى، حيث سيطر على الحكم ٣٨ ضابطًا برئاسة الجنرال جمال جورسيل وتم وقف نشاط الحزب الديمقراطى وأعتقل رئيس الوزراء عدنان مندريس ورئيس الجمهورية جلال بايار مع عدد من الوزراء وأرسلوا إلى سجن فى جزيرة يصى أدا.

بعد محاكمة صورية تم سجن رئيس الجمهورية مدى الحياة فيما حكم بالإعدام على مندريس ووزير خارجيته فطين رشد زورلو ووزير ماليته حسن بلاتقان، وكانت التهمة هى اعتزامهم قلب النظام العلمانى وتأسيس دولة دينية. فى اليوم التالى لصدور الحكم فى أواسط سبتمبر عام ١٩٦٠ تم تنفيذ حكم الإعدام بمندريس ليكون أول ضحايا العلمانيين فى الصراع الداخلى بتركيا.

(١٧٥) اللواء محمد صدقى محمود (فبراير ١٩١٤ ـ ١٩٨٤) قائد القوات الجوية المصرية أثناء نكسة ١٩٦٧، وعمل كبيرًا للمعلمين فى مدرسة الطيران وتخرج على يديه عشرات الطيارين المصريين كما تولى رئاسة أركان القوات الجوية منذ ١٩٥٣ وحتى ١٩٥٩، وكان الرجل الأول فى سلاح الطيران من عام ١٩٥٩ حتى ١٩٦٧. كان فى طائرة فى سماء سينا متجهة إلى مطار بير تمادة صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ برفقة المشير عبد الحكيم عامر واللواء أنور القاضى للمرور على القوات الجوية. حوكم صوريًا بعد النكسة وأودع فى السجن الحربى وافرج عنه السادات بعد حرب أكتوبر وذلك فى ١٩٧٤ وتوفى فى ١٩٨٤.

(٢٤) إنفراج أزمة الجنوب

الأزهرى يطوف الأقاليم داعياً للإتحاد

حماسة الشعب السودانى للإتحاد تبلغ الذروة

فى أوائل أكتوبر عام ١٩٥٤ وصلت إلى الخرطوم فوجدت الرئيس إسماعيل الأزهرى يستقبلنى مع بعض وزرائه.. وكان جو العاصمة المثلثة فى أشد حالات التوتر.. الوزارة الأزهرية على وشك السقوط.. والوزراء الجنوبيون يهددون مجلس الوزراء.. ويكتلون صفوفهم داخل البرلمان ليقفوا جبهة واحدة حتى تجاب مطالبهم، وكانت هذه المطالب تدور حول ضرورة قصر الوظائف الرئيسية فى الجنوب على أهل الجنوب، وضرورة القيام بمشروعات رئيسية مهمة لتطوير الجنوب ورفع مستواه حتى يصل فى أقرب وقت ممكن إلى مستوى بقية البلاد.. وحزب الأمة من جهة أخرى يتأهب لتسلم الحكم بعد وزارة الحزب الوطنى الإتحادى التى واجهت مع كل هذه المشاكل خطر الإنشقاق العنيف الذى دب فى صفوفها من يوم تأليفها..

وما أن وطئت قدماى أرض الخرطوم حتى دب النشاط فى الدوائر السياسية لحزب الأمة ، فقد بدأت تتوجس شراً من وراء هذه الزيارة، وخشيت أن أساهم فى إزالة بعض العقبات التى كانت تواجه حكومة أزهرى فتضيع آمالهم فى الحكم .. ومن ثم إشتدت حملاتهم علىّ بصورة لم يسبق لها مثيل ..

محاولة أخيرة

وكنت أقدر كل هذه العوامل ، ففضلت أن أقوم بمحاولة أخيرة لجمع صفوف الجنوبيين مع الشماليين حتى أقطع الرجعة على الإنجليز المتربصين بالبلاد،

وكانت صحفهم تشير إلى هذا الخلاف وتحاول إستغلاله، حتى لقد خرجت إحدى هذه الصحف تقول: "ألم نقل منذ مدة طويلة أن الجنوب لا يقبل بحال من الأحوال أى تفاهم مع الشمال ، وأنه يصر على حكم الإنجليز مدة طويلة حتى يصل إلى ما وصل إليه الشمال، ثم يقرر بعد ذلك مصيره منفردًا إما بالإتحاد مع شمال السودان، أو الإنفصال والإرتباط بأقرب الناس إليه، وهم زنوج المستعمرات البريطانية الملاصقة له".

ترحيب بالوساطة

وتحملت كل الصدمات، وكل الهجمات، وكل الإتهامات، فى سبيل تأدية هذه الرسالة فقد كنت أشعر بأن التاريخ سيحاسبنى عليها حسابًا عسيرًا إذا أهملتها أو فرطت آدائها بدافع الخوف على نفسى أو على مستقبلى.

اجتمعت فور وصولى إلى العاصمة بالرئيس إسماعيل الأزهرى وزملائه الوزراء الذين يمثلون جناحه فى الوزارة، وأطلعتهم على خطابات الوزراء الجنوبيين، وصورت لهم الموقف كما كنت أتخيله، وأنا فى القاهرة، فشاركونى القلق على وحدة البلاد، ورحبوا أيما ترحيب بوساطتى لإزالة هذه العقبة والوصول إلى تفاهم يلتقى عنده الجنوب والشمال .

العمل على سرعة العودة إلى القاهرة

كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل.. وكان قد مضى على يومان لم أذق خلالهما النوم، إلا بعض لحظات قضيتها فى نوم مضطرب خلال رحلة الطائرة "الداكوتا" إلى الخرطوم ، فاستأذنت من الرئيس لكى أنصرف، ولكنى لم أصل إلى الإستراحة التى اعتدت النزول فيها حتى طار كل أثر للنوم، وأيقنت أنى لن أنجح فى محاولتى للراحة ولو إستخدمت كل أنواع الأقراص المنومة التى كنت أحتفظ بها دائمًا لمثل هذه الحالات. إن الوقت يمضى سريعًا، ويجب أن أعود خلال أيام لأحضر توقيع إتفاقية الجلاء فى مصر.. فقد كانت تلك الإتفاقية قد تم الإتفاق على نصوصها، وتركت القاهرة وأنا أتوقع حضور الوزير البريطانى

ليوقع عليها معنا بإسم حكومته، وكان الرئيس جمال عبدالناصر قد أخطرنى قبل أن أغادر القاهرة وبعد أن إتصلت به تليفونيًا لإحاطته علما بالموقف، بأنه سيبلغنى بيوم توقيع الإتفاق حين يعرف موعده..

فى منزل وزير جنوبى

قمت من فورى دون نوم واتصلت تليفونيًا بالوزير الجنوبى "بولين ألير" وكان وزير الثروة الحيوانية فى ذلك الوقت وأحد الوزيرين اللذين أرسلا إلى خطابات الإنذار، ثم رجوته أن يدبر لى إجتماعًا فى منزله مع زملائه الجنوبيين للتفاهم حول الخلاف..

وفى الساعة الثانية بعد منتصف تلك الليلة كنت أتجه بالعربة إلى منزل الوزير الجنوبى وهناك إلتقيت بزميليه "سانتينو دنج" و "داك داى" وأمضيت معهم زهاء ساعتين لم أستطع خلالهما أن أصل إلى أى نتيجة، وقد شعرت من حديثى أنهم لا يملكون البت فى أمر هذا الخلاف دون الرجوع إلى زملائهم نواب الحزب الجنوبيين وهم أحد عشر نائبًا، فاتفقت معهم على ميعاد آخر فى نفس المنزل فى صباح اليوم التالى.. وكان صباح هذا اليوم قد اقترب فوعدوا بإحضار كل زملائهم فى هذا الإجتماع..

الخوف من الانهيار الدستورى

وفى الساعة العاشرة صباحًا كنت وسط نواب الجنوب من رجال الحزب الوطنى الإتحادى، وبعد فترة وجيزة أيقنت أن باقى زملائهم فى الأحزاب الأخرى يؤيدون مطالبهم ويعضدون فكرة خروجهم كلهم من البرلمان، وهذا ما كنت أخشاه، فإن معنى هذه الخطوة تمكين الحاكم العام من إعلان حالة الإنهيار الدستورى كما ينص دستور الحكم الذاتى، وفى هذه الحالة يزاول الحاكم وحده حكم البلاد عن طريق وزارة يختارها بمعرفته لا تسأل أمام البرلمان لأن جلساته توقفت حتى ترفع هذه الحالة.. وهذا يعرض البلاد إلى أن ترجع القهقرى إلى النقطة التى ابتدأ منها الكفاح، ويعصف بكل الثمرات التى يجنيها السودان من تطبيق الإتفاقية..

اقتناع..

وتكررت إجتماعاتى معهم.. وفى اليوم الثالث ليوم وصولى إلى الخرطوم كنت قد أقنعتهم فردًا فردًا بسحب إنذارهم للحكومة وتأجيل البت فى طلباتهم إلى أن تتم مرحلة تحرير البلاد بخروج الإنجليز.. وقد أثر فيهم إلى حد بعيد ما كنت أصور به موقفهم هذا أمام البلاد وأمام التاريخ، إذ ظلوا على موقفهم، وتسببوا بهذا الموقف فى بقاء الإنجليز بالبلاد وهم السبب الأول والأخير فى الحالة المؤلمة التى وصلوا إليها فى الجنوب.

وكنت أسألهم بين وقت وآخر «هل تقبلون أن يشارككم الإنجليز فترة أخرى فى حكم غابتكم؟ "فكان الرد يأتى على شكل" "زوم شديد" يعنى الرفض البات..

موافقة وتأييد الاتحاديين

وفى نهاية الجلسات ـ وكنت أستخدم فى الحديث معهم اللغة الإنجليزية، والعربية الإستوائية، ولغة الإشارة ـ وافقوا على إصدار للرأى العام يوضحون فيه أنهم وافقوا موافقة كاملة على سحب الإنذار، وإعطاء الفرصة الكاملة للحكومة حتى تنظر بعين العطف لهذه المطالب وأنهم لا يتمسكون بضرورة تنفيذ هذه المطالب فورًا، كما أعلنوا فى نفس البيان الذى وقعوه جميعا أنهم يتمسكون أيضًا بعضويتهم فى الحزب الوطنى الإتحادى الذى انضموا إليه منذ أجريت الإنتخابات.

ثورة حزب الأمة

وتنفست الصعداء.. وتنفس معى الصعداء أيضا إسماعيل الأزهرى وزملاؤه الوزراء، فقد إتخذت أخطر أزمة واجهت الحكم الوطنى فى السودان.. وفى نفس هذا الوقت أخذت صفوف الأمة تثور ضدى ثورة عارمة.. فقد إستتب الأمر مرة أخرى لوزارة الأزهرى خصمهم اللدود ولهذا أخذوا يكيلون لى السباب كل يوم.. إنى لأقدر موقفهم هذا تمام التقدير ولو كنت مكانهم، كما قلت من قبل، لتصرفت نفس تصرفهم، ولكنى أجبرت إجبارًا على إتخاذ هذا الموقف من أجل وحدة البلاد ومساندة الحكم الوطنى أمام الإنجليز المتحفزين.

جولة فى الأقاليم

وعزمت على الرحيل فى اليوم الرابع، ولكنى لم أستطع أمام إلحاح الرئيس إسماعيل الأزهرى وزملائه.. فقد صمموا على أن أصحبهم فى بعض جولاتهم فى الأقاليم وقالوا أن مدة هذه الجولات لن تزيد على يومين أو ثلاثة، وأن كل هذه المناطق قريبة من الخرطوم.. ووافقتهم على وجهة نظرهم ورافقت الرئيس الأزهرى ووزراءه ونوابه فى الرحلة إلى بعض مناطق مديرية النيل الأزرق، ومديرية الخرطوم، زرت أبى قرون، والدبيبة، وأبى ديك، والمسلمية، وغيرها من القرى والمدن وأستقبلنا بأضخم الإستقبالات الشعبية... كل قرية أو مدينة كانت تخرج الينا بأعلامها.. وبيارقها على بكرة أبيها تدق الطبول و"النحاس" وتنحر الإبل والخراف دون أدنى حساب..

تسجيل الخطب

وفى كل مكان أقاموا لنا سرادقًا ونصبوا مكبرات الصوت، وخطب الرئيس الأزهرى ووزراؤه يحيى الفضلى والشيخ على عبدالرحمن وحسن عوض الله ونائب كل منطقة... وقد قامت إذاعتنا المصرية بتسجيل كل هذه الخطب.. وفيها كان الرئيس يؤكد فى كل فقرة من فقرات خطبه مبدأ الإتحاد مع مصر وضرورة تحقيقه وكذلك فعل وزراؤه ونوابه.. تكلموا عن مصر ساعات وتحدثوا عما قامت به مصر وثورة مصر فى سبيل السودان ومستقبل السودان، حتى لو كنت أعانى شدة الخجل كلما اشتدت لهجة المديح لمصر ورجال مصر.

جسم واحد

وقف الرئيس الأزهرى مرة يخاطب الجماهير التى كانت تصفق وتهتف عن الإتحاد فقال بالحرف الواحد: "يا أخوانى.. اليد: هل تصفق وحدها"، وكانت الجماهير ترد "لا.. لا" فيقول: "لازم تكون فيه يدين حتى تصفقان.. وهذا هو سبب سعينا إلى الإتحاد مع مصر.. السودان ومصر يجب أن يتحدا فى جسم واحد .. وفى هذا حماية لحرية البلاد واستقلالكم.. "وتهب الجماهير هاتفة بحياة الإتحاد وبحياة مصر ورجال مصر وثورة مصر.

شعار الثورة

عدت من هذه الرحلات التى كانت تستمر كل يوم منذ الساعة الرابعة صباحًا إلى ما بعد منتصف الليل بكثير.

شعار الثورة

عدت إلى الخرطوم مع الرئيس وزملائه ودعائى إلى عشاء خاص فى داره.. وعلى سقف منزله الذى وضع على بابه شعار الثورة المصرية "الإتحاد والنظام والعمل".

على سقف المنزل إفترشنا الأرض وتناولنا على الطريقة السودانية العشاء المكون من "الكسرة والملاح". والملاح أقرب ما يكون إلى "الويكة المصرية" مضافًا إليها كمية كبيرة من الشطة، أما الكسرة فهى خبز السودان الوطنى وهو عبارة عن رقائق رقيقة جدا تختمر بنسبة أعلى من تخمر الخبز العادى..

وفى جو شاعرى.. صاف.. كنا نرتدى الجلباب السودانى الناصع البياض.. ونتحدث تحت ضوء القمر الساطع عن المستقبل.. وأكرمنى الأزهرى فى هذه الجلسة فاعترف بما قدمته مصر والثورة حتى أنسانى هذا الحديث الكريم ما لاقيته من إرهاق وعذاب وما وجه لى من حملات وطعنات..

الحزام الأفريقى

حدثته عن الحزام الأفريقى الذى حدثتك عنه بالأمس وعن مشاريع الغرب لجذب السودان إلى حظيرتهم وإبعاده عن مصر.. وتحمس وهو يهاجم المشروع حماسًا هائلاً قال فيه «لن يستطيع الإنجليز، أو الأمريكان، أو قوى الأرض مجتمعه، تنفيذ هذا المشروع الإستعمارى، لن يستطيعوا الفصل بيننا وبينكم، نحن لا نحيا بدونكم، وأظن أنكم لا تحيون بدوننا.

بكاء مر

وغادرت منزل الرئيس بعد منتصف الليل، وعرجت فى طريق عودتى إلى الإستراحة على صديقى العزيز "نور الدين" الرجل الذى ظل فى أحلك الأوقات

مصممًا على مبدئه... وقد حضر إلى مصر مع وفد من الإتحاديين عقب استقالتى، ثم زارنى فى منزلى وظل يبكى بكاءً مرًا ساعات طويلة حتى كأنه فقد أعز أبنائه، فقد أمنية العمر، فقد الأتحاد.. عرجت على منزله فى تلك الليلة، فقابلنى بعبارته المشهورة: "ما فى فايدة من هذا «الزول" أى هذا الرجل.. يقصد الأزهرى.

إثنين أوضة..

وضحكنا طويلاً، وقص على نوادره التى قابلته فى حياته السياسية، ولا أنسى هذه القصة التى ظللنا نضحك لها كلما تقابلنا وذكر أحدنا الآخر بها.

كان نور الدين يخطب فى حفل سياسى منذ سنوات بمدينو فى غرب السودان، وكان بعض رجال حزب الأمة يحضرون الإجتماع، وأخذ نور الدين يتكلم عن الإتحاد أو كما يسميه "الإتهاد" ويبين مزاياه التى تعود على مصر وعلى السودان ثم قل لهم: "فيه اثنتين أوضة (غرفة) إحنا عاوزين نشيل الهيطة (الحائط) من الوسط.. فإيه تكون النتيجة؟" ويسكت نور الدين وينتظر الجماهير لترد عليه قائلة أن النتيجة تكون غرفة واحدة كبيرة متسعة.. ويقصد بهذه القصة أن يشبه الوضع فى مصر والسودان والحائط بينهما الذى أقامه الإنجليز بين البلدين...

خرابة..!!

وإذا بأحد رجال حزب الأمة من الحاضرين يسارع ويرد على نور الدين قائلا: "لما الهيطة تنشال تبقى هرابة" (أى خرابة).. ويضج الحفل بالضحك المتواصل ويضحك نور الدين.

عدت قبيل الفجر إلى الإستراحة مرتاح البال، وما أن وصلت حتى علمت أن الرئيس جمال عبدالناصر ترك لى رسالة تليفونية ينبئنى فيها بأن إتفاقية الجلاء سيتم توقيعها يوم ١٩ أكتوبر ويجب على أن أكون فى هذا الميعاد فى القاهرة.. ونمت قرير العين.. هادىء البال.. إن حملاً ثقيلاً قد زال عن كاهلى فى الخرطوم.. وغدًا يزول أقدح عبء وأثقله فى القاهرة.. ولكن مفاجأة ضخمة

تحدث.. وتحدث من الأزهرى فى اليوم التالى فى حفل الغداء الذى أقمته له ولزملائه الوزراء قبيل رحيلى إلى القاهرة بساعات..

وإلى الغد.. لأحدثك عن هذه المفاجأة الضخمة.

(٢٥) الأزهرى يلقى أضخم قنبلة

رسالة من إيدن قبل توقيع الجلاء بلحظات

تصريحات الأزهرى المذهلة فى لندن

بين صحف لندن وصحف السودان

حدثتك عن إنفراج أزمة الوزراء والنواب الجنوبيين ومقابلاتى مع إسماعيل الأزهرى وزملائه فى الخرطوم الذين أكدوا لى ما جاء على لسان رئيس مجلس الشيوخ السودانى السيد أحمد محمد يس من موافقتهم التامة على مشروع الإتحاد الذى أرسلته لهم بناء على طلبهم.. ذلك المشروع الذى حدثتك من قبل عن تفصيلاته والذى وافق عليه مجلس قيادة الثورة..

كما أوضحت لك بالأمس كيف نجت وزارة الأزهرى بأعجوبة من السقوط والتأم شمل الشماليين والجنوبيين من أعضائها. كما شرحت لك جانبًا من الرحلات فى الأقاليم التى رافقت فيها الأزهرى ووزراءه ونوابه.. تلك الرحلات التى هبت فيها كل القرى والمدن التى مررنا بها تهتف من أعماقها للأزهرى ورفاقه.. أبطال الإتحاد.

الوزراء حول مائدة الغداء

إعتزمت العودة إلى القاهرة بعد أن أمضيت حوالى الأسبوع فى ربوع السودان لحضور التوقيع على إتفاقية الجلاء فى القاهرة الذى تم يوم ١٩ أكتوبر ٥٤ وقبل سفرى بساعات إجتمعت بالرئيس الأزهرى ورفاقه الوزراء حول مائدة الغداء فى إستراحة الخبير الإقتصادى المصرى التى اعتدت النزول بها.

بشر وسرور

اجتمعنا حول مائدة الغداء وكان البشر والسرور يعمان الجميع ولم يكن التفاهم بينى وبين الأزهرى فى أى وقت من الأوقات أقوى منه فى هذا الوقت بالذات.. ولم يكن هناك.

شىء يؤرق الأزهرى إلا إنشقاق وزراء الجبهة الوطنية فى وزارته وأعلانهم رغبتهم فى الإستقلال ومعارضتهم المفاجأة للإتحاد.

ولكن هذا الأمر لم يصل إلى حد إزعاج الأزهرى ورجاله لأن فريق الجبهة هؤلاء داخل الحزب الوطنى الإتحادى لم يكن لهم سوى نائب واحد فى مجلس النواب وهو ميرغنى حمزة وزير الزراعة والرى.. فلم يكن هناك خوف على مصير الوزارة التى ظلت تمتلك الأغلبية البرلمانية بعد أن تمت تسوية أزمة وزراء ونواب الجنوب.

قنبلة

وقبل أن ننتهى من طعام الغداء بقليل.. قطع الرئيس الأزهرى الصمت الذى ساد المائدة فترة وجيزة وقال: "أنا بعون الله تعالى مسافر إلى إنجلترا". توقفت عن تناول الغداء وخيل لى أنى أستمع تمامًا لما قاله الأزهرى فسألته: بتقول مسافر فين؟ "فأكد لى رده ما تخيلت أنى سمعته خطأ.. قال "إلى إنجلترا إن شاء الله :وصمت قليلا ثم قال" لقد أخطرنى اليوم معالى الحاكم العام بأن الحكومة البريطانية قد وجهت لى دعوة رسمية لزيارة بريطانيا وقد قبلت الدعوة وسأسافر بعون الله بعد أيام".

الرد على دعوة مصر

تمنيت له رحلة طيبة.. وسرعان ما فطن إلى التغيير المفاجىء الذى بدا على وجهى وأنا من الأشخاص الذين يسهل قراءة ما يدور فى داخلياتهم على وجوههم بكل يسر. فطن الأزهرى إلى التغيير الذى بدا على فأردف يقول "أنا اضطررت اضطرارًا لقبول الدعوة لأننى قبلت دعوة مصر فى أعياد التحرير ولا يجوز أن

أقبل دعوة مصر وأرفض دعوة انجلترا وكلتا الدولتين من الوجهة النظرية متساويتان فى علاقتهما ومركزهما بالنسبة للسودان»!

وصمت قليلا وعاد يقول «"إنى إن شاء الله سأمر عليكم فى مصر بعد إنتهاء زيارتى للندن لكى أمضى معكم بضعة أيام قبل عودتى للخرطوم.. وسأنتهز هذه المناسبة لأهنئكم فى القاهرة جميعًا باتفاقية الجلاء التى نعتبرها متممة لاتفاقية السودان التى لكم الفضل فى الوصول إليها.. فكلتا الإتفاقيتين قد حررتا وادى النيل كله من كل إحتلال أجنبى وعما قريب سنهنأ بإعلان إتحاد وادى النيل الذى تحرر".

أزمة مرافقين للرئيس

وقد أخطرنى بأنه سيصطحب معه فى هذه الرحلة وزيرين من وزارته هما الشيخ على عبدالرحمن وزير العدل ويحيى الفضلى وزير الشئون الإجتماعية وكلاهما من حزبه القديم حزب الأشقاء.. وكان هذا الاختيار سببًا لأزمة حادة وقعت فيما بعد وعجلت بخروج وزراء الجبهة الوطنية من وزارته ومن الحزب الوطنى الإتحادى.

شعور غامض

شعرت عقب هذا الحديث بشىء غير قليل من الإنقباض دون أن أهتدى إلى سبب معين لهذا الإنقباض. ومما زادنى حيرة ما علمته من أمر دعوة معظم دول غرب أوروبا بمناسبة زيارته هذه إلى لندن..

ما سبب كل هذه الدعوات والبلاد تتأهب لإجراء تقرير المصير بعد أشهر معدودات؟ وما سر هذه الدعوة من جانب بريطانيا للرجل الذى عملت على قتله سياسيا سنوات طويلة؟ بل وكافحته.. وكافحت حزبه خلال الإنتخابات واعتبرت وصوله للحكم أكبر هزيمة سياسية واجهتها فى تاريخ إحتلالها للقارة الأفريقية..؟ أسئلة ظلت تدور فى رأس دون أن أهتدى الى أجوبة شافية لها..!

وداع فى المطار

وفى حوالى منتصف الليل توجهت للمطار لأتهيأ للعودة للقاهرة.. وما أن هبطت من السيارة عند مدخل المطار حتى فوجئت بالرئيس الأزهرى يجلس فى المقصف.. فتوجهت إليه وعانقنى عناقًا طويلاً حارًا وودعنى حتى الطائرة ولكنى لم أستطع لحظة واحدة طوال الرحلة الطويلة المرهقة أن أتخلص من شعور الانقباض الذى لازمنى منذ حديث مائدة الغداء.

إتفاقية الجلاء

وصلت إلى القاهرة وحضرت حفل توقيع إتفاقية الجلاء ولم أستطع أن أنسى إتفاقية السودان وما يحيط بمصيرها من المجهول حتى فى لحظة توقيعى على الإتفاق.. كان كل من فى القاعة وقت هذا التوقيع التاريخى يكاد يطير من الفرح عدا وفد المفاوضات البريطانى طبعًا.. إلا أنا.. كنت أشعر بسعادة ممزوجة بقلق وحيرة وإنقباض..

مستر ناتنج

وأذكر بهذه المناسبة أن الرئيس جمال عبدالناصر استدعانى إلى مكتبه فى رئاسة مجلس الوزراء قبيل التوقيع على إتفاقية الجلاء بدقائق.. ولم أكد أدخل مكتب سيادته ولم يكن أحد غيرنا فى الغرفة.. حتى استدعى الرئيس صلاح الشاهد (١٧٦) وطلب منه أن يدخل مستر ناتنج وزير الدولة البريطانى ورئيس وفد المفاوضات، وكان ينتظر فى غرفة الصالون الملحقة بمكتب الرئيس.

رسالة من إيدن

دخل مستر ناتنج وبعد لحظات نظر إلى الرئيس ووجه إليه الحديث التالى:

"إن لدى رسالة شفوية من مستر إيدن وزير الخارجية أحب أن أبلغها لكم.. يقول مستر إيدن أنه لا فائدة مطلقًا من التوقيع الذى سنجريه الليلة.. إذا استمرت إذاعتكم وخاصة الموجهة إلى السودان وأفريقيا والشرق الأوسط على الطريقة التى دأبت عليها من الحط من قدر بريطانيا. وتحقيرها.. لن يجدى هذا التوقيع فى بناء الصداقة التى تصبو إليها ونود قيامها بين بلدينا".

ونظر إلى وكأنه يعنينى حينما تكلم عن الإذاعة وعن السودان.

وتكلم الرئيس عن أمله فى زوال كل خلاف بين مصر وبريطانيا.. وقبل أن نفترق لنتجه إلى قاعة التوقيع قلت له: "ثق أن كل عبث فى تنفيذ إتفاقية السودان لن يفتح مطلقًا باب الصداقة بين البلدين، وأعتقد أن سلوك رجالكم فى الخرطوم إذا استمر على ما هو عليه فلا أظن أن الأمور ستسير بهدوء وسلام".

فأجاب إجابة مقتضبة قائلا «إننا لا يعنينا فى السودان سوى رفاهية أهله» نفس الجملة التقليدية التى اخترعها الساسة البريطانيون منذ أمد بعيد كلما تحدثوا عن أمر مستعمراتهم ومستقبلها..

فى مستشفى المواساة (١٧٧)

توجهت فى اليوم التالى إلى مستشفى المواساة فى الإسكندرية لأقوم بواجب السؤال عن صحة الزعيم السيد على الميرغنى..

قابلت سيادته لفترة طويلة وحدثته عما شاهدته فى السودان خلال رحلتى الأخيرة ولمست منه ألمًا شديدًا من الرئيس الأزهرى.. لم يصرح لى سيادته بما يعتمل فى نفسه ولكنى فهمت كل شىء.. وكانت هذه هى المرة الأولى التى ألاحظ على سيادته هذا الشعور بالألم تجاه الأزهرى..

مصير الحزب

شعرت بأن سيادته أخذ يقلق على تصرفات الأزهرى ورفاقه.. ذلك الحزب الذى رعاه منذ بدء نشأته وعضده برجاله وجهوده ونفوذه فى معركة الإنتخابات.. ولكن تعصب الأزهرى لفريق حزبه القديم "الأشقاء" تسبب فى نفور الجبهات الأخرى المكونة للحزب مما يهدد كيان الحزب ووجوده وخاصة فى هذه الظروف الحرجة والبلاد مقبلة على تقرير المصير وهنا أكثر من مشكلة ضخمة تهدد البلاد كلها..

ملاحظة.. وإصرار!

وقد علمت من رجال السيد على الميرغنى والمحيطين بسيادته بأن الرجل قد تألم من إختيار الأزهرى لإثنين من طاقمه متجاهلا الكتل الأخرى فى رحلته إلى

لندن.. كما علمت من هؤلاء الرجال أن ملاحظة سيادته هذه قد أرسلت إلى الأزهرى فى الخرطوم ولكنه أصر على وجهة نظره بحجة أن هذا الأمر من إختصاصه وحده بصفته رئيسًا لمجلس الوزراء..

الأزهرى فى لندن

تابعت بشغف أخبار الرئيس الأزهرى فى رحلته إلى لندن وحرصت على الإطلاع على كل صحف بريطانيا يومًا بيوم التى تحدثت طويلا عن مقابلاته مع تشرشل وإيدن وتشرفه بمقابلة الملكة.

قنبلة أخرى

وبعد أيام من بدء الزيارة صدرت الصحف البريطانية كلها تحمل فى صفحاتها الأولى تصريحات نسبت إلى الأزهرى وكلها تدور حول رأيه فى مستقبل السودان..

قالت الصحف أنه يرى أن تكون علاقة السودان بمصر كعلاقة كل الدول العربية بها.. وقالت الصحف أنه يحبذ إستقلال السودان الكامل دون أدنى علاقة بأحد..

وقالت الصحف أن الأزهرى يؤكد قيام كيان فصل للسودان عن كل الدول..

وقالت الصحف أن الأزهرى يؤكد أن علاقة السودان بانجلترا ستكون مطابقة لعلاقته بمصر وبقية الدول.

ماذا حصل؟

يا إلهى ماذا حدث.. وما سبب كل ذلك.. إن سمعى لازال يردد تصريحات الأزهرى منذ أيام فى قرية الدبيبة وأبى دليك وأبى قرون والمسلمية والخرطوم عن الإتحاد واليد التى لا تصفق وحدها..

إنى لازلت أذكر جلستى مع الأزهرى فوق "سطح" منزله ونحن نتناول الكسرة والملاح فى ضوء القمر.. لازلت أذكر منذ أيام مضت هذه الجلسة التى أخذ يحدثنى فيها عن ميرغنى حمزة وخلف الله خالد... الوزراء الذين خانوا العهد

وتنكروا لمبدأ الإتحاد الذى قبلوه بتوقيعهم على دستور الحزب الوطنى الإتحادى ونجاحهم فى الإنتخابات على مبدأ الإتحاد.

أمين حماد...

قذفت بالجرائد جانبا وأدرت قرص التليفون.. وتحدثت إلى أمين حماد رئيس الإذاعة ورجوته أن يدير لى أشرطة خطب الرئيس الأزهرى خلال رحلتى الأخيرة فى السودان التى عدت منها منذ أيام.. وبعد لحظات أدرت جهاز للإستماع بجوار مكتبى يتصل مباشرة باستديوهات الإذاعة.. وظللت ساعة أستمع إلى صوت الرئيس يتحدث عن الإتحاد مع مصر والفناء فى سبيل هذا الهدف المقدس.. وسمعت صياح الجماهير المؤيدة له والهاتفة من القلوب باسم مصر وبالإتحاد معها..

الجرائد البريطانية مرة أخرى

أسكت جهاز الإستماع وأخذت أقلب فى الصحف البريطانية وتعليقاتها المثيرة حول هذه التصريحات.. تلك التصريحات التى تهافتت عليها وكالات الأنباء ونشرتها كل صحف العالم.. حتى صحف السودان التى تصلنى يوميًا وبانتظام.. إلا صحيفة واحدة.. ولعلها خجلت من إسمها.. ما هى هذه الصحيفة السودانية؟ وما هى قصتها؟ إلى الغد.

الهوامش

(١٧٦) كان صلاح الشاهد مديرًا للمراسم برئاسة مجلس الوزراء وكان قريبًا جدًا من رؤساء الوزارات: مصطفى النحاس، وحسين سرى، وعلى ماهر، وأحمد ماهر، والنقراشى، ونجيب الهلالى، وغيرهم. واستمر فى عمله بعد قيام الثورة إلى أن صار كبير الأمناء برئاسة الجمهورية مع عبدالناصر ثم مع السادات. وقضى ٣١ عامًا يراقب ويتابع من قريب ما يجرى فى دهاليز السياسة فى عصر فاروق ثم فى عصر الثورة، ومن موقعه كان يرى ويسمع ويتابع ما يجرى فى القصر الملكى ثم فى القصر الجمهورى. وبعد أن إستقال من عمله فى عام ١٩٧٣ نشر كتابا مهما بعنوان (ذكرياتى بين عهدين) تحدث فيه عما شاهده وعايشه فى دهاليز القصر الملكى ثم القصر الجمهورى.

(١٧٧) استهدفت جمعية المواساة الإسلامية الخيرية بالإسكندرية إنشاء مستشفى أهلى بمدينة الإسكندرية يخصص قسم كبير منه لمعالجة الفقراء مجانا فقامت بالدعاية وتدبير المال اللازم له، وقد نجح محمد فهمى عبدالمجيد رئيس الجمعية فى إضافة نص إلى قانون الجمعية يقضى بأن يكون من ضمن أغراضها معالجة المرضى وتحقيقا لذلك أصدرت الجمعية العمومية للمواساة قرارا فى اجتماعها المنعقد بتاريخ ٢٧/١٠/ ١٩٢٩ بإضافة هذا النص لقانون الجمعية ومن هنا كان إنشاء عمارة المواساة والاستعانة بإيرادها فى بناء مستشفى المواساة ، صادف جهود محمد فهمى عبدالمجيد العديد من الصعاب والعقبات لشراء قطعة أرض فى المنطقة الواقعة بين محطة الشاطبى وشارع أبى قير، وتبلغ مساحتها ١٨٥٠ م٢ لبناء مستشفى المواساة، ولكن العقبات التى وضعت أجبرت الجمعية على شراء قطعة الأرض الخلفية فى ١٩٣١/٣/٥٢. نجحت جهود الجمعية فى بناء المستشفى فى نحو ثلاث سنوات بفضل همة واقدام وإيمان وشجاعة القائمين على جمعية المواساة وأصر محمد فهمى عبدالمجيد أن يكون بناء المستشفى على أحدث النظم، وأن يكون مثلا يحتذى به، وتحقيقًا لهذا الاصرار سافر محمد فهمى عبدالمجيد ومعه سكرتير الجمعية وأحد أصدقائه الأوفياء محمد سعيد جميعى إلى ألمانيا للإطلاع على أحدث المستشفيات بها وهو مستشفى مارتن لوثر، ليكون نموذجًا لمستشفى المواساة ولجمعه لثلاثة عناصر أساسية هى المنفعة والبساطة والاقتصاد، ثم استدعاء المهندس الإخصائى الذى قام بتشييد مستشفى مارتن لوثر ببرلين، وهو الهرارنست كوب، الذى حضر إلى الإسكندرية فى٢٠/٧/١٩٣٠، وعاين الأرض ووضع التصميمات الهندسية والرسومات التفصيلية الخاصة بالمستشفى تم افتتاح المستشفى رسميًا فى ١٢/١١/١٩٣٦ بحضورالملك فاروق ملك مصر والسودان.

(٢٦) الأزهرى يُكذب فى مصر..

تصريحاته فى لندن..

صحف العراق تشارك لندن بهجتها.

نورى السعيد يحلم بتحقيق الحزامين.

الرئيس جمال يواجه الأزهرى بصراحة.

كان حديثى بالأمس عن رحلة الرئيس إسماعيل الأزهرى إلى لندن فى نوفمبر عام ١٩٥٤ وعن التصريحات التى نسبتها إليه كل الصحف البريطانية ونقلتها وكالات الأنباء العالمية، وعن المفاجأة الضخمة.. بل عن القنبلة التى أطلقها الأزهرى فى لندن دون أن يمهد لها بدلائل أو مقدمات.

كنت معه ـ قبل سفره بأيام ـ فى الخرطوم.. وكان يؤكد لى هو وزملاؤه موافقتهم على دستور الإتحاد المقدم من مصر كلمة كلمة.. وكانت خطبه الرنانة أمام عشرات الألوف من السودانيين فى عشرات القرى والمدن السودانية تدور حول تأكيد مبدأ الإتحاد مع مصر، وسجلت إذاعة القاهرة وإذاعة أم درمان كل كلمة قالها وقالها زملاؤه الوزراء، كما سجلت أشرطة السينما مظاهر الحفاوة البالغة والتأييد القوى اللذين قوبل بهما الرئيس الإتحادى فى كل مكان..

ولكن تصريحات لندن جاءت كلها على النقيض من تصريحات وتأكيدات الخرطوم.. ونشرت كل صحف الخرطوم فى وقتها هذه التصريحات الخطيرة.. ما عدا صحيفة واحدة.. هى صحيفة الأزهرى التى تنطق بإسمه "صحيفة الإتحاد" فإنها لم تنشر حرفًا واحدًا مما جاء على لسان الأزهرى وردته كل صحف العالم وصحف الخرطوم من بينها.

حيرة

ومما زاد فى حيرتى أن هذه الجريدة ـ جريدة الإتحاد ـ كما كان إسمها ظلت تردد فى قوة وعنف مزايا الفكرة الإتحادية، وتستبعد أن يدلى الأزهرى بأى تصريح يخالف هذا المبدأ الذى عاش طويلا وهو يكافح فى سبيله، ونجح فى الإنتخابات وهو ينادى به.. بل لقد هبت هذه الجريدة فى وجه بقية الصحف السودانية تتهمها بأنها تعمل على بلبلة الرأى العام السودانى بنشر التصريحات المزيفة التى "فبركتها" الصحف البريطانية لتدمير جبهة الكفاح المشترك بين مصر والسودان، ولعرقلة خطى البلاد التى تسير بها نحو أهدافها من الحرية ووحدة وادى النيل العظيم.

الوزراء المنشقون

وكانت هذه المناسبة فرصة فريدة إنتهزها وزراء الجبهة الوطنية فى وزارة الأزهرى وهم: ميرغنى حمزة، وخلف الله خالد، وأحمد جبلى، الذين إتهمهم الأزهرى منذ أيام بخروجهم على مبدأ الحزب الإتحادى وتعلقهم بفكرة الإنفصال عن مصر..

انتهز هؤلاء الوزراء فرصة إذاعة التصريحات المذهلة فشنوا حملة شعواء على الأزهرى ورفاقه، واتهموه بالذبذبة والشعوذة.. إذا ذهب إلى مصر أصبح إتحاديًا وإذا زار لندن فى اليوم التالى أصبح إنفصاليًا وإستقلاليًا.. وأكدوا أنه سيلحس كل هذه التصريحات الإستقلالية عقب وصوله إلى أرض الكنانة، وأنه سيتقمص فى مصر ثوب الإتحادية المتطرفة والحق أن عقلى كاد يقف دون متابعة هذه التطورات المذهلة التى طرأت على القضية.. كيف أعلل شكواه لى منذ أيام.. شكواه لى أنا بدمى ولحمى.. من ميرغنى حمزة وإخوانه لأنهم لا يؤمنون بالإتحاد مع مصر.. وأنه لهذا سيعمل على إقصائهم من الحزب ومن الوزارة فى أول فرصة ممكنة.

تغييرات فى الحزب

لقد أكد لى فى آخر يوم أمضيته فى الخرطوم، وأمام زميليه يحيى الفضلى وحسن عوض الله أنه مصمم على تعيين أحد رجاله الإتحاديين من الأشقاء وهو

إبراهيم أبو المعالى فى أمانة صندوق الحزب الإتحادى بدلاً من خلف الله خالد.. وعلل هذا بأن خلف الله يجاهر بعزمه على تحقيق فكرة الإستقلال، ومحاربته مبدأ الإتحاد..! كما أكد لى عزمه على تعيين حسن عوض الله فى سكرتارية الحزب بدلا من خضر حمد.. وعلل ذلك بأن خضر يتذبذب بين الإتحاد والإستقلال، وكان ذلك قوله حرفيًا.!

انتظار

كاد عقلى يقف دون متابعة هذه التطورات، ولم يعد أمامى إلا أن أنتظر عودة الزعيم الإتحادى الإستقلالى من لندن إلى القاهرة كما وعدنى بذلك.. وأخذت أتساءل عن سر كل هذه التقلبات.. هل مارسنا أى نوع من أنواع الضغط عليه ليكون إتحاديا؟.. ألم يحضر هو وزملاؤه إلى القاهرة عقب قيام الثورة ليتحدثوا معنا عن الإتحاد وضرورة تحقيقه؟.. ألم يوجه إلينا اللوم أكثر من مرة، ونتهم بالتذكر لمبدأ الإتحاد كلما اقترينا من المهدى ورجاله لنوحد صفوف السودانيين ونجمع كلمتهم لمواجهة الإنجليز؟

هل قصرنا فى أى يوم من الأيام فى أداء واجب طلبوا منا أداءه؟.. هل صدرت كلمة واحدة فى صحفنا أو إذاعتنا لا تحمل تبجيلهم وإحترامهم وإعلاء شأنهم وتقديسهم؟ ألم نتعرض لألوان كثيرة من الإتهامات والهجمات التى شنها علينا رجال المعارضة لإلتصاقنا بهم ونصرتنا لهم؟

وعلى كل حال.. الأمر أمرهم.. والكلمة كلمتهم.. ولا حق لنا فى محاسبتهم.. أو توجيههم.. بل لا حق لنا فى عتابهم. إن لإسماعيل الأزهرى ورفاقه كل الحق فى أن يغيروا من مبادئهم كل صبح وكل مساء.. ولكن نريد فقط أن نعرف إلى أين نسير.. نريد أن نتحسس حقيقة الأرض التى نقف عليها.. لا نحب أن نضلل أحدا.. كما نحب ألا يضللنا أحد.. ولدينا الشجاعة الكافية لكى نقف ونواجه شعبنا وأمتنا بحقيقة قضايانا.. لن نكرر أسلوب السادسة الأقدمين الذين ظلوا أكثر من نصف قرن يخفون عن الأمة أوجه هذه القضية، وحقيقة تطوراتها.

اجتماع شعبى

وفكرت أن أستئذن مجلس قيادة الثورة فى عقد إجتماع شعبى ضخم بميدان

الجمهورية مثلا.. ثم أرجو منه أن يخاطب شعب مصر بما يريده.. وأقف بعده أعقب على خطابه، فإن أعلن نيته الإنفصالية باركناها وتمنينا له النجاح والتوفيق، وأن أتكلم عن الإتحاد مرة أخرى.. رددنا عليه باستعدادنا له وترحيبنا به إذا أيدته غالبية الشعب السودانى فى الإستفتاء المقبل.

صحف العراق

وإن أنسى كل شىء فلا يمكن أن أنسى موقف صحف العراق الشقيق وقتذاك.. العراق الذى حمل لواء العروبة، ووحدتها زمنًا طويلاً.. وطويلاً جدًا.. العراق الذى كان نورى السعيد فى ذلك الوقت يتآمر على مستقبله وحريته مع إيدن ومندريس، بفصله عن جسم العروبة وضمه إلى جسم غريب عنه تحقيقًا لإستراتيجية الأسياد وسياسة الإستعمار وأهدافه.

لقد صدرت وقتذاك كل صحف العراق الخاضعة لإشراف الجنرال العربى الإنجليزى التركى.. تفرش الملاية لمصر.. مصر المستعمرة.. مصر التى تريد إستغلال شعب السودان... خرجت تلك الصحف تتشفى فى مصر وفى القائمين بأمرها.. خرجت تقهقه وتشرب حتى الثمالة كأس إنفصال وادى النيل..

الحزامان

وكان واضحًا جليا أن فرحة نورى السعيد هذه التى كانت تتجاوب مع فرحة لندن وفرحة صحافتها.. كان واضحًا أن تلك الفرحة فى لندن وبغداد تحمل فى طياتها معنى أضخم من مجرد الشماتة من القاهرة المتحررة.. القاهرة التى تكافح وتناضل ضد مشاريع الإستعمار وأهداف الإستعمار.

كانت تلك الفرحة تحمل معنى أضخم، وهو بداية النجاح فى سبيل تحقيق أضخم مشروع إستعمارى فى الشرق الأوسط وفى أفريقيا.

لقد كانوا يعلمون أن مصر لن تقبل الدخول فى أحلافهم.. وكانوا "يطبخون فى ذلك الوقت" طبخة "حلف بغداد أو الحزام الشمالى.. ثم يكملونه بالحزام الأفريقى.. وكان السودان أهم عنصر فى إقامة هذا الحزام المكمل للحزام

الثورى.. فإذا تحقق الفصل بين مصر والسودان سهل إقامة الحزام الأفريقى فى نفس الوقت الذى يعلنون فيه قيام الحزام الشمالى.. وبذلك تقوم كماشة إستعمارية ضخمة تحيط بعنق مصر لخنقها والقضاء عليها..

تكذيبات

قد يكذب ساسة الغرب الآن مشروع الحزام الأفريقى هذا.. كما كذبوا من سنتين كل فكرة حول إقامة الحزام الشمالى.. ولكن أرشيف وزارة خارجيتنا ووزارة الدولة لشئون السودان ورئاسة مجلس الوزراء والمخابرات حافلة بالتقارير والمباحثات السرية التى جرت بين ساسة الغرب وبعض قادة أفريقيا، وكلها تدور حول بعث هذا المشروع.

ألا يحق لنا اليوم أن نقهقه على نورى السعيد ونسخر منه؟.. لقد إنهارت آماله وآمال أسياده.. وتقلص الحزامان حتى أصبحا "توكة» حزام واحد.. توكة" واحدة بدون أى حزام لا تستطيع أن تربط أى شىء، أو تحيط بأى شىء، ولا حتى بكرش نورى السعيد.. وها هو ذا السودان المستقل أعنف مايكون حنقا على هذه المشاريع وكفاحًا ضدها وضد المروجين لها، والقائمين بها، والمتبنيين لها.

الأزهرى فى القاهرة

بعد أيام.. وصل الأزهرى مع رفيقه من الرحلة الميمونة إلى القاهرة، واتجهوا من فورهم إلى الإسكندرية لزيارة الحسيب النسيب السيد على الميرغنى فى مستشفى المواساة بالإسكندرية وتقابلنا بعد أن إفترقنا فى الخرطوم منذ أسابيع.. تقابلنا فى الإسكندرية فى ليلة من ليالى الثغر العابثة شديدة العواصف والأمطار..

زرنا السيد على الميرغنى، وتركنا الزعيم الكبير بعد وقت قصير، واتجهنا جميعا إلى فندق وندسور الذى كان يفضله الأزهرى على كل ما عداه من فنادق الإسكندرية..

نور الدين والأزهرى

وحتى الفنادق فى القاهرة والإسكندرية كان على أن أعرفها جيداً، وأعرف منها ما يلائم ذوق كل زعيم.. وكانت كل دراساتى السودانية تؤكد أن الأزهرى لا يرضى عن فندق وندرسون بديلاً.. وعلى العكس من ذلك نور الدين طبعًا.. فقد كان لا ينزل بالإسكندرية إلا فى فندق سيسل..

وهكذا كان الأزهرى ونور الدين يختلفان فى كل شئ وحول كل شئ حتى فى إختيار الفنادق بالإسكندرية.

حتى الصباح

وفى الصالون الملحق بغرفة الرئيس إسماعيل الأزهرى فى فندق وندسور إجتمعت به حتى الصباح.. لم أشأ أن أفاتحه فى أمر التصريحات التى صدرت منه، ونقلتها كل صحف العالم وإذاعاته.. وتطوع هو.. بعد التحيات والأشواق والسلامات المعتادة.. فأخذ يشرح لى خبث الصحافة البريطانية وكذبها وافتراءها عليه فى كل ما نشرته حول تصريحاته ومؤتمراته الصحفية. وقال أنه سيكذب فى السودان، بل فى مصر قبل عودته إلى الخرطوم كل هذه التصريحات وسيعلم وادى النيل حقيقة موقفه من المبدأ الذى إعتنقه وآمن به منذ عشرات السنين.

الجنوب

وانتهزت هذه المناسبة فحدثته عن المشاريع التى تقدمت بها منذ شهور لمعاونة حكومة الخرطوم ومساعدتها على رفع مستوى الجنوب. حدثته عن تلك المشروعات التى حدثتك عنها فى حلقة سابقة فأبدى دهشته من تأخير البت فى هذا الأمر.. وخاصة حين أخبرته أن مبلغ الـ٣/٤ مليون جنيه وهو بمثابة الدفعة الأولى التى وعدتهم بها قد تم اعتمادها من مجلس الوزراء المصرى منذ شهور وقلت أننى الآن لاأعرف كيف أتصرف فى هذا المبلغ.. وزعماء الجنوب قلقون من هذا التأخير وربما ظنوا أنى كنت أهزل معهم حين حدثتهم عن هذه المشاريع.

الجمعية الخيرية الإسلامية

وقد أبدى لى رغبته فى أن نكل أمر القيام بهذه المؤسسات التعليمية والإجتماعية والصحية إلى جمعية خيرية ولتكن الجمعية الخيرية الإسلامية.. ويكون حكمها حكم إرساليات التبشير الأجنبية التى تزاول هذا العمل فى كل أنحاء الجنوب.. حتى لا تتهم المعارضة بأنها تمكن حكومة مصر من نشر فعاليتها فى هذه المناطق..

وقد وافقته على هذا الرأى مع أنى عرضت تسليم المبلغ لحكومة السودان، وعلى أن تكون مساهمة مصر بتقديم الفنيين فقط إن تعذر وجودهم فى السودان.

لقاء مع نور الدين فى القاهرة

وفى اليوم التالى عدنا جميعا إلى القاهرة واجتمعنا فى مكتب الرئيس جمال عبد الناصر فى رئاسة مجلس الوزراء، وكان نور الدين يزور القاهرة فى ذلك الوقت فانضم إلى هذا الإجتماع.. وتحدث الرئيس جمال إليهم حديثًا واضحًا صريحا قال فيه: «إنكم أحرار ولاشك فى أى أتجاه تسلكونه وترون فيه خير بلادكم ولكنى أطلب شيئًا واحدًا هو أن يعرف كل منا الآخر على حقيقته ولا داعى لكى أخدعكم أو تخدعونى.. أحب أن أعرف رأيكم بوضوح حتى أكون على بينة من أمرى، ونهيىء بلادنا لقبول ما يستقر عليه رأى السودان الذى تقودونه».

وتكلم إسماعيل الأزهرى ونور الدين ويحيى الفضلى وعلى عبد الرحمن ساعات طويلة حول الإتحاد وضرورة تحقيقه..

الغداء

ثم تناولنا جميعا الغداء مع الرئيس فى مكتبه، وبذل الرئيس جمال جهدًا كبيرا فى الصلح بين نور الدين ويحيى الفضلى بعد أن عادت الهوة بينهما إلى أعنف مما كانت عليه وتم الصلح فتعانقا وتصافحا. وانصرفنا قبيل الغروب لنلتقى فى حفل سلاح الفرسان المصرى الذى أقامه الضباط فى كوبرى القبة إحتفالا بنجاة الرئيس جمال عبد الناصر من حادث المنشية.

والى الغد.

(٢٧) الأزهرى يتهم الإتحاديين بالخيانة

حكومة الخرطوم تشن أعنف هجوم على مصر

الأزهرى يخطب فى سلاح الفرسان عن الإتحاد

ثم يهاجم الإتحاد بعد يومين فى الخرطوم

لقاء فى باندونج

تحدثت معك أمس عن زيارة الرئيس إسماعيل الأزهرى للقاهرة عقب عودته من لندن، وحضوره مع رفاقه حفل ضباط سلاح الفرسان المصرى الذى أقيم احتفالا بنجاة الرئيس جمال عبد الناصر من حادثة المنشية [١٧٨].

استقبال حار

وقد إستقبل الأزهرى فى هذا الحفل إستقبالاً حارًا، وبعد أن تكلم الرئيس جمال عبد الناصر أخذ الضباط يطالبون الرئيس الأزهرى بإلقاء كلمة.. وسرعان ما استجاب إلى رغبتهم ووقف فتكلم أكثر من نصف ساعة، وأكد بشكل واضح لا يحتمل أدنى شك إصراره وإصرار رفاقه على مبدأ الإتحاد بين مصر والسودان، وهنأ مصر بتوقيع إتفاقية الجلاء، وأطال فى الحديث عن قرب تحقيق أمنية العمر.. وهى إتحاد وادى النيل، وأعلن أن هذا الوادى سيقوم بعد إتحاده بأعظم دور فى تحرير القارة الإفريقية المحتلة المظلمة.

وداع فى المطار

وقبل أن ينتهى برنامج الإحتفال، إستاذن الأزهرى فى الإنصراف لاقتراب موعد قيام الطائرة التى سيستقلها فى عودته إلى الخرطوم، ورافقته إلى المطار

بعد أن كدت أنسى الضجة التى أقامتها صحافة بريطانيا حول تصريحاته فى لندن، وسافر معه إلى الخرطوم زميلاه يحيى الفضلى وعلى عبد الرحمن.

إنقلاب آخر

ولم يمض يوم واحد على سفرهم حتى فوجئت بإذاعة أم درمان تطلق فى الجو تصريحات خطيرة أدلى بها فى مؤتمر صحفى السيد يحيى الفضلى وزير الشئون الإجتماعية وهو الوزير المختص بشئون الإذاعة السودانية والمشرف على سياستها وبرامجها، وكانت كل كلمة من كلمات يحيى الفضلى فى هذا المؤتمر كالقنبلة فى وجه مصر..

لم يكتف يحيى الفضلى بالتنكر لمبدأ الإتحاد مع مصر وقد كان منذ يومين يتحدث معنا وأمام الرئيس جمال عبد الناصر فى القاهرة، عن الإتحاد مع مصر وعن أفضال مصر ومعونة مصر.

لم يكتف بالتهجم على فكرة الإتحاد وتحبيذ الإنفصال عن مصر، بل وصل فى تصريحاته إلى حد مهاجمة نظام الحكم فى مصر.. ووقف يعلن أمام مندوبى الصحف أن على السودان واجبًا ضخمًا، هو تحرير شعب مصر وتمكينه من الإستقلال.

فصل ثلاثة وزراء

وفى خلال هذه الأيام أقدم إسماعيل الأزهرى على إستخدام حقه الدستورى فى فصل الوزراء الثلاثة ـ ميرغنى حمزة وخلف الله خالد وأحمد جيلى ـ وهم الوزراء الذين اتهمهم منذ شهور بأنهم تنكروا لمبدأ الحزب وفكرة الإتحاد.. وأعلن أكثر من مرة أنه يستحيل التعاون معهم، ثم قامت بين الطرفين أزمة حادة إنتهت بأن إستقال الوزراء المفصولون من صفوف الحزب الوطنى الإتحادى، وشكلوا حزبًا جديدًا يقوم على مبدأ إستقلال السودان، وسموه حزب الإستقلال الجمهورى..

حدث هذا والسيد على الميرغنى فى عرض البحر الأحمر عائدًا من مصر.. ولم يشأ إسماعيل الأزهرى أن يؤجل فصل الوزراء يومًا أو يومين حتى يصل السيد على إلى أرض السودان ويستشيره فى الأمر، فكان هذا التصرف فى نظر المراقبين أول خروج من جانب الأزهرى على طاعة زعيم الختمية وراعى حزبه.

واقترب عام ١٩٥٤ من نهايته دون أن يعرف أحد غيرى.. حقيقة موقف الأزهرى ورجال حزبه.. هل هم إتحاديون أو إستقلاليون أو إنفصاليون.. ومع هذا ظل الأزهرى فى مظهر المحافظ على مبدأ الإتحاد.

التصريح المشهور

وفى يوم ٢٦ ديسمبر عام ١٩٥٤ كنت مع الرئيس جمال فى زيارة مدينة قنا بمناسبة كارثة السيول التى أصابتها، وإستمعنا إلى نشرة أنباء محطة إذاعة لندن الساعة العاشرة من مساء هذا اليوم.. استمعنا ونحن نتناول طعام العشاء فى القطار إلى هذه النشرة.. فإذا بالرئيس إسماعيل الأزهرى يدلى بتصريح إلى جريدة "الأيام" السودانية.. وإذا بإذاعة لندن تردد هذا التصريح مرتين وتعلق عليه تعليقًا مطولاً..! وقد جاء هذا التصريح ردا على سؤال وجهه إليه مندوب الجريدة المذكورة.

وإلى القارئ هذا التصريح:

مندوب الجريدة: هل أستطيع أن أعرف رأى سيادتكم الشخصى فى الإتحاد؟

الأزهرى: رأيى الشخصى الذى وصلت إليه الآن أريد أن أعرضه على لجنة الحزب التنفيذية لمناقشته مع غيره من الآراء بغرض الأخذ به أو تعديله ثم عرض ما تصل إليه اللجنة التنفيذية على اللجنة العامة والهيئة البرلمانية لإقراره. وهذا هو رأيى الشخصى فى الموضوع.

١ ـ أن يكون السودان جمهورية برئيسها ومجلس وزرائها وبرلمانها كما أن مصر جمهورية.

٢ ـ أن الإتحاد أو الرباط الذى يربط السودان بمصر فى إتحادهما هو مجلس أعلى يضم مجلس الوزراء السودانى ومجلس الوزراء المصرى، يجتمعون مرة أو

مرات فى السنة لبحث الشئون المشتركة كالدفاع والسياسة الخارجية ومياه النيل.

٢ ـ لم تعرض قرارات المجلس الأعلى على البرلمان لإقرارها أو تعديلها أو رفضها.

غموض

لقد زاد هذا التصريح من الأزهرى غموض الموقف.. إنه يتكلم عن الإتحاد ثم يفسره تفسيرا إنفصاليًا بحتًا.. يجتمع الوزراء السودانيون والمصريون مرة أو مرات للبحث والتفاهم دون أن يتقيد أى الجانبين حتى بالرأى الذى يوافق عليه فى الإجتماع، فعل تسمى مثل تلك الإجتماعات إتحادا بين البلدين؟!

إن وزراء أمريكا وفرنسا وإنجلترا والإتحاد السوفيتى يجتمعون بين وقت وآخر ويتناقشون فى أمور مشتركة عديدة.. فهل معنى ذلك أن أمريكا متحدة مع الإتحاد السوفيتى مثلا؟!

المعارضة

وحتى هذا التصريح الذى نسف فيه الأزهرى الفكرة الإتحادية، لم ترض عنه المعارضة، بل أخذت تشن عليه حملة شعواء، وتتهمه بالتذبذب وعدم الوضوح. ومنذ هذا الوقت إبتدأ كل رجال الأزهرى يتجهون فى خطبهم وتصريحاتهم نحو تأييد فكرة الإنفصال عن مصر تأييدًا كاملاً.

الإذاعة والصحافة

ولم يكتف الأزهرى بهذا التحول الذى لم أستطع له تفسيرًا، بل أخذت الإذاعة السودانية والصحافة التى يشرف عليها تشن حملة شعواء ضد مصر، وضد ثورة مصر بصورة تتضاءل بالقياس إليها حملة حزب الأمة وصحفه ضدها.. ثم أخذ يضيق الخناق على الصحف التى ظلت على عهدها وفكرتها الإتحادية، فأغلق بعضها بأمر إدارى وهدد الأخرى ولم تمض أيام حتى كانت الصحف الإتحادية قد إنتهت تمامًا، وأصبحت كلمة الإتحاد إذا نطق بها إنسان تثير ثائرة الرئيس

الأزهرى.. لقد كانت هذه الكلمة منذ شهر واحد حين كان فى مصر هى الوطنية.. وهى الحرية.. أما الآن فإن هذه الكلمة «الإتحاد» تعنى فى نظر الأزهرى نفسه الذل والعبودية، وضياع كل المكاسب التى حصل عليها السودان بكفاحه وتضحياته.

مؤتمر رؤساء الحكومات العربية

وبزغ فجر عام ١٩٥٥ ليكشف عن مأساة تدور على مسرح العالم العربى، ويقوم بدور البطولة فيها نورى السعيد.. فقد صدر إعلان حلف بغداد فكان صدمة كبرى للعرب، وخاصة بعد أن أكد نورى السعيد على لسان موسى شهبندر وزير خارجيته فى ذلك الوقت أن العراق لن تقبل الإنضمام إلى أى حلف أجنبى.

لقد كان هذا التأكيد فى إجتماع وزراء خارجية الدول العربية بالقاهرة فى شهر سبتمبر عام ٥٤، ثم صدر قرار إجماعى يؤكد هذا المعنى فى هذا الإجتماع.. ثم لم تمض ثلاثة شهور حتى تم تشكيل الحلف العراقى التركى الجديد على الرغم من قرار وزراء الخارجية، وعلى الرغم من قرارات مؤتمر سرسنك الذى مثلت فيه مصر، وسأحدثك قريبًا عما دار بينى وبين نورى السعيد فى هذا المؤتمر أمام جلالة الملك فيصل وسمو ولى عهده عبد الإله.

وانطلقت الحملات توجه ضد مصر من العراق وممن يثورون فى فلك العراق وكانوا وقتذاك كثيرين.. وتتابعت الهجمات فى نفس الوقت على مصر من الجنوب بقيادة وزراء إسماعيل الأزهرى وكان أبرزهم فى هذا المضمار يحيى الفضلى. وكان هذا التجاوب بين هذه الحملات التى إنطلقت ضد مصر من كل هذه الجهات يحمل معنى لا يصعب تفسيره..

سكون تام

ومضت شهور يناير وفبراير من عام ١٩٥٥ ومصر وصحافتها وإذاعتها فى صمت عميق إزاء حملات الإتحاديين فى الخرطوم ضدها.. وكان زعماء فى صمت عميق إزاء حملات الإتحاديين فى الخرطوم ضدها.. وكان زعماء الحزب

الإتحادى الذين عدلوا فجأة عن مبادئهم يعتقدون أن مثل هذه الحملات تعطيهم أمام الشعب المبررات التى تسوغ تحولهم من جانب الإتصال إلى جانب الانفصال.

نور الدين.. صراع بين جبهتين

لم يرض نور الدين وجبهته فى الحزب الوطنى الإتحادى عن هذا الإنحراف الذى إتجه إليه إسماعيل الأزهرى ورجاله.. فحدث صراع بين الجبهتين.. وفجأة أصبح نور الدين فى نظر رجال إسماعيل الأزهرى عميلاً لمصر.. خائنا لبلاده.. خائنا لحزبه.. وسبب ذلك أنه ظل ينادى بالمبدأ الذى قام عليه الحزب الإتحادى وسجله دستوره.. المبدأ الذى عاش فى ظله إسماعيل الأزهرى ورجاله أكثر من عشرين عاما..!

أصبح نور الدين فى نظر يحيى الفضلى مرتشيا، يعمل لحساب دولة أجنبية، والدولة الأجنبية هى مصر.!

أما قاعدة الحزب الإتحادى الشعبية فكانت فى حيرة من أمرها لا تعرف إلى أين تتجه؟

.. فزعماؤها الذين طالما تحدثوا عن وادى النيل ووحدته انشقوا على أنفسهم وأخذوا يتراشقون بكل أنواع الأتهامات والسباب..

وأما حزب الأمة فقد إنتهز هذه الفرصة الفريدة التى جاءته من السماء وشن حملة ضخمة ضد الإتحاديين من الفريقين صورهم فيها بصورة الخونة الذين أوشكوا أن يبيعوا بلادهم للأجنبى لولا لطف الله بالبلاد.. الذى كشفهم أمام الشعب وجعلهم يعترفون بجرائمهم.

وانتقلت هذه البلبلة الكبرى إلى صفوف نواب الحزب الإتحادى فلم يعد أحد يعرف على وجه التحديد إتجاهاتهم وميولهم.. فكانت الصحف تعلن عن تمسك نواب منهم بمبدأ الإتحاد مع مصر ثم تصدر هذه الصحف نفسها فى اليوم التالى تؤكد تحول هؤلاء النواب أنفسهم من الإتحاد إلى الإستقلال.

وفى هذا الجو المشحون بالتقلبات وضع إسماعيل الأزهرى برنامجًا ضخمًا للطواف بالأقاليم واستخدم كل إمكانيات الحكومة التى يسيطر عليها فى تنفيذ هذا البرنامج.. ثم أخذ يدعو إلى الإستقلال فى كل مكان، ويندد بفكرة الإتحاد، ويشدد النكير على كل من يعتنقها ويؤمن بها. ولم يعد أمام الإتحاديين الباقين على العهد وسيلة يعبرون بها عن آرائهم، أو يردون بها على ما يوجه إليهم من تهم وتجريح.

الجو الحر المحايد

وأخذت العرائض والشكاوى تصلنى كل يوم من زعماء الإتحاديين وكانوا يطالبون فيها بوقف هذه الإعتداءات من جانب هذه الحكومة التى آلت على نفسها أن تدمر فكرة الإتحاد على الرغم من أن هذا يتعارض تمامًا مع نصوص وروح الإتفاقية، لأنها تمهد لجو حر محايد يعبر فى ظله الفريقان من أبناء السودان عن آرائهم وميولهم دون ضغط أو إكراه.

وأصبح موقف مصر فى غاية الحرج.. إننا لم نقبل أن يتقرر المصير مع وجود الإنجليز فى السودان، واشترطنا جلاءهم جلاء تامًا عسكريًا ومدنيًا قبل أن يدلى السودانيون بآرائهم فى مستقبلهم.. لأننا لمسنا خلال خمسين عامًا كيف كافح الإنجليز فكرة الإتحاد فى السودان وقاوموا كل من حمل لواء هذه الفكرة وعرضوه للسجن والتشريد.

واليوم.. وقبل إجراء تقرير المصير بشهور.. تقوم حكومة الأزهرى بمثل ما قام به الإنجليز فى الماضى.. وبضغط إسماعيل الأزهرى وزير الداخلية على المؤمنين بالإتحاد ضغطا أشد وأقسى مما كان يفعله روبرتسون السكرتير الإدارى السابق الذى ظل يضطهد الإتحاديين أكثر من عشر سنوات..!

فى باندونج (١٧٩)

كانت فكرة عقد مؤتمر الدول الآسيوية والأفريقية المستقلة قد تبلورت.. وإتصل مندوبو الدول الداعية لهذا المؤتمر بالرئيس جمال عبد الناصر بالإتفاق

حول خطوات المؤتمر، فانتهز الرئيس هذه الفرصة وطلب من السفير الهندى فى القاهرة أن يبلغ حكومته ـ وهى إحدى الدول الداعية للمؤتمر ـ رغبة مصر فى دعوة حكومة السودان إلى هذا المؤتمر، وفعلا وجهت الدعوة إلى حكومة الخرطوم لحضور مؤتمر باندونج.

وفى باندونج تقابلت مع الرئيس الأزهرى وزميليه مبارك زروق وحسن عوض الله بعد أربعة شهور لم أر فيها واحدًا منهم.. فقد كان آخر لقاء مع الأزهرى فى حفل سلاح الفرسان بالقاهرة، الذى ألقى فيه خطبة إتحادية نارية نفى فيها كل التصريحات التى نسبتها إليه صحافة لندن خلال زيارته التاريخية.. وفى باوندج حدثت أزمة بينى وبين الأزهرى..

وإلى الغد.. لتسمع الحديث عنها..

الهوامش

١٧٨) هى حادثة إطلاق النار على الرئيس جمال عبد الناصر، فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ أثناء إلقاء خطاب فى ميدان المنشية بالإسكندرية بمصر وقد تم اتهام الإخوان المسلمون بإرتكاب هذه الحادثة وتمت محاكمة وإعدام عددا منهم. ولكن محمد نجيب يذكر فى كتابه مايلى: كانت هذه المسرحية المدبرة، محاولة لتحويل عبد الناصر إلى بطل شعبى، ومحاولة لينسى الناس مواد اتفاقية الجلاء، ثم هى فرصة ليتخلص عبد الناصر من القوة الوحيدة الباقية وهى الإخوان، وظهر للعيان وبدون عناء أنها مسرحية، لأن محمود عبد اللطيف المتهم باغتيال عبد الناصر كان معروفا عنه مهارته فى إصابة الهدف بالمسدس، كما أنه من الفدائيين المحترفين الذين أرقوا الإنجليز فى منطقة القناة عام ١٩٥١م، ثم إن المسافة كانت قريبة تسمح له بإصابة الهدف وهو جسد عبد الناصر العملاق، ثم إن الرصاصات كانت تسع وكان من الطبيعى أن يصاب بواحدة منها على الأقل، لو إصابة سطحية، أكثر من ذلك ذهب الاتهام إلى حد القول بشريك آخر يسنده بمسدس أو قنبلة ولو أراد الإخوان أن يقتلوا عبد الناصر ويضمنوا نجاح العملية فلماذا لم يرسلوا خمسة أو عشرة لتنفيذها؟. واتضح فيما بعد أن الحائط المواجه لإطلاق النار لم يكن به أى أثر للرصاص مما يثبت أن المسدس كان محشوا برصاص «فشنك»

ـ محمد نجيب. كنت رئيساً لمصر»، ص ٢٦٨ وص ٢٦٩.

(١٧٩) عقد «مؤتمر باندونج» بإندونيسيا فى ١٨ أبريل ١٩٥٥ (٢٦ شعبان ١٢٧٤هـ) وحضرته وفود ٢٩ دولة أفريقية وآسيوية، واستمر لمدة ستة أيام، وكان النواة الأولى لنشأة حركة عدم الانحياز. وشارك فيه الرئيس عبد الناصر بالإضافة إلى رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو وجوزيف تيتو رئيس يوغسلافيا. ولم تحل الانتماءات السياسية المتعارضة بين الدول الحضور فى باندونج دون صياغة عشرة مبادئ تعد ميثاقا للعلاقات بين هذه الدول، تتلخص فى احترام حقوق الإنسان، وسيادة جميع الدول ووحدتها، وعدم التدخل فى شئونها، وتسوية المنازعات بالطرق السلمية، وتنمية المصالح المتبادلة بينها والتعاون. ونتج عن مؤتمر باندونج توطيد العلاقات الشخصية بين بعض زعماء الدول الحضور؛ فقد كان باندونج أول رحلة للرئيس المصرى، جمال عبد الناصر خارج مصر بعد نجاح ثورة يوليو، فتوطدت العلاقات بينه وبين الزعيم الهندى «نهرو» وترجع تسمية عدم الإنحياز إلى خطاب ألقاه نهرو فى (شعبان ١٣٧٣هـ = أبريل ١٩٥م) حيث رأى فى عدم الانحياز هوية مستقلة ودوراً إيجابياً نشطًا، وليس موقفاً سلبيا إزاء التكتلات الخارجية.
مالك بن نبى: فكرة الأفريقية الأسيوية فى ضوء مؤتمر باندونج، دار الفكر، دمشق ١٩٨١.

(٢٨) أزمة فى باوندنج والخرطوم.. من أجل حفل للشاى

قصة المنشورات ومباحثات مياه النيل

الأزهرى يخطب ثانية فى نادى الضباط

نجح مسعى الرئيس جمال عبد الناصر فى دعوة السودان إلى مؤتمر باندونج، وسافر الرئيس إسماعيل الأزهرى إلى جاكرتا فى أبريل عام ١٩٥٥ ورافقه فى هذه الرحلة الوزيران مبارك زروق وحسن عوض الله..

وما أن وصل الوفد السودانى إلى باندونج حتى كنت أول المستقلين فى الفندق الذى نزل فيه.. ولم أكن كما ذكرت بالأمس قد إلتقيت بالرئيس إسماعيل الأزهرى منذ زيارته لمصر عام ٥٤ أى منذ أكثر من أربعة شهور، وقد حدث خلال هذه المدة الإنقلاب المعروف فى إتجاهه وفى أفكاره وخططه.. فبعد أن كان رمزًا للإتحاد فى وادى النيل كله، أصبح يحمل علم الإنفصال الكامل بين البلدين، ويغلو فى الضغط على الإتحاديين الذين لم يتحولوا عن مبدئهم وعهدهم معتمدًا فى ذلك على ما يتمتع به من سلطات الحكم.

مباحثات مياه النيل

وزاد فى توتر الموقف بين القاهرة وحكومة الأزهرى قبيل انعقاد مؤتمر باندونج ما وصلت إليه المباحثات حول تقسيم مياه النيل من فشل..

ففى يوم ٥ أبريل أى قبل ذهابنا إلى المؤتمر بحوالى عشرة أيام وصل إلى القاهرة وفد المفاوضات السودانى برئاسة وزير الرى فى ذلك الوقت خضر حمد، وكان الأستاذ خضر قبل تشكيل الحزب الوطنى الإتحادى من حزب الإتحاديين، ثم اندمج بعد تشكيل الحزب فى جناح الرئيس إسماعيل الأزهرى وأصبح من رجاله المقربين..

وقد حضر مع هذا الوفد السودانى المستر موريس المستشار البريطانى فى حكومة السودان.. ثم فشلت المباحثات بعد أيام قلائل من بدئها، وصاحبت هذه المباحثات أزمة عنيفة زادت من حدة التوتر بين الحكومتين..

طبع قصيدة

فقد ضبطت المباحث العامة فى إحدى مطابع القاهرة قصيدة أمر بطبعها الوزير خضر حمد نفسه، وكانت هذه القصيدة تحمل فى كل بيت من أبياتها هجوما عنيفا ضد نظام الحكم فى مصر وضد قادة الثورة.. ولم نفعل أكثر من مصادرة المنشور، ومع ذلك.. غضب خضر حمد غضبًا لا مزيد عليه، واعتبر هذا التصرف من جانبنا إعتداء على حريته وحقوقه.

فى باندونج

لكل هذه الظروف.. كانت مقابلتى مع الرئيس الأزهرى وزملائه الوزراء فى باندونج فاترة.. وقد دارت بينى وبينهم أحاديث عامة حول الجو فى المدينة.. والرحلة.. ونوع الطائرة.. إلى آخر هذه الأحاديث التى تتصيد لشغل الفراغ.. وفى ختام المقابلة أشار الرئيس الأزهرى إشارة عابرة إلى الدور الذى ألقاه التاريخ على عاتق السودان المستقل تجاه القارة الأفريقية.. ورأيت فى هذه الإشارة فرصة للتنفس فقلت: «يسعدنا أن يستقل السودان إستقلالاً حقيقيًا.. كما يسعدنا أن يتحد معنا. وعلى كل حال فالأمر بيدكم أنتم معشر السودانيين.. أنتم وحدكم، ولا دخل لمصر على حقيقته.. ثم بعد ذلك.. كل منا حر فى رأيه، وفى إتجاهه، فلا وصاية لأحد منا على الآخر.. ويمكن أن نكون دائمًا أصدقاء سواء إتفقنا على الإتحاد أو على الانفصال.. ولا داعى مطلقا لأن يهاجم أحدنا الآخر.. إننا لم نفرض عليكم فكرة الإتحاد التى كنتم تنادون بها إلى أربعة شهور مضت.. بل أعتقد أنكم كنتم تؤمنون بالإتحاد وتنادون به قبل أن أولد.. وإسم حزبكم ـ الوطنى الإتحادى ـ والأسماء التى إخترتموها لصحفكم تشهد على صدق ماأقول.. وأنتم اليوم تؤمنون بالإستقلال، وهذا شأنكم وحدكم.. لا نملك حتى مجرد المناقشة.

معكم فى هذا الأمر.. فى الماضى كانت دعوة الإتحاد تفرض علينا أن نتفاهم حول أمورنا المشتركة. لأن الأتحاد بيننا وبينكم يستلزم هذا التفاهم.. وكنتم تأتون إلينا وتناقشوننا فى أخص أمورنا الداخلية.. وكنتم تقولون أننا نملك هذا الحق، لأنكم تعتبرون البلدين بلدًا واحدًا وكنا نقبل شاكرين هذا الشعور والإخاء»

لم اعاتبه بحرف واحد على ما قاله ووزراؤه فى الخرطوم.. وعلى هجومهم ضد مصر ونظامها وخاصة بعد زيارته لمصر بيومين أثنين.. ولم تكن حتى هذه اللحظة قد صدرت صحيفة مصرية واحدة بكلمة واحدة ضده أو ضد رجاله رغم إستمرار حملتهم القاسية..

إنى أعتز بالصداقة

أنهيت مقابلتى معهم بقولى "«يا سيد إسماعيل لنختلف فى كل شىء.. فقط لا نفقد الصداقة الوطيدة التى جمعتنى بكم سنوات، تلك الصداقة التى سأظل أعتز بها ما حييت".

ودعنى "هاشا باشا" ـ كعادته دائما ـ حتى باب المصعد، واتفقنا على اللقاء فى إجتماعات المؤتمر..

دعوة الرئيس

دعا الرئيس جمال الوفود العربية كلها فى المنزل الذى خصص لإقامته، وحضرت هذا الإجتماع، واستعرض الرئيس معهم الموقف، وتناقشوا حول القضايا التى تهم العرب واليت سيناقشها المؤتمر.

وهنا أستطيع أن أقرر حقيقة مهمة لا أقصد من ورائها توجيه لوم أو إتهام لأحد.. وهى أن كل من حضر هذا المؤتمر التاريخى من أعضاء الوفود، ومن الصحفيين ومن المراقبين، قد لاحظ جيدًا التباعد الهائل فى كل شىء بين وفد مصر ووفد السودان..

وكان الرئيس جمال يأمل أن يظهر أمام العالم مع الرئيس أزهرى كجبهة واحدة ولكن ـ للأسف ـ لم تتحقق هذه الأمنية.. كنا فى جانب وكانوا فى جانب آخر..

حقيقة أن دول المؤتمر ال ٢٩ خرجت بقرارات موحدة على الرغم من وجود دول شيوعية وأخرى محايدة وثالثة تدور فى فلك الغرب وأحلافه.. ولكن ذلك يرجع إلى مهارة الذين وضعوا القرارات، فقد توخوا فيها أن تكون بحيث يرضى عنها الجميع دون الدخول فى مشاكل معقدة يستحيل الإتفاق عليها.. وبمعنى آخر حصر المؤتمر جهده فى إقرار المبادئ.. ولكن المناقشات فى المؤتمر وفى لجانه أظهرت أكثر من خلاف بين دول المؤتمر وكتله المتعددة.

دعوة الوفد السودانى

حضرت يومًا مع الرئيس جمال عبدالناصر مناقشة اللجنة الرئيسية، وكان رؤساء الوفود كلها يحضرون كل إجتماعات هذه اللجنة، ومن بينهم الرئيس الأزهرى وزميلاه، وكانت قد وصلتنا دعوة من الوفد السودانى لتناول الشاى مع بقية الوفود فى الساعة السادسة من مساء هذا اليوم، وكان كل وفد من وفود الدول الـ ٢٩ يحرص على إقامة حفل عشاء، أو غداء، أو شاى، لتكريم بقية الوفود.. ولما كانت أيام المؤتمر محددة بسبعة أيام، لذلك كان يتصادف قيام أكثر من حفل فى وقت واحد.. وكنا حريصين على ألا نرتبط بأى موعد يتعارض مع الوقت الذى حدده الوفد السودانى لتناول الشاى، حتى لاتزيد الحساسية.

غير أنه ـ لسوء الحظ ـ ظلت الوفود فى إجتماع اللجنة الرئيسية فى هذا اليوم حتى الساعة السابعة والنصف مساء، ثم انصرفنا جميعًا فى هذا الوقت ومعنا الرئيس الأزهرى وزميلاه. وكنا قد إرتبطنا بإقامة حفل عشاء لبعض الوفود فى الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم.. فكان طبيعيًا أن نسرع إلى منازلنا لنستقبل الضيوف الذين دعوناهم ولم نتمكن من حضور حفل الشاى السودانى الذى مضى وقته دون أن يخطر ببالنا أنه تأجل.. ولم يخطرنا أحد بذلك، ولو أخطرنا أحد بعدم التأجيل لكان يستحيل علينا حضوره..

صحافة الخرطوم

مع كل هذه الظروف والملابسات، أرسل الصحفيون السودانيون المرافقون للوفد السودانى إلى جرائدهم فى هذا اليوم برقيات تدور كلها حول تخلف وفد

مصر عن حضور حفل الشاى الذى أقامه الرئيس إسماعيل الأزهرى لوفود مؤتمر باندونج.. وقامت القيامة فى الخرطوم، وإنهالت المقالات والتعليقات، وفاضت أنهار الصحف بمهاجمة مصر ووزرائها الذين أجرموا فى حق السودان.. «من هم هؤلاء العساكر الذين لايفهمون الأصول.. إنهم نسوا أنفسهم ويجب علينا أن نلقّنهم درسًا لن ينسوه أبدًا.. إن نهرو (١٨٠) حضر حفلتنا فأين هم من الزعيم نهرو؟»

وهكذا إستمرت هذه الحملة الشعواء أسابيع عديدة.. تحمل لواءها جريدة «الإتحاد» التى تنطق بلسان الأزهرى وحزبه الإتحادى الإنفصالى.

وقامت الإذاعة الحكومية السودانية من جانبها بجهد مشكور فى هذه الحملة.

الميثاق الثلاثى

قد يتساءل البعض.. لماذا لم أحضر أنا الحفل السودانى بالنيابة عن الرئيس، إذا كان يتحتم عليه حضور حفل العشاء الذى أمر بإقامته لضيوفه فى نفس الوقت؟!

والحقيقة أنه كان من العسير على أن أتخلى عن عشاء الرئيس، فقد كان المدعوون إليه هم : سمو الأمير فيصل (١٨١) رئيس مجلس وزراء المملكة العربية السعودية، ودولة خالد العظم (١٨٢) وزير خارجية ودفاع سوريا، والسيد فاخر الكيالى وزير الإقتصاد السورى، ومعهم أحد الضباط السوريين. وكان الغرض من هذا العشاء التفاهم حول العقبات التى صادفت مشروع الميثاق الثلاثى بين مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية، ذلك المشروع الذى قمت فى البلدان العربية بالتفاهم حول نصوصه ووقعت على أسسه بإسم مصر مع زعماء السعودية وسوريا..

عدنان المالكى(١٨٣)

ومما زاد فى أهمية هذا الإجتماع أن بعض تطورات خطيرة حدثت فى صباح ذلك اليوم فى سوريا.. فقد قام أحزب القومى السورى (١٨٤) بإغتيال العقيد عدنان المالكى نائب رئيس الأركان السورى، وكان من العمد الرئيسية فى الجيش السورى الذى ساند بكل ما يملك من نفوذ فكرة إقامة حلف مصرى - سورى -

سعودى.. وكانت سوريا وقتها تعانى ضغطًا رهيبًا من جانب تركيا والعراق وإنجلترا وأمريكا لمحاولة ضمها إلى حلف نورى السعيد..

كنت أباشر الشئون العربية أمام مجلس قيادة الثورة، وكان يتحتم على حضور مثل هذا الإجتماع.

ولكن كيف أقنع صحافة الأزهرى؟ بل كيف أقنع الأزهرى نفسه بكل هذه الظروف؟ لقد أصبح هذا من الأمور المستحيلة، ولو أننى مت قبل ميعاد هذا الشاى لما غفر لى الموت ذنب عدم حضورى للحفل أمام إسماعيل الأزهرى!

اعتذار

لقد توجهت فى صبيحة اليوم التالى إلى حيث يقيم وفد السودان، وشرحت لهم عذرى الذى حال دون حضورى.. وخيل إلىّ بعد كل هذا أنه لم يكن واحد منهم مستعدًا للإقتناع ... فقد كانوا يؤمنون بأننا تجاهلناهم عن عمد، لأنهم تنكروا لمبدأ الإتحاد وإنتهجوا سبيل الإنفصال بين البلدين.

دعوة من الرئيس جمال

كان الرئيس جمال عبدالناصر قلقًا من كل هذه التطورات التى حدثت بين القاهرة والخرطوم وطلب منى أن أرجو الرئيس إسماعيل الأزهرى أن يمر بالقاهرة فى طريق عودته إلى الخرطوم حيث نلتقى جميعًا ونتفاهم حول كل الأمور، أو على الأقل نتفاهم على الطريق الذى يحفظ بيننا الصداقة والأخوة مهما إختلفت آراؤنا السياسية.

فاتجهت فى آخر يوم إلى الرئيس الأزهرى وزملاءه بإسم الرئيس لزيارة القاهرة فى عودتهم، فقبلوا شاكرين..

فى لبنان

وفى طريق الوفد السودانى إلى القاهرة مر بلبنان الرئيس إسماعيل الأزهرى وزميلاه أن يصرحوا للصحافة اللبنانية بتصريحات أخرى شديدة تدور حول نبذ فكرة الإتحاد التى تعرقل حرية السودان وتؤثر على سيادته.

وفى النهاية وصلوا إلى القاهرة ودعوناهم إلى حفل إفطار فى نادى الضباط، وكنا يومها فى رمضان.. وفعلا حضروا الحفل، وكان الرئيس جمال عبدالناصر وكل مجلس الثورة من الحاضرين، كما ضم الحفل بعض ضباط الجيش المصرى..

وبعد العشاء وقف الرئيس جمال عبدالناصر وألقى خطابًا أكد فيه لأول مرة أن مرحلة الإنتقال تنتهى فى يناير كما نص الدستور المؤقت، وأن الدستور الجديد سيعلن فى يناير عام ٥٦.

وبعد أن إنتهى الرئيس من إلقاء خطابه، طلب الضباط كلمة من الرئيس الأزهرى!

الأزهرى يخطب مرة ثانية فى الضباط

ووقف الأزهرى ليلقى كلمته، وإشرأبت الأعناق كلها تنتظر ما سيقول ، لقد سمعه هؤلاء الضباط أنفسهم منذ شهور خمسة فى ميس الفرسان وهو يحدثهم بدماثة منقطعة النظير عن الإتحاد، وعرفوا بعد ذلك ماذا حدث فى الخرطوم، وماذا حدث فى باندونج، وكانوا مع ذلك قد علموا بتصريحاته فى لندن قبل خطبة الفرسان بأيام معدودة، فكان من الطبيعى أن تشرأب أعناقهم ويتطلعوا فى لهفة إلى كلام الزهرى، وإلى مفاجأة جديدة من الأزهرى.

ووقف الأزهرى وتكلم ساعة.. تكلم فى كل شىء.. ولم يقل أى شىء!!.. أقسم بالله ثلاثًا أنى لم أستطع أن أفهم جملة واحدة من هذا الخطاب.. لقد عرفت الأزهرى جيدًا خلال سنوات وفهمت كل كلمة قالها أمامى وكان دائمًا وأبدا إنسانًا واضحًا طيبًا مخلصًا.. ولكنى فى هذه المرة لم أفهم منه حرفًا واحدًا.. ولا أظن أن ضابطًا واحدًا من آلاف الحاضرين فهم منه حرفًا واحدًا أيضًا.

إلى مكتب الرئيس

وانتقلنا بعد الحفل مباشرة إلى مكتب الرئيس جمال عبدالناصر فى رئاسة مجلس الوزراء حيث عقدنا إجتماعا استمر حتى قرب مدفع الرفع..

أما ما دار فى هذا الإجتماع الخطير.. فسأخبرك بتفصيلاته.. غدا.. بإذن الله.

الهوامش

(١٨٠) جواهر لال نهرو، ولد فى ١٤ مايو ١٨٨٩ وتوفى فى ٢٧ مايو ١٩٦٤ يعد نهرو أحد زعماء حركة الإستقلال فى الهند، انتهج نهرو السياسة المتقشفة لغاندى فعلى الرغم من الثراء الذى تمتع به نهرو ووالده أصر الاثنان على التنازل عن جميع الممتلكات والتحقا بحزب المؤتمر الهندى، وقد جاء قرار نهرو بأتباع سياسة التقشف بعدما رأى الحياة القاسية التى يحياها القرويين من الفقراء المعدمين، فنقم على هذه الحياة المرفهة التى يحياها. وهو أول رئيس وزراء للهند بعد الإستقلال، وشغل المنصب من ١٥ أغسطس ١٩٤٧ حتى وفاته، شغل أيضا منصب وزير الخارجية والمالية وهو أحد مؤسسى حركة عدم الإنحياز العالمية عام ١٩٦١، نهرو كان كاتبا غزير باللغة الانجليزية وكتب عددا من الكتب، مثل اكتشاف الهند ولمحات من تاريخ العالم. سيرته الذاتية، نحو الحرية.

(١٨١) الملك فيصل بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود (١٩٠٦/ ١٣٢٤هـ - ٢٥ مارس ١٩٧٥/ ١٣٩٥هـ)، ملك المملكة العربية السعودية للفترة ١٣٨٤ هـ الموافق ٢ نوفمبر ١٩٦٤ وحتى ١٣٩٥ هـ الموافق ٢٥ مارس ١٩٧٥. هو الابن الثالث من أبناء الملك عبدالعزيز آل سعود الذكور، وأمه هى طرفه بنت عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ من ذرية الشيخ محمد بن عبدالوهاب. وقد ولد فى مدينة الرياض. كانت سياسته تقوم على أساس عدد من الثوابت وهى حماية واستقلال وهوية البلد، والاحتفاظ بميثاق جامعة الدول العربية وبنشاط الدفاع عن التضامن الإسلامى. وطالب بمؤسسة تشمل العالم المسلم وزار عدة بلاد مسلمة لشرح الفكرة وقد نجح فى إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامى التى تضم الان أكثر من ٥٠ دولة إسلامية فى يوم الثلاثاء ٢٥ مارس ١٩٧٥ قام الأمير فيصل بن مساعد ابن عبد العزيز آل سعود بإطلاق النار عليه وهو يستقبل عبدالمطلب الكاظمى وزير البترول الكويتى فى مكتبه بالديوان الملكى وأرداه قتيلاً.. ولم يتاكد الآن الدافع الحقيقى وراء حادثة الاغتيال لكن هناك من يزعم بأن ذلك تم بتحريض الولايات المتحدة وبريطانيا بسبب سياسة مقاطعة تصدير البترول التى انتهجها فى بداية السبعينات من القرن العشرين. عبدالوهاب الكيالى: مرجع سابق، ج٤ ص٦٨٠.

(١٨٢) ولد فى عام ١٩٠٢ بدمشق، وورث باكرًا مهام والده الاجتماعية والسياسية بصفته أحد أهم أعيان دمشق.

- قام عام ١٩٣٠ بإنشاء شركة الأسمنت بدمشق، وأسس عام ١٩٣٥ الغرفة الصناعية.

ـ عين فى عام ١٩٣٩ وزيرا للخارجية فى وزارة احمد نصوحى البخارى أثناء الإنتداب الفرنسى.

ـ فى نفس العام كلفه الجنرال الفرنسى دانتز بتشكيل الوزارة فى دمشق.

ـ رشح نفسه عام ١٩٤٥ لرئاسة الجمهورية، وفاز شكرى القوتلى، الذى كلف العظم بتشكيل الوزارة.

ـ عين وزيراً للعدلية بعد انسحاب القوات الفرنسية عام ١٩٤٦ فقام بإلغاء الامتيازات الأجنبية فى سورية..

ـ ترأس الوزارة للمرة الثانية عام ١٩٤٨ مع إحتفاظه بوزارة الدفاع

ـ ترأس الوزارة عام ١٩٥١ للمرة الرابعة.

ـ أعاد ترشيح نفسه مرة ثانية فى ١٩٥٥ لانتخابات رئاسة الجمهورية لكن القوتلى فاز مرة أخرى.

ـ فى عام ١٩٥٨ كان العظم الوزير الوحيد الذى سجل تحفظه على قيام الوحدة بين سورية ومصر.

ـ فى عام ١٩٦١ شارك بصياغة بيان الإنفصال.

ـ ١٩٦٣ التجأ إلى لبنان، ومات بعد أقل من سنتين.

(١٨٣) عدنان محمد شمس الدين المالكى عسكرى سورى فى دمشق عام ١٩١٩. بعد الجلاء ساهم مساهمة فعالة فى تأسيس الجيش السورى حيث أسس مدرسة صف الضباط، وخرج أولى دوراتها وكان مديرا لدورات عدة فى الكلية العسكرية. اشترك فى تنفيذ إنقلاب حسنى الزعيم فى ٣٠ آذار ١٩٤٩، كما حاول فى عهد أديب الشيشكلى أن يقود حركة تمرد، أدت إلى اعتقاله وبقائه فى السجن ما يزيد على سبعة أشهر.

بعد عودة الحكم الوطنى للبلاد برئاسة هاشم الأتاسى عاد عدنان المالكى إلى الجيش وتسلم منصب معاون رئيس الأركان العامة، وكان يعمل على توظيف الجيش لمصلحة حزب البعث الذى كان يتحالف معه بقوة.

تم اغتيال العقيد المالكى فى الملعب البلدى بدمشق ٢٢ أبريل ١٩٥٥ خلال مباراة لكرة، كان يرعاها بين منتخبى الجيش السورى وخفر السواحل اللبنانى.

- وليد المعلم: تاريخ سورية (١٩١٨ ـ ١٩٥٨)، دمشق، طبعة أولى ١٩٨٥، ص(١٨٩، ١٨٨).

الملازم أول سليمان على الصباغ: مذكرات ضابط عربى فى جيش الانتداب الفرنسى،مطبعة كرم، دمشق، ١٩٧٨، ص (٢٠٩، ٢٠٨).

- رياض المالكى: ذكريات على درب الكفاح والهزيمة، مطبعة الثبات، دمشق، ١٩٧٢، ص١٠٥، ١٠٤.

(١٨٤) هو حزب يدعو إلى القومية العربية، واعتبار الوطن السورى البيئة التى نشأت فيها الأمة السورية، والقول بأن النهضة السورية تستمد روحها وتاريخها السياسى والقومى من مواهب الأمة السورية. وقد اتخذ الحزب اسم «الحزب القومى الاجتماعى» وشعاره زوبعة لها أربعة

رؤوس ترمز إلى الحرية؛ والواجب والنظام والقوة أنشأه أنطون سعادة سريًا فى لبنان وانكشف فى ١٦ نوفمبر ١٩٣٦ لسلطات الانتداب الفرنسية التى سجنت أعضاءه آنذاك. عانى الحزب من النظام السياسى والاجتماعى الطائفى المكرّس دستوريًا فى لبنان والانقلابات العسكرية فى سوريا مما أدى لاصطدامه على الدوام مع الطبقات السياسية الطائفية فى لبنان والحكم العسكرى فى سوريا.

تتركز مبادئ الحزب فى الأفكار التى يذكرها أنطوان سعادة فى كتابه نشوء الأمم وهى:

- فصل الدين عن الدولة.
- منع رجال الدين من التدخل فى الشؤون السياسية والقضائية والقومية. لجأ انطوان سعادة مؤسس الحزب القومى السورى إلى سوريا برغبة من حاكمها العسكرى آنذاك حسنى الزعيم الذى عاد فسلمه للسلطات اللبنانية يوم ٦ يوليو / تموز ١٩٤٩ فأعدمته رميًا بالرصاص بعد يومين. انتقل ثقل الحزب بعدها إلى سورية ليشارك بقوة فى الحياة السياسية والبرلمانية حتى اغتيال نائب رئيس أركان الجيش السورى العقيد عدنان المالكى واتهام رقيب سورى قومى يدعى يونس عبدالرحيم بتنفيذ الجريمة عام ١٩٥٥ حظُر الحزب على إثرها من ممارسة نشاطه رسميًا فى سوريا حتى عام ٢٠٠٥. نتيجة هذا الاغتيال حصل انشقاق داخلى فى الحزب قام به جورج عبدالمسيح لعلاقته بالمؤامرة. استمر عبدالمسيح يقود فصيلاً يحمل نفس اسم الحزب «جناح الإنتفاضة» ويعتمد نفس العقيدة والدستور وتختلف فيه القيادة فقط، ولايزال هذا الجناح ناشطًا بشكل ضعيف حتى الآن.
- إزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب.
- إلغاء الإقطاع، وتنظيم الاقتصاد القومى على أساس الإنتاج، وإنصاف العامل، وصيانة مصلحة الأمة والدولة.
- إعداد جيش قومى ذى قيمة فعليه فى تقرير مصير الأمة والوطن.. عبدالوهاب الكيالى: مرجع سابق ج٣ ص٢٦٥.

(٢٩) أمين صندوق الحزب الإتحادى

يفشى كل أسرار الحزب المالية أمام المحكمة

الأزهرى يؤكد بعد باندونج إتحاديته للرئيس جمال

النواب الجنوبيون يلجأون لغاباتهم إزاء تهديد وزير شمالى

إنتقلنا من نادى ضباط الجيش - وكنا فى رمضان - إلى مكتب الرئيس جمال عبدالناصر فى رئاسة مجلس الوزراء، وحضر من الجانب السودانى الرئيس إسماعيل الأزهرى والوزيران مبارك زروق وحسن عوض الله.

الرئيس يتكلم

وتكلم الرئيس جمال طويلاً، وأبرز فى عبارة قاطعة، وفى صورة واضحة أنه ليس من مصلحة مصر أن تضغط على سودانى واحد لكى يعلن عن رأى لا يؤمن به، لأن الإتحاد إذا تحقق والصداقة مفقودة بين قادة البلدين، فستكون نتيجته كارثة على البلدين.

وقال سيادته.. سبق أن قلت لكم منذ شهور أننا نستطيع أن نكون أصدقاء رغم إختلافنا فى العقائد والأهداف.. وأنا لايهمنى مطلقًا أن تكونوا إتحاديين أو إنفصاليين، فهذا من شأنكم وحدكم.. ولكن أحب أن تصارحونى برأيكم على حقيقته لكى أهيىء الرأى العام فى بلادى، وأصارحه بحقيقة أوضاعكم، وإتجاهاتكم.. أنا لا أحب أن تتعلق بلادى بأوهام.. فهل لى أن أعرف بالضبط ماذا تريدون؟!..

كالعلاقة بين الهند وإنجلترا

واستمر الرئيس جمال يقول: منذ أسابيع تقابلت مع السيد الدرديرى محمد

عثمان ـ وهو الآن عضو مجلس السيادة فى السودان بعد إعلان الإستقلال ـ وكان معنا صلاح.. وحدثنى الأخ الدرديرى عن فكر الإتحاد بين البلدين ـ وأظنه من الرجال المؤسسين للحزب الوطنى الإتحادى ـ فقال فى معرض حديثه أنه يعتقد ويرى أن تكون الرابطة بين مصر والسودان كالرابطة بين الهند وانجلترا.. فأجبته على الفور: يا سيد درديرى لنسم الأشياء بأسمائها.. إنك تعتبر علاقة الهند بأنجلترا نوعًا من الإتحاد..! لك أن تسميها هكذا، ولكنى لن أغش الناس ولن أخدع أهل مصر.. إنى أسمى مثل هذه العلاقة إنفصالا.. لا إتحادا.. ولا يمكن أن نسمى مثل هذا الرباط نوعا من أنواع الإتحاد.

واستمر الرئيس جمال يخاطب الأزهرى ويقول: وهذا الرأى يا سيد أزهرى ينطبق على التصريح الذى أعلنتموه فى ديسمبر الماضى.. فقد أعلنتم عن نوع الإتحاد الذى تؤمنون به، ولكنى لايمكن أن أعتبر هذا النظام الذى شرحته فى تصريحك هذا.. نوعا من أنواع الإتحاد.. بل أسميه إستقلال كل بلد عن الآخر، وإنفصال كل منهما عن الآخر إنفصالا كاملاً.

فهل لى أن أعرف بالضبط الرأى الذى استقر إتجاهكم عليه، حتى أهيئ أهل بلدى لما يتوقع من أحداث فى السودان؟ ولنبق دائمًا وأبدًا أصدقاء.. سواء إتفقنا على الاتحاد.. أو على الإنفصال والإستقلال..

الأزهرى يؤكد اتحاده

وتكلم بعد ذلك الرئيس الأزهرى.. وأشار فى أول حديثه إلى إيمانه وإيمان زملائه المطلق بمبدأ الإتحاد الحقيقى بين مصر والسودان، وقال أنه يوافق الرئيس جمال تمامًا فى أن تصريحه الذى أدلى به فى ديسمبر الماضى ـ عقب عودته من لندن ـ كان معناه الإستقلال الكامل لكل بلد عن الآخر.. وإن كان سماه مشروعًا إتحاديًا.. واعتذر بأنه فعل ذلك تحت ضغط الرأى العام.. فإنه أخذ يتجه بعنف وشدة نحو الإستقلال وخاصة بعد أن لمس خروج الإنجليز، وشعر بأن فى الإمكان الحصول على إستقلال كامل نظيف لا تشوبه أية شائبة.

ولولا هذا التصريح الذى ألقاه ـ فى لندن ـ لسقطت وزارته فى الحال.. فقد أصر فريق من أعضاء حزبه الإتحادى على ضرورة العمل فى طريق الإستقلال

دون الإتحاد.. ولما كانت أغلبيته ضئيلة جدا فى البرلمان فإن مثل هذا التهديد كاد يودى بحكومته.. وهو يعتقد إعتقادًا راسخًا أن تخليه عن الحكم فى هذه الظروف لن ينجم عنه سوى نكسة كبرى فى البلاد، وبذلك لاتتحقق الأهداف التى أوشكت البلاد أن تحصل عليها، وأهمها تنفيذ الإتفاقية وإخراج الإنجليز.. واستمر سيادته يقول: ثقوا أن خروجى من الحكم كان سيمكن أقدام الإنجليز فى البلاد، وأظنكم تعلمون جيدا نوايا الإنجليز وأهدافهم نحو بلادنا، ومشاريعهم المستقبلة التى يريدون أن يربطوا بها السودان..

.. ومبارك زروق يتدخل

وهنا تدخل السيد مبارك زروق قائلا: فى ناس ما كانوا عاوزين الإنجليز يخرجوا من السودان، واعترضوا على الجلاء.. واتجه نحوى وقال: وأظنك يا صلاح تعرفهم كما نعرفهم تمامًا..

الرئيس جمال يسأل..

قال الرئيس جمال: قد يتجه الرأى العام فى السودان نحو الإستقلال، وقد تكون الأغلبية الآن فى هذا الجانب دون الإتحاد.. هذا شىء.. ولكنى أحب أن أعرف موقفكم أنتم كقادة.. فى أى طريق ستسيرون.. إنكم أنتم الذين حملتم لواء الدعوة للإتحاد قبل أن نجىء إلى الحكم.. فهل كنتم تنادون بالإتحاد لأنكم كنتم تؤمنون بهذا المبدأ.. أو لأنكم كنتم تشعرون بأن الأغلبية فى السودان إتحادية؟

مازلنا نؤمن بالإتحاد

وأجاب الرئيس أزهرى: نحن كنا.. ولازلنا نؤمن بالإتحاد إيمانًا مطلقًا..

وسألت بدورى فقلت: بماذا نعلل إذن إغلاق جريدة إتحادية بأمر إدارى منكم وتهديدكم لجريدة أخرى؟ وإقدامكم على تغيير رئاسة تحريرها لأنها نادت بالإتحاد وأصرت عليه؟

وبماذا أفسر خطبكم النارية فى كل مكان، وفى الإذاعة السودانية، وكلها تدور حول مهاجمة الفكرة الاتحادية بعنف وقسوة، والدعوة فى كل مكان إلى الإستقلال الكامل، والإنفصال عن مصر.. بل ماذا أفسر أتهاماتكم العلنية لفريق من حزبكم

ظل على مبدأ الاتحاد بأنهم مأجورون، وموتورون، ويعملون لصالح دولة أجنبية. لم يكن يقصد بها غير مصر؟ بماذا نفسر كل ذلك ؟ مرة أخرى أحب أن أكرر أن هذا من شئونكم التى لايحق لنا التدخل فيها، إنما أحب أن أستفسر عن موقفكم حتى نكون على بينة من أمرنا كما قال الرئيس جمال.. ولا داعى مطلقا لأن نخدعكم أو تخدعونا.

شكوى..

وهنا حول الرئيس الأزهرى الحديث، فشكا من تدخل بعض المصريين فى السودان فى شئون حزبه ونوابه.. وضرب مثلا لذلك رجال مكتب الإتصال المصرى الذين يتصلون بالنواب ويؤلبونهم على قيادة الحزب.. كما أشار سيادته إلى أحد رجال الأزهر الموفدين إلى جوبا لتدريس الدين الإسلامى، وقال أنه دائما يتحدث فى السياسة.

وهنا قلت للأزهرى: أليس هؤلاء الرجال هم بأعينهم الذين كنتم دائما وأبدا تتصلون بهم وتحادثونهم فى كل أمر من أموركم؟.. وعلى كل حال نحن مستعدون لتغيير كل رجل لاتطمئنون إليه فى الحال، إذا كان هذا يرضيكم.

تعهدات فى السحور

كانت الساعة قد اقتربت من الثانية بعد منتصف الليل ولم يبق سوى ساعة واحدة تستطيع خلالها أن نتناول طعام السحور لنتهيأ للصيام.. وأختتمت الجلسة بعد أن أكد الرئيس أزهرى بما لايدع أى مجال للشك إصراره على مبدأ الإتحاد.. وموافقته المطلقة على مشروع الدستور الإتحادى الذى حدثتك عنه منذ أيام.. وقد تعهد بأن يزيل كل ضغط وقع للاتحاديين وصحافتهم حتى تتكافأ الفرص أمام الفكرتين عند إجراء تقرير المصير، وتعهدت له أنا الآخر أن أمنع أى إتصال منّ جانب رجالنا برجال الحزب.

مباحثات مياه النيل

وقبل أن ينفض الإجتماع بدقائق.. تناول الرئيس إسماعيل الأزهرى فى حديث عابر موضوع الخلاف حول تقسيم مياه النيل.. طلب من الرئيس جمال أن يساعد

فى إيجاد حل لهذه المشكلة التى استغلت فى تأليب الرأى العام فى السودان على مصر إلى حد خطير..

وقال الأزهرى: أنه لسوء الحظ أن تثار هذه المواضيع الشائكة فى مثل هذه الأوقات بالذات، وأشار إلى المعارضة فى السودان، وحملتها على إتفاقية المياه التى عقدت عام ٢٩ (١٨٥) ونالت مصر فى ظلها حوالى خمسين مليارا من الأمتار المكعبة بينما نال السودان أربعة مليارات فقط.

وختم الأزهرى حديثه بأنه فى موقف بالغ الدقة والحرج وبأنه يرجو ملحا أن يعود إلى السودان بشىء يطمئن الناس هناك على حل مقبول لهذه المعضلة التى أخذت تهدد كل علاقة بين البلدين.

سوء حظ

حقا إنه من سوء الحظ أن تثار مثل هذه المواضيع الشائكة فى مثل هذا الوقت الذى يتقرر فيه مصير السودان، وفى الوقت الذى توترت فيه العلاقات بين الحكومتين لهذه الظروف كلها التى حدثتك عنها خلال الأيام القليلة الماضية.. ولكنه القدر..

الوعد بإيجاد حل

وأكد الرئيس جمال لإسماعيل الأزهرى وهو يشد على يده مودعًا، أنه سيعمل جاهدا على تقديم عرض جديد، وأنه سيحاول أن يبلغه بهذا الحل قبل سفره فى اليوم التالى إلى الخرطوم، وهنا إنصرف الجانب السودانى، وبقيت مع الرئيس جمال فى مكتبه بعض الوقت وطلب منى سيادته أن أتصل بالفنيين فى مجلس الإنتاج المشرفين على موضوع مفاوضات مياه النيل، وأن أبلغهم على لسان الرئيس أن يتساهلوا فى موقفهم وأن يعدلوا من العرض الذى سبق أن قدموه إلى الجانب السودانى.. ذلك العرض الذى رفضوه رفضًا باتًا. وكان هذا العرض المرفوض يتلخص فى تقسيم الفائض من مياه النيل على البلدين بنسبة عدد السكان دون النظر إلى نصيب كل من البلدين من المياه المستخدمة حاليا والتى تعتبر حقًا مكسبًا لايجوز المساس به.

مع رجال مجلس الإنتاج

وقبل أن آوى إلى فراشى إتصلت برجال مجلس الإنتاج وإتفقت معهم على اللقاء فى مكتبى بوزارة الإرشاد فى التاسعة من صباح نفس اليوم. وفعلا إلتقيت بالقائم قام سمير حلمى والدكتور محمد أمين والأستاذ خليل إبراهيم ، وإتفقت معهم على تقديم عرض جديد للأزهرى يقضى بتقسيم صافى المياه الفائضة بين البلدين بالتساوى على أن يوافق الجانب السودانى على مبدأ إقامة السد العالى.. وستقوم مصر بطبيعة الحال بتعويض الأهلين من سكان حلفا الذين ستغمر أراضيهم مياه السد..

ارتياح..

وفى حوالى الساعة الحادية عشرة من صباح نفس اليوم إتجهت ومعى الخبراء المصريون إلى فندق سميراميس حيث إجتمعنا بالرئيس الأزهرى وزميليه فترة من الوقت وقدمنا إليه العرض الجديد.

وقد أبدى الرئيس الأزهرى ومبارك زروق وحسن عوض الله إرتياحهم إلى هذا العرض وقالوا أنهم ـ وإن كانوا غير فنيين فى هذه الموضوعات ـ إلا أنه يبدو لأول وهلة أن هذا التقسيم عادل تماما، وسيكون له أعظم الأثر فى نفوس أهل السودان .. وسيكون هذا الحل السعيد بإذن الله فاتحة عهد جديد بين البلدين.

وفى المساء قمت أودعهم فى مطار القاهرة الدولى، وأنا يخيل إلى للمرة العاشرة أن عهد الأزمات قد ولى وأن كل الأمور تسير على ما يرام.

فى الخرطوم

بعد يومين من وصول الأزهرى إلى الخرطوم قام فى حشد كبير من المواطنين بنادى الخريجين، وألقى خطابًا طويلاً تحدث فيه عن مؤتمر باندونج، والدور الذى قام به وفد السودان فى هذا المؤتمر العالمى.. وتكلم عن مفاوضات مياه النيل، وأشار إلى العرض الجديد الذى قدمته مصر خلال زيارته الأخيرة، ثم حبذ هذا العرض، وقوبل هذا العرض فعلا من الجموع المستمعة له بتأييد حار.. ولكن.. لم تمض سوى أيام قلائل إختفت خلالها حملات رجال الحزب الإتحادى وصحفهم ضد مصر.. وفجأة وبدون سابق إنذار، عادت الحملات

أعنف وأشد مما كانت عليه، وكان كل ذنب مصر، أن نور الدين ورجاله ظلوا يؤيدون فكرة الإتحاد مع مصر ويهاجمون الأزهرى وأتباعه، فانعكس هذا الهجوم من جانب نور الدين على مصر مباشرة ووقف الأزهرى يخطب فى إحدى المناسبات فهاجم المصريين ومرتزقتهم، وأعلن أن حزبه لن يتزحزح عن الإستقلال قيد أنملة.

خضر حمد يهدد الجنوبيين

وفى هذا الوقت بالذات أخذت علامات القلق التى كانت تسود صفوف النواب والشيوخ الجنوبيين فى الخرطوم .. أخذت هذه العلامات تنتقل إلى رجال الجنوب .. مع رجال البرلمان الذين رحلوا إلى بلادهم أثناء عطلة البرلمان.

وزاد من حدة الموقف بين الجنوبيين والشماليين وقتذاك، أن أحد الوزراء - وهو خضر حمد - ألقى خطابا هدد فيه باستخدام القوة ضد الجنوبيين الذين ينادون بقيام إتحاد فيدرالى [١٨٦] بين الجنوب والشمال.

وعلى أثر هذا التصريح إجتمع النواب الجنوبيون، ورأس هذا الإجتماع أحد الوزراء الجنوبيين صاحب الأزمة الشهيرة الماضية «بولين آلير» ثم قرر المجتمعون الإنتقال إلى دوائرهم الإنتخابية فى الجنوب لإستشارة مواطنيهم فى هذا الموقف الخطير.

وإشتدت المهاترات بصورة لم يسبق لها مثيل بين الأجنحة التى يتكون منها الحزب الوطنى الإتحادى، ووصلت هذه المهاترات إلى المحاكم. فوقف خلف الله خالد - وزير الدفاع الذى فصله أزهرى مع زميليه منذ شهور - أمام المحكمة كشاهد فى إحدى القضايا الصحفية، وكشف النقاب عن كل أسرار الحزب الوطنى الإتحادى وعن أمواله وعن كل شىء فيه.. وكان خلف الله خالد قبل فصله من الوزارة وإستقالته من الحزب أمينا لصندوقه.. وأحدثت هذه الشهادة ضجة كبرى فى الأوساط السياسية.. وتصلب الأزهرى فى موقفه المعادى للاتحاد لكى ينفى عن نفسه شبه العمل بتوجيه مصر.

وفى هذا الجو المتوتر داخل صفوف الحزب.. وبين الأحزاب بعضها وبعض.. وبين الشماليين والجنوبيين حدث بين جندى مصرى وآخر سودانى حادث فى الخرطوم فتلقفه رجال الأزهرى، وأخذوا يوقدون به نار الكراهية ضد مصر.

الهوامش

(١٨٥) اتفاقية مياه النيل الاولى كانت عام ١٩٢٩ فى عهد الاستعمار لمدة ٣٠ سنة والتى أعطت مصر والسودان حصة الأسد.. وكانت دول الحوض الآخرى لاتحتاج للمياه كثيرًا وتكتفى بمياه الامطار الغزيرة التى تهطل فى تلك البلدان فى الوسط الافريقى .. ومنحت الاتفاقية مصر حق الاعتراض على اتفاق يتم بدونها أو بدون مشاورتها. تم تجديد الإتفاقية عام ١٩٥٩ والتى أعطت مصر ٥٥.٥ مليار لتر مكعب بينما حصل السودان على ١٨.٥ مليار.

(١٨٦) الفيدرالية هى اتحاد اختيارى بين ولايات أو دول أو أقوام تختلف قوميا أو عرقيا أو ديانة أو لغة أو ثقافة حتى تتحول إلى شخصية قانونية واحدة أو نظام سياسى واحد مع احتفاظ أجزاء أو الولايات. بما يعنى توافر الاستقلال الذاتى للولايات المكونة للاتحاد ولهذا أهم ما تتميز به الدول الفيدرالية أو الاتحادات الفيدرالية هو الإستقلال الذاتى لكل ولاية أو دولة مشتركة فى الإتحاد.

وللإتحاد الفيدالى دستور أو قانون أساسى يسمى بالدستور الإتحادى يبين الاسس والركائز التى تقوم عليها الولايات أو الدول داخل الإتحاد كما يحدد الإختصاصات والسلطات الإتحادية أو المركزية علاوة على بيان سلطات الولايات وإختصاصاتها.

(٣٠) أزمة الجندى المصرى والجاويش السودانى

قبيلة «الباريا» تقابل الحاكم العام بمظاهرة..

وتطلب إتحادا فدراليا بين مصر والشمال والجنوب

الأزهرى يفصل نور الدين من الوزارة

كان حديث أمس عن جو الخرطوم المحموم، وما كان يثار فيه من حملات عنيفة ضد مصر فذكرت أن هذه الحملات فى الصحف وفى الإذاعة كان يقودها يحيى الفضلى وزير الشئون الإجتماعية والساعد الأيمن لإسماعيل الأزهرى.. وأن الحكومة عمدت إلى الضغط الرهيب على الإتحاديين الذين ظلوا على مبدئهم والذين كان يتزعمهم نور الدين وزير الاشغال فى ذلك الوقت ونائب رئيس الحزب .. وأن تأكيدات الأزهرى فى القاهرة عقب مؤتمر باندونج ذهبت كلها أدراج الرياح، وأن حجة رجال الأزهرى التى إلتمسوها لتبرير حملاتهم، هى أن مصر تؤيد الإتحاديين فى الحزب الإتحادى ضد الذين نادوا بالإنفصال من رجال الأزهرى..

بين الأمس واليوم

لقد كان الأزهرى يصور الشقاق الذى حدث فى الحزب بينه وبين نور الدين على أنه من صنع المصريين وتأييدهم..! فما رأى الأزهرى فى الأحداث التى تقع فى السودان اليوم؟

هل مصر هى التى شجعت فى اليومين الماضيين ١٨ نائبًا على أن ينسحبوا من صفوف حزبه إلى صفوف حزب «الشعب» الجديد؟! وهل مصر هى التى دفعت ثلاثة من وزرائها منذ أربعة أيام إلى أن يستقيلوا من صفوف حزب الأزهرى؟

أليس من هؤلاء الثلاثة الشيخ على عبدالرحمن وزير المعارف الحالى وكان من أشد المتعصبين لإسماعيل الأزهرى ومن كبار مؤسسى حزبه القديم.. حزب الأشقاء؟!

وهل نجح الأزهرى فى يوم من الأيام ـ قبل الثورة أو بعدها.. قبل الإستقلال أو بعد الإستقلال ـ فى التفاهم مع نور الدين.. حتى يصب جام غضبه على مصر بسبب موقف نور الدين، ويتخذ من هذا الموقف ذريعة يتنكر فى ظلها لمبدأ الإتحاد، وينقض كل الإتفاقات التى قبلها معى بمحض إرادته قبل الذهاب إلى باندونج وبعد العودة من باندونج..؟!

قتل الإتحاد

لقد كان من الواضح الجلى أن الأزهرى ورجاله قد صمموا على قتل فكرة الإتحاد فى ربوع السودان بأى ثمن.. وأنهم لايتورعون عن إستغلال كل موقف يستطيعون أن ينفذوا منه إلى تأليب الرأى العام فى السودان ضد مصر، كى يصلوا فى النهاية إلى الإنفصال الكامل بين البلدين.

قصة الجندى

ومن أغرب الحوادث التى إستغلها رجال الأزهرى ضد مصر عدة أسابيع حادثة لايمكن أن يخرج الإهتمام بها عن نطاق مأمور القسم.. إذا قدر لها أن تصل إليه.. ولكن الحكومة السودانية قامت وقعدت وأصبحت كل صحفها وإذاعتها، لاحديث لها إلا عن خطورة الأمر حتى لم يبق سوى إبلاغ هذا الأمر إلى مجلس الأمن أو محكمة العدل الدولية.. وإلى القراء قصة هذه الحادثة..

كان أحد جنود الجيش المصرى المرابطين فى "ثكنات عباس" بالخرطوم، يقف أمام مدخل الثكنة فى الليل لحراستها.. كان يقف وهو شاكى السلاح، ثابتا فى مكانه الملاصق لمدخل الثكنة، وعند منتصف الليل رأى مواطنًا سودانيًا بجلباب أبيض يتجه نحوه فى ثبات، واقترب السودانى حتى لم يبق بينه وبين باب الثكنة سوى أمتار قليلة، فأخذ الجندى الحارس وضع الإستعداد وصاح فى القادم قف من أنت؟ كالعادة المتبعة فى كل الجيوش.. وابتعد المواطن السودانى، ثم عاد بعد

قليل، وتكرر هذا الموقف، حتى اشتبه الحارس المصرى فى أمره وأراد إقتياده إلى غرفة الحراسة حتى الصباح، ولكن المواطن السودانى أبرز بطاقة تحقيق شخصية تثبت أنه من رجال البوليس السودانى.. فتركة الحارس فورًا ومضى السودانى فى طريقه.. هذا كل ما حدث..

ثورة الخرطوم

وفى صباح اليوم التالى قامت الخرطوم ولم تقعد.. وأصدرت النشرات الرسمية فى الإذاعة وفى الصحف.. عن حادث الإعتداء الرهيب على سيادة السودان، وعلى كيان السودان، وعلى حرية السودان لماذا..؟ لأن حارسًا مصريًا يحرس ثكنة عسكرية أوقف مواطنا يرتدى الملابس المدنية، وسأله عن سبب إقترابه من الثكنة، ولما تعرف على شخصيته.. صرفه.. وانتهى كل شىء.

طلب تسليم الجندى

ماذا كان يفعل الحارس؟ بل ماذا كان يفعل أى حارس فى العالم إزاء مثل هذا الموقف..؟ إن واجب الحارس أن يتصرف هذا التصرف نفسه إذا مر بجواره رئيس أركان حرب جيشه بين الغروب وشروق الشمس.. وإذا لم يتصرف مثل هذا التصرف تعرض للعقاب طبقا لكل تعاليم الجيوش العسكرية..! وإن مهمة الضابط النوبتجى فى كل ثكنة هو التأكد من قيام الحراس بالإعتراض، وعقابهم على جريمة الإهمال فى الإعتراض على أى قادم طبقا لقانون الأحكام العسكرية هو المحاكمة بمجلس عسكرى.

ومن ثم ظهر واضحًا أن حكومة الخرطوم تنتهز أية مناسبة لإثارة الشعور بالكراهية فى السودان ضد مصر حتى يتحقق لها الغرض الذى إتجهت إليه منذ شهور.

وفى صباح اليوم التالى إتجه قومندان بوليس الخرطوم إلى مقر قيادة الجيش المصرى، وطالب رسميًا بتسلم الجندى المصرى الحارس، لأنه هدد الشاويش السودانى، وأفهمه القائد المصرى أن تصرف الجندى فى نقطة حراسته سليم لا غبار عليه، وأنه إذا فرض وأخطأ الجندى وهو فى ثكنته فإن عقابه من سلطة

قيادته العسكرية.. وحتى إذا كانت الثكنة سودانية والعسكرى المخطىء فى الثكنة سودانيا فإن أمر عقابه يوكل دائما إلى قيادته العسكرية إلا فى أحوال الجرائم المدنية المعروفة.

ولم يفلح هذا المنطق القانونى فى إقناع قومندان البوليس بل أصر على ضرورة تسلم الجندى.. فرجاه القائد المصرى أن يمهله يوما واحدا حتى يتصل بالقيادة العامة فى مصر.

القائد يتصل بالقاهرة

وأرسل القائد المصرى أحد ضباطه بالطائرة فوراً لعرض الموضوع علينا وقابلت الضابط، وبعد أن تفاهمت مع القائد العام.. طلبت منه إبلاغ قائده فى الخرطوم.. أن يعيد الكرة ويحاول إقناع المسئولين بالتنازل عن فكرة تسلم الجندى .. فإذا أصروا على موقفهم فليسلم الجندى.. وأمرنا إلى الله..

تصميم

وأبت السلطات السودانية أن تقتنع، واشتدت الحملة ضد مصر، فقام القائد بتسلم الجندى فوراً للبوليس السودانى.. ولم تهدأ الحملة مع ذلك، بل استمرت فى الصحف وفى الإذاعة، ولم تحاول صحيفة واحدة أن تدافع عن موقف مصر، وتظهر حقيقة الموضوع، ومدى تفاهته ، فقد أغلق الأزهرى كل الصحف المؤيدة لمصر، ولم يسمح لإحداها بأن تظهر مرة أخرى على الرغم من أنه وهو فى مصر وعد بفك أسر الصحف التى تدعو للإتحاد حتى يتوفر الجو المحايد للفكرتين اللتين سيجرى عليهما الإستفتاء..

استمرت الصحف عدة أيام تلغط بالحديث عن هذا "الإعتداء البشع على حرية السودان" وطالب بعضها بمحاكمة القائد المصرى لأنه تردد فى تسليم الجندى فوراً، وطالب بعضها الآخر الحكومة السودانية بضرورة طرد هذا القائد..

وقالت إحدى الصحف "هذه هى المرة الأولى ـ على ما تذكره ـ التى يمتنع فيها أحد الجيشين من إتباع قوانين البلاد" .. ولاشك أن ذاكرة الصحيفة كانت من

الضعف إلى الحد الذى خفى عليها فيه ما قام به جيش الإحتلال البريطانى - خلال خمسين عامًا - فى كل ركن من أركان السودان.

مجرد مثل

هذا مثال واحد يكشف عن مدى حرص حكومة الأزهرى فى ذلك الوقت على إثارة الرأى فى السودان ضد مصر.. ناهيك بالحملات اليومية ضد نظام الحكم فى مصر وضد الحاكمين العساكر الذين سلموا إستقلال بلادهم إلى الإنجليز، وإلى أسيادهم الأمريكان بعقد إتفاقية الجلاء التى مكنت للنفوذ والإحتلال البريطانى إلى الأبد فى شمال الوادى.. مما يضر بسلامة السودان واستقلال السودان وأخذت القصص تنتشر كل يوم عن دقائق ما يحدث فى مجلس قيادة الثورة حتى لكأن مراسلى الصحف السودانية كانوا يحضرون معنا كل الإجتماعات.

أخذ السير رالف ستيفنسون وسامًا بمناسبة إحالته إلى المعاش وإشتراكه فى توقيع إتفاقية الجلاء وأقيم حفل وداع للسفير الأمريكى كافرى وحرمه.. ورأت بعض صحف الخرطوم فى هذا الوسام وفى هذا الحفل جريمة لاتغتفر وأخذت توضح للرأى العام كيف باع رجال الثورة بلدهم، وكيف تواطأوا مع المستعمرين.

الحاكم العام فى الجنوب

وفى هذا الوقت بالذات كان الحاكم العام الجديد "سير نوكس هولم" يقوم برحلة طويلة فى أرجاء الجنوب وفى خلال زيارته للمديرية الإستوائية قوبل بمظاهرة من بعض أفراد قبيلة "الباريا" وكانت المظاهرة تهتف بالإتحاد بين مصر والسودان، وقيام إتحاد فيدرالى بين الشمال والجنوب..

ولم أجد وصفًا أصف به الحالة فى الجنوب إذ ذاك أدق من تعليق نشرته صحيفة "الأيام" فى الخرطوم، وقد كانت هذه الجريدة تقف من مصر دائما موقف العداء الصارخ، ومن ثم لايمكن أن يقال أنها كانت تخدم وجهة النظر الرسمية.

قالت الجريدة بالحرف الواحد فى ١٩/٢/٥٥:

"رفعت الحواجز فجأة بين الجنوب والشمال، وابتدأت القومية السودانية تتلمس طريقها فى محيط النشوء والإرتقاء، والجو عطر بعبير الحرية من جهة، ودنس من ناحية أخرى من دنس القساوسة والمفتشين البريطانيين الذين أثاروا على أوسع نطاق مخاوف الجنوبيين وعدم ثقتهم فى الشماليين.. وفى هذا الجو المحموم قذفت السودنة بحفنة من أبناء الشمال إلى الجنوب ووضعت فى أيديهم مشكلة إدارة الجنوب وتطويره.. ولايمكن أن نحافظ على الجنوب ما لم نضعه فى أيدى قوية أمينة انتهى تعليق الجريدة السودانية.

هذا دون شك وصف دقيق للحالة التى وصلت إليها المناطق الجنوبية، التى ترك فيها المستعمر آلافا من بذور الفتن والكراهية.

النواب والشيوخ الجنوبيون

أخذت فكرة قيام إتحاد فيدرالى بين الشمال والجنوب تنتشر بسرعة كبيرة بين صفوف النواب والشيوخ الجنوبيين.. كانوا يعتقدون أن إنفرادهم بالحكم فى مناطقهم يتيح لهم فرصة أكبر للنهوض بمناطقهم والتخلص من سيطرة حكومة الخرطوم..

ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة أن الحالة مازالت حتى الآن كما كانت عليه فى الماضى تقريبا.. ففى اليومين الماضيين قرأت فى الصحف السودانية أن تكتلا كبيرا قد حدث فى صفوف النواب الجنوبيين تحت لواء حزب الأحرار الجنوبى..

وإن الغرض الرئيسى من هذا التكتل هو المطالبة بنظام الإتحاد الفيدرالى حينما تجتمع الجمعية التأسيسية التى ستضع بعد شهور دستور السودان.

وأن الغرض الرئيسى من هذا التكتل هو المطالبة بنظام الإتحاد الفيدرالى حينما تجتمع الجمعية التأسيسية التى ستضع بعد شهور دستور السودان.

وأرجو ألا يساء فهم شرحى للموقف قبل تقرير المصير.. فأنا اسجل الآن التاريخ.. ولا داعى مطلقًا لكى نتجاهل الحقائق مهما كانت مرة.. وخير للقائمين بالأمر فى السودان أن يواجهوا المشاكل جادين ويلتمسوا حلها بدل أن يهملوها بحجة المحافظة على كيان البلاد ووحدة البلاد..

الاتحاد مع مصر

وفى هذا التوتر بين زعماء الشمال - وبخاصة رجال الحزب الوطنى الإتحادى - وبين زعماء الجنوب فى الخرطوم أخذت فكرة الإتحاد مع مصر تجد بينهم تأييدا قويا وتعضيدا بعيد المدى..

واليوم أزيح الستار عن حقيقة آن الأوان لكى أسجلها للتاريخ: فقد اتصل بى بطرق مختلفة.. بالرسائل .. وبالحضور إلى مصر أكثر من ٩٠٪ من نواب وشيوخ المديريات الجنوبية، وكانوا فى ثورة جامحة ضد حكومة الأزهرى.. وكانوا يحملوننى تبعة الحال التى وصلوا إليها، ويؤكدون أنهم لايمكن أن يتفاهموا مع حكومة الخرطوم أو يتعاونوا فى ظل مثل هذا النظام.. وأنهم يفضلون الإنضمام إلى زملائهم فى شرق أفريقيا.. (وهنا يكمن أخطر تهديد للسودان ولمصر تبعا لذلك، فالإنجليز قد غذوا هذا الشعور إلى حد بعيد المدى خلال نصف القرن).

وكانوا يقولون لى.. الآن لقد أخرجتم الإنجليز الذين كانوا يقفون حكما بيننا وبين الشماليين، ونحن نريد أن نتحد معكم - ونحن لانعرفكم - لكى تكونوا حكما بيننا وبينهم.

لوم الأزهرى

لايمكن أن ألام على أنى أستمع إلى هؤلاء السودانيين.. فقد سبق أن تقابلت واستمعت إلى عشرات الألوف من أهل الشمال.. فمن التجنى أن يحملنى الأزهرى ورجاله وزر ما فعله الإنجليز ضد وحدة البلاد بمساعدة مئات البعثات التبشيرية وآلاف القسس والرهبان.

من التجنى أن أتهم بأنى أنا الذى أثرتهم ضد الأزهرى.. فقد تركت السودان منذ تسعة شهور ثم إستقلت البلاد والموقف يقارب ما كان عليه.. وقد كانت كل الصحف السودانية قبل هذه الحوادث تعترف بعوامل الخلاف بين الشمال والجنوب .. ولم تفعل حكومة الأزهرى شيئا على الإطلاق فى سبيل علاج هذه الحالة، بل لعلها كانت تفعل العكس..

حجة

لقد كانت حكومة الأزهرى ـ كما قلت ـ تتلمس أى شىء ممكن أن يستغل لإثارة الرأى العام السودانى ضد فكرة الإتحاد، وقد ذكرت من أمثلة ذلك قصة الجندى المصرى والشاويش السودانى..

شعر الأزهرى بأنه فى حاجة إلى أن يواجه الموقف برجاله المخلصين له دون غيرهم فأقدم على إستخدام حقه الدستورى، وفصل خصمه نور الدين وزير الأشغال من الوزارة، كما فصل بولين آلير وزير الثروة الحيوانية الجنوبى.. وكان الوزيران يحملان علم الإتحاد مع مصر.. الأول فى صفوف الشماليين، والثانى فى صفوف الجنوبيين..

وبذلك أصبحت وزارة الأزهرى بعد كل هذه الإنشقاقات تكاد تكون مقصورة على رجال حزب الأشقاء السابق.. حزب الأزهرى، قبل أن يندمج مع بقية الأحزاب فى الحزب الوطنى الإتحادى..

وهكذا تحلل هذا الحزب، أى الوطنى الإتحادى، بعد عامين تقريبا من إنشائه فى فندق سميراميس فى القاهرة.. تحلل ذلك الحزب الذى تشكل بأعجوبة من رجال الأحزاب الإتحادية ودخل معركة الإنتخابات الأولى ونجح بأعجوبة.. وبدلامن أن ينجح فى تحقيق هدفه، وهو الإتحاد كما جاء فى دستور، نجح فى القضاء على صفوف الإتحاديين.. ومطاردة الفكرة الإتحادية وإلى الغد.

الفهرس